"أنا الموت فوق الأرض.. وأنا من يحيا تحتها"

النبض صفر

عبدالرحمن جاويش

رواية

رواية

النَّبْضُ صِفْرٌ

(أنا الموءودُ فوقَ الأرضِ، وأنا مَنْ يَحْيا تحتَها)

عبدالرحمن جاويش

دار تويا للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب : النَّبْضُ صِفْرٌ
المؤلف : عبدالرحمن جاويش
المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس
الإخراج الداخلي : رشا عبدالله
تصميم الغلاف : عبدالرحمن حافظ
رقم الإيداع : 3769 / 2017
ردمك : 978-977-6549-33-3
الطبعة الأولى: يناير 2017

المدير العام : هاله البشبيشي
المدير التنفيذي : شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر و التوزيع Dar.toya
@Dar_Toya
Dar.toya
(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014
٣٥ شارع النصر – المعادي – القاهرة – مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

إهداء..

- إلى أخي الأكبر والوحيد.. بك أكتفي عن الجميع، دُمتَ لي.
- إلى كل مـن عـاش حياتـه دون أن يغـترَّ بهـا.. ولـكلِّ مَـن مـات راضيًـا عـمَّا فعـل.
- إلى يحيـى الطحـاوي.. الـذي أصرَّ عـلى أن يحـكي نصيبَـه مـن الروايـة بنفسـهِ؛ فشـاركني الحَـكْيَ، وتشـاطرنا الوَجَع.

الخَاتِمَة

كـم أكـره القيـادةَ وقـت الغـروب.. خاصـةً حـين يكـون الطريـقُ وعـرًا مُتربًـا كمعظـم الطـرق التـي تـؤدي إلى المقابـر، وحـين تجلـس إلى جـواري أنثـى لا تكـفُّ عـن النحيـب. لم يتـوانَ هاتفـي المحمـول عـن إصـدار ذلـك الصـوت المزعـج.. فتحـتُ "تابلـوه" السـيارة بحثًـا عنـه لأخرسـه فلـم أجـد إلا كتابًـا يحمـلُ اسـمي مُدرجًـا فوقـه بخـطٍّ أكـبر عنـوان: "العـودة من المـوتِ إلى المـوتِ"، أعـدتُ النظـر إلى الطريـقِ فلـم يمـلأ عينـيَّ إلا الغبـارُ الـذي نثرتـه عجـلاتُ السـيارة، أخـبرتُ تلـك النوَّاحـة بجانبـي أن تبحـث عـن الهاتـف فـوق الأريكـة الخلفيـة للسـيارة.. تلتفـتُ لتأتينـي بقطعـةٍ مـن الرخـام خفيفـة الـوزن محفـورٍ عليهـا اسـمي مسـبوقًا بوصـف "المغفـور لـه"، ومخطوطًـا فوقـه آيـة: ﴿يَـا أَيَّتُهَـا النَّفْـسُ الْمُطْمَئِنَّـةُ ارْجِعِـي إِلَى رَبِّـكِ رَاضِيَـةً مَرْضِيَّـةً فَادْخُـلِي فِي عِبَـادِي وَادْخُـلِي جَنَّتِـي﴾.

أدركتُ أنني قد اقتربتُ من وجهتك، تأخذني عيناك للنظر في المرآة المثبتة داخل السيارة لأطالع ذلك الكائن الذي صرته؛ لا أعرف ما هو ولكنني أدركُ جيدًا أنه لا ينتمي إلى أيٍّ من عالميْ الأحياء ولا الأموات.. كم تغيَّر شكلي بعد الحادثة، وكم تغيَّرت طباعي وميولي ورغباتي ونظرتي للأشياء..

اللعنة!.. من أين ظهر هذا الكلب الأسود؟!

من الجيد أنني لم أدهسه، حسبي ما تحمِله رقبتي من دمٍ قد سال أثناء رحلتي في العودة إلى الحياة.. أوقفت سيارتي لأوقف معها عاصفة الغبار التي كانت تُبارك رحلتي، ترجَّلت منها بخطى غير ثابتةٍ مُستمدًا قوتي من ضعفها.. تردَّدَت قليلًا قبل أن تلحقَ بي.

حاولتُ تلاوةَ بعض الآيات القرآنية، ولكنني لم أتذكر منها إلا تلك المحفورة على قطعة الرخام، فلم أفعل.. أفزعني نباحُ الكلب الناجي من عجلات سيارتي وكأنه يسبني على تهوُّري في القيادة، اختلط صوته برائحةِ الغبار المنثور ومع منظر شواهد القبور الصامتة من حولي ليصنعوا مزيجًا مُزعجًا نجح في التشويش على حواسي وعكر صفاء أفكاري. وجدتُ هاتفي أخيرًا في أرضية السيارة أثناء نزولي منها.. فحصته سريعًا لأجدَ رسائل التعازي تنهال عليَّ، وجدتُ عددًا من المكالمات الفائتة التي يتمنى لي أصحابُها الصبر

والسلوان وما إلى ذلك من عبارات نعي الجرائد التي لا معنى لها، والتي كانوا يقولونها لأقاربي منذ فترة كرثاءٍ حزينٍ على وفاتي.. لا وقت للردِّ عليهم.

أحاول فتحَ بوابة الحوش الذي يضمُّ مقابر جميع أفراد عائلتي.. مُمسكًا بيدي مفتاحًا صغيرًا وباليد الأخرى ذلك القفل الصدئ الذي لم يتغير منذ أمدٍ بعيدٍ، تستقرُّ فوق رأسي لافتةٌ ضخمةٌ مهيبةٌ كُتب عليها بخطٍّ رُقعة أسود اللون: "مدافن عائلة الطحاوي".

الكما هو واضحٌ فهذا اسم عائلتي إذا كنتَ ممن يهتمون بالأصول، أما إذا كنت ممن يهتمون بالأسماء الأولى فيُمكنك مُناداتي يحيى؛ أنا المَوْءودُ فوق الأرض وأنا من يحيا تحتها.

أعرفُ أن حديثي مُبهم مُشتت بلا رأس ولا جسد، كنتُ أرغب أن تطول تلك اللحظات لألتقط أنفاسي وأخبرك بالتفصيل كيف حدث ما حدث، ولكن القفل استجاب الآن لمفتاحي، وحانت لحظةُ الحساب..

١

وصول متأخر

الأربعاء 1 فبراير 2006

استيقظ شكري الطحاوي على صوت جرس الباب الذي أنَّ من شدة الطرقات المزعجة المُنهالة عليه، لحوحةٌ هي مثل أبواقٍ في كتيبة جيشٍ تبتر نوم المُجَندين.. صاح بكلماتٍ غير مفهومةٍ ليُخبر الواقف- خلف الباب- أن ينتظر.. مشى حافي القدميْن- بغير اتزانٍ- حين فتح البابَ لم تظهر عليه الدهشةُ حين رأى شابًّا يرتدي زيًّا عسكريًّا وآخربملابس مدنية، لا بد أنه ضابط، لم يعبأ بهما ووجَّه حديثَه لسيدةٍ تقفُ خلفهما مُرتديةً عباءةً سوداء اللون:

- جايبة لي الحكومة يا زينب لحدِّ البيت.. هيَّ دي آخرة العِشرة؟!

قاطع الضابط عتابه قائلًا بلهجةٍ رسميةٍ إن زوجته قد حصلت على حُكم ضده بالمكوث في شقة الزوجية السابقة؛ بحُكم كونِها مُطلقةً وحاضنةً لأطفاله. لم يرد شكري فأمره الضابط أن يُخلي الشقة من متعلقاته الشخصية.. نظر إليه شكري مُستنكرًا، وقال بلهجةٍ لم تخلُ من طاعةٍ:

- إحنا تحت أمر القانون.. بس لا مؤاخذة الست دي مالهاش في البيت شِبْر.

زفر الضابط بحنقٍ وقال وهو يجزُّ قليلًا على أسنانه أنه مُقَدِّرٌ للموقف، ويحترم أن شكري مُدَرِّسٌ فاضلٌ ومُربٍّ للأجيال.. ولكن يجب عليه أن يسمح له بتأدية عمله وتطبيق القانون، ثم أمره بجمع ملابسه وإخلاء المنزل.. أجاب شكري بأن وجوده قانوني؛ حتى وإن حصلت زينب على الكثير من الأحكام ضده!

أطلقت زينب سبَّة صارخةً دون أن تهتم بإشارة العسكري لها بالصمت، اختلط صياحُها مع صوتٍ أنثوي صادرٍ من داخل الشقة يسأل شكري بلهجةٍ ناعسةٍ عمَّن يقفُ معه على الباب. ردَّ عليها شكري مُطمئنًا لعدم وجود مشكلةٍ، قاطعه الضابط غاضبًا:

- أنت كمان جايب نسوان الشقة؟!.. لِمّ زبالتك دي وامشي بدل ما أقلّ أدبي عليك!

نهاه شكري بلهجةٍ خبيثةٍ عن الخوضِ في سيرة زوجته الجديدة، أخبره أن قسيمة الزواج موجودةٌ بدرج مكتبه بالداخل في حالة أراد التأكد من كلامه. حاول الضابط أن يرفعَ صوته على بكاء زينب المختلط بعبارات ندبِ الحظ، ووجَّه حديثه إلى شكري مؤكدًا أنَّه لا شأن له بزواجه من عدمه، وأن ما يعنيه هو تنفيذ الحُكم بقوة القانون، ردَّ شكري بنفس الهدوء:

- جنابك مش مدِّيني فرصة أتكلم.. أنا معاك في كل اللي أنت بتقوله، بس إزاي هاسلِّم طليقتي شقة مش بتاعتي أصلًا؟

لم يُعطِه شكري فرصةً للرد، وأردف كأنه تدرَّب كثيرًا على هذا الموقف.. أخبره أن الشقة تم تأجيرُها قبل الطلاق لزوجته الجديدة بعقدٍ مدَّته عشر سنين، وأكمل قائلًا:

- الجماعة الجديدة بقى كتَّر خيرها كانت سيبانا نقعد في أملاكها.. يعني قانونيًّا ماعنديش حاجة أدِّيها لطليقتي.. وعقد الإيجار جوَّه برضه في نفس الدُّرج اللي فيه القسيمة.

لم تحتمل زينب ما سمعت ولطمتْ على وجهِها، حاول العسكري الذي تعاطف معها السيطرة عليها بوجهٍ مُنكسٍ وشعورٍ قاتلٍ بالقهر.. طلب الضابط من شكري بلهجةٍ

عمليةٍ المستندات التي تُثبت كلامه، وحين تأكد من صحة ادعائه وجَّه حديثه للزوجة السابقة:

- للأسف يا مدام زينب جوزك لعبها صح، وطبعًا مش محتاج أقولك إن بعد عشر سنين الأطفال هايكونوا خرجوا من حضانتك.

لم تسمعه من شدة بكائها، فاستدرك الضابطُ أن تنفيذ الحُكْم قد تأخَّر أوانُه ولم يعد له فائدة، نظر إلى شكري وقال له مُبتسمًا:

- ابقى سلّم لي على ناجي الطحاوي.. مش هو المحامي بتاعك؟!

ردَّ شكري باستغرابٍ، قائلًا:

- وابن عمي كمان يا باشا.. بس عرفت إزاي مع إنِّي مش موكله رسمي؟!

- شغله باين.. متنساش تقول له ياخد باله من نفسه.

***

نظر أمجد بضجرٍ لساعة يده، نزل بنظره قليلًا حتى وصل إلى الدبلة الفضية في إصبعه البنصر، والمحفور عليها بالإنجليزية اسم "إيفلين" الجالسة إلى جواره يبدو عليها الإعياء. كانت بيضاء البشرة، صهباء ذات شفتيْن ممتلئتيْن

ورديتيْ اللون، نُثِر النمشُ على وجهها ورقبتها.. حاول أمجد التخفيف عنها فوجَّه بصره مباشرةً صوب عينيْها الزرقاويْن شديدتيْ النقاء، وقال بصوتٍ خفيضٍ:

- ماعرفش جُبران الزفت ده اتأخر ليه!

أومأت برأسِها دون اكتراثٍ، فاقترح أن يذهبا للسوق الحُرَّة حتى يصل جبران، أشاحت بيدها طالبةً منه ألا يتحدث كأن هذه زيارتها الأولى لمصر. تعجَّب من تغيُّر طبعها من بعد زيارتهم الأخيرة لأهلها في ألمانيا، ردَّت بضيقٍ:

- أنت عارف إني كنت عايزة نفضل معاهم في ألمانيا.

سألها مُعاتبًا:

- عايزة تعيشي مع أهلك ولّا عايزة تعيشي في أي مكان برّه مصر.. يعني مثلًا لو رجعنا إنجلترا واشتغلنا هناك.. هايبقى ده موقفك؟!

ردَّت بعصبية:

- انس إنك مصري وقول لي ميزة واحدة لقعدتنا في هنا!

أجاب بهدوءٍ أنه إذا أقام في ألمانيا أو إنجلترا سيصبح مجرد طبيبٍ نفسيٍّ مثله مثل آلاف غيره؛ أما في في مصر فثقافة الطب نفسي مُستحدثة عليهم، وقد ازداد الوعي بأهميته مؤخرًا، وبالتالي سترتفع قيمته العلمية في هذا المجال.

عقَّبت إيفلين بلهجةٍ ساخرةٍ أنه يُريد الإقامة في مصر ليُعاير أبناء بلده ببقائه فيها، ويدَّعي عليهم أنه يستحق تقديرًا أعلى إذا كان يعيش في بلدٍ ثانٍ، ردَّ بلهجةٍ أقل حدَّة:

- مش عيب إني أروح المكان اللي تبان قيمتي فيه، بعدين إنتي عارفه أكتر مني إن الفلوس اللي بأعملها في مصر أكتر من أي مكان تاني.

لم ترد إيفلين كعادتها في عدم إكمال النقاش، وسرحت في منظر قاعة الانتظار الخاوية بمطار القاهرة الدولي.. أغراها عقلها ببعض ذكريات الطفولة؛ تذكرت مكوثها في مدينة كولونيا الألمانية برفقة والديْها واثنيْن من الإخوة، كانت أكبر الأبناء وعلى الرغم من كونها الابنة الوحيدة.. لكنها استمدَّت قوة الشخصية من والدتها كما استمدَّت ذلك الشَّعر الناعم أحمر اللون وتلك البشرة المشرقة كشمس الربيع، ونالت من أبيها كل ما هو طفولي في شخصيتها: عنادها الشديد، ورغبتها الدائمة في أن تظفر بفخر من حولها؛ الأمر الذي حفَّزها دراسيًّا وجعلها تُصمم على السفر في بعثةٍ متوجهةٍ إلى إنجلترا لدراسة الصيدلة.

وقتئذٍ كان أمجد ذلك الفتى القاهري متفوقًا في كل شيء: بدءًا من الرياضة، مرورًا بتكوين العَلاقات الاجتماعية والعاطفية، وحتى التفوق الدراسي الذي أهَّله ليدرس الطب النفسي في جامعة بيرمنجهام- حيث قابل إيفلين- بعد

أن أرسل لهم ورقةً بحثيةً نالت إعجابهم.. لم يكن ممن ينبهرون ببنات الغرب.. ولكن إيفلين كانت حالةً خاصةً.

قرَّر أن يُثير إعجابها على طريقته الخاصة؛ حفظ قصيدة للشاعر الألماني "جوته" وتعمَّد أن ينطق معظم كلماتها بطريقةٍ خاطئةٍ، ألقى عليها كلماتِ الشِّعر مثل أسهم خائبةٍ مرتعشةٍ، ضحكت فأدرك نجاح خطته، نجح تمامًا في حجز تذكرة لدخول قلبها. تكلما كثيرًا وتشاركا الكثير من الاهتمامات، لم تخلُ عطلاتهما الأسبوعية من التجوُّل والسفر عبر أنحاء المملكة؛ كثيرًا ما جلسا في ساحة قصر باكِنجهام يتحدثان عن موطنيْهما في محاولةٍ لإذابة الفروق الثقافية والحضارية بينهما.. علَّمته الألمانية، وجعلها تشاهد القنوات المصرية على التلفزيون حتى تتقنَ اللهجة.. وعلى الرغم من اختلافِ الخلفية التي نشأ عليها كلاهما، فقد ارتاحا أكثر حين وجدا نقطة لقاء فكري متمثلةً في الثقافة البريطانية التي تأقلما عليها بسهولةٍ.

قبَّلها لأول مرةٍ أثناء جلوسهما على ضفاف نهر التايمز، أشعلت هذه القُبلة داخلها ذكرى بعيدةً كانت تظن أنها مُحِيت إلى الأبد: ذكرى فيليب.. جارها وزميلها في كلية الصيدلة بمدينة دوسلدورف التي لا تبعدُ كثيرًا عن مسكنها بكولونيا، ظنَّت لفترةٍ طويلةٍ أنهما قد خُلقا لأجل بعض، لامس شفتيْها لأول مرةٍ على سطح مركبٍ صغيرٍ طافت بهما

نهـر الرايـن.. وبـين قُبلـة الرايـن وقُبلـة التايمـز اسـتعرت جـروحٌ والتأمـت أخـرى.

قاطـع فيـضَ ذكرياتهـا وصـولُ جُـبران التومرجـي والسـائق الخـاص بأمجـد.. كان صديـق طفولتـه، لكنـه لم يُكمـل تعليمـه عكـس أمجـد الـذي أثبـت نجاحـه داخـل الدراسـة وخارجهـا حتـى عـاد إلى مـصر واضعًـا اسـم "أمجـد عـمَّار" وسـط أشـهر الأسـماء في عـالم الطـب النفـسي. أشـار أمجـد لجُـبران كي يحمـلَ الحقائـب وسـأله بغضـبٍ عـن سـبب تأخـيره دون أن ينظـر لـه، ردَّ جـبران بابتسـامةٍ مفتعلـةٍ خائفـةٍ أنـه قـد نـسي ميعـاد وصـول الطائـرة، ردَّ أمجـد بلهجـةٍ عمليـةٍ:

- كـده هرجـع البيـت متأخـر وأصحـى مـن النـوم متأخـر وأروح العيـادة متأخـر.. مخصـوم منـك تمـن جلسـة.

قال جُبران بلهجة توسل:

- بس يا أمجد...

أنهى أمجد الحديث بحزمٍ:

- دكتور أمجد، وكلمة كمان هخصم منك جلستين!

حمـل جـبران الحقائـب.. سـأله أمجـد- دون أن يتخـلى عـن لهجتـه الجـادة- عمـن سـأل عليـه أثنـاء السـفر.. لـيردَّ الأخـيرُ بلهجـةٍ رسـميةٍ أن بعـض المـرضى الذيـن حجـزوا مواعيد الكشـف اتصلـوا للتأكيـد عـلى حجزهـم. قـال أمجـد باهتـمامٍ:

- اتصلْ بيحيى الطحاوي وقول له إن معاد جلسته هيتأجل لبكرة.

أومأ جبران برأسهِ مُطيعًا، اقترب أمجد من أذنه وهمس قائلًا:

- قوليِّ.. اشتريت له الكفن زي ما قلت لك؟!

***

أتميُّزني وسط زحام البشر السائرين حولي؟.. طبيعي ألا تعرفني، فمن أنا لتفعل؟!

لم أعرف كم من الوقت استمرَّ تجوُّلي الهائم في شوارع القاهرة، ولا كم من المواضيع التي تطرَّق إليها عقلي؛ سرحتُ في إلحاح زوجتي بأن أعمل وألا أكتفي بالاعتماد على إيراد الأرض التي ورثتها عن أبي والموجودة بقريتي الأم (طحا-الطريق)، تذكَّرت إلحاح ناجي المستمرَّ بأن أعمل معه في مكتب المحاماة الخاص به، هِمتُ في ذكريات والديَّ الراحلَيْن وعمي عطوة الطامع في كل ما ليس له.

طلبت من خيالي مساعدتي لأجد أي ذكرى تُلهيني عن مأساتي الحالية التي تحرمني النوم، حتى وإن أراده جسدي وألحَّ في طلبه.

لم أعتد الخروج من منزلي في الآونة الأخيرة، ولكن ميعاديْن جعلاني أضطر للنزول: الميعاد الأول كان مع لطفي أبو الخير مدير دار "بصيص" واحدة من كبرى دور النشر والتوزيع في مصر، عرضت عليه منذ فترةٍ مجموعةً من القصص القصيرة علَّها تُلاقي قبوله ويتم نشرُها.. ولكن الردَّ أتاني صادمًا ظالمًا؛ أخبرني أن ما أكتبه عادي يُمكن لمئاتٍ غيري أن يكتبوا مثله، ولن يلاقي قبول الناس. كنتُ أدرك في قرارتي أنني لستُ بالكاتب المتميز صاحب البصمة الأدبية، ولكن استفزَّني أن نفس الدار تنشر أعمالًا أخرى أقل مما أكتب لأغراضٍ تجاريةٍ. أنهيتُ المقابلة غاضبًا بعد أن طرحتُ على مدير الدار سؤالًا لم أقف مُنتظرًا إجابته: أنحن من نصنع ذائقة القارئ أم أن الجمهور من يُملي علينا ذوقه؟!

أما عن الميعاد الثاني فقد تم تأجيلُه؛ كان لدى صديق عمري والطبيب المشرف على علاجي: أمجد عمَّار. لم أُنكر يومًا أمام نفسي شعور الغيرة المستحوذ عليَّ تجاهه؛ فقد حقق كل أحلامي التي طالما طالتني سهامُ الشغف بها: التحق بكلية الطب وسافر إلى المملكة البريطانية وتزوَّج من حبيبته الألمانية.. في حين لم أغادر مصر، تزوجت من ميّ زميلتي السابقة في عملي بالتدريس، وإلى الآن هو مشروع زواج من أفشل ما يكون.

لم أعرف متى بلغتُ كوبري قصر النيل. استندتُ إلى سور الكوبري مُتأملًا واحدًا من تماثيل أسود قصر النيل الذي طالما حسدته على شموخه الذي لا يتزعزع.. على الرغم مما يراه من مهازل يوميةٍ تحدث تحت ناظريْه، بعد أن شهد على حدوث "هوجة" تبعها احتلالٌ، وثورةٌ مدنيةٌ تبعها استقلالٌ، وأخرى عسكرية تبعها عدوان.. طالعتُ سطح النيل محاولًا أن أرى وجهي الكهل على صفحة مياهه ولكن الظلام منعني، تخيَّلت ملامحي كما أراها مؤخرًا في مرآتي؛ أرى عينيْ بنيتيْ اللون، منهكتيْن من قلة النوم، تُحيطهما هالاتٌ وتجاعيد قليلة تشي ببلوغي الأربعين منذ أمدٍ قريبٍ، وذاك أنفٌ كبيرٌ ورثته عن والدي كما ورثت عنه البشرة الخمرية وتساقُط جزءٍ كبيرٍ من الشَّعر الأمامي، طالعت على امتداد النيل ظلي الذي يعكسُ طول قامتي وجسدي العريض بعض الشيء. لمحت بطرف عيني صراعًا شفهيًّا يدورُ على متن إحدى المراكب النيلية المخصصة لإقامة النزه والحفلات؛ فتاة ترتدي ملابس ضيقة وتضع المساحيق الرخيصة تتشاجرُ مع من يبدو أنه صاحب المركب.. لم أسمع الكثير مما قيل، لكنني خمَّنتُ أنها واحدةٌ ممن يحضرهن صاحب المركب لترقص أثناء النزهة النيلية بغرض جلب الزبائن، يبدو أن الشجار على الأجر أو على طلبه لما هو أكثر من مجرد رقصة.

لم أجد مهربًا من منزلي سوى زيارة شكري ابن عمي للسهر معه؛ اعتاد شكري أن يسهر فوق سطح شقته مع مجموعة من أصدقائه كل يوم أربعاء.. لا يفعلون شيئًا سوى السُّكر والغياب عن الواقع، الأمر الذي لا أنشد سواه.

- عينك حمرا أوي يا يحيى.. أنت ما بتنامش ولا إيه يا بني؟!

افتتح شكري كلامه معي وهو يتحرك من أمام الباب المؤدي إلى السطح بعد أن صافحني مُربتًا على ظهري.. كان شكري قصيرًا نحيلًا ذا رأسٍ ضخمٍ وشاربٍ رفيعٍ يهتم به أكثر من أي شيء.. قال لي ضاحكًا:

- بطّل توطي أوي كده وأنت بتحضن يا جدع!.. طول وعرض على الفاضي صحيح.

حييتُ الجالسين، ووجَّهت حديثي إلى شكري قائلًا:

- بطّل قرّ.. من ساعة ما قعدت في البيت وأنا عمَّال أتخن.

قال شكري بلهجةٍ خبيثةٍ:

- حماتك بتحبك.. جيت وإحنا لسه بنجهِّز القعدة، وسايب إزازة "أولد ستاج" تحت في التلاجة بتتشبر.

أبديت قلقي من أن تراها زوجته الجديدة، فأجاب ضاحكًا أنه خبَّأها جيدًا، وأن زوجته مشغولةٌ الآن باللعب

مع ابنها الصغير محمد.. استنكرت عليه تركه زوجته لصالح أرملة، وهجر أطفاله لتربية طفل ليس من صلبه، فأجاب بصوتٍ خفيضٍ:

- القلب وما يريد.

عقَّب أحدُ الجالسين ضاحكًا:

- القلب برضه يا شكري؟!

انفجرت الجلسة كلها في نوبةٍ من الضحك.. سألت شكري بصوتٍ خفيضٍ إذا كان مُستمرًا في تعاطى الهيروين، فأجاب أن اليوم سيكون آخر يومٍ له مع هذا المسحوق اللعين، وأنه قد نوى أمام الله أن يتعافى منه، هزت رأسي قائلًا بحسرةٍ:

- الزفت ده دمَّر حياتك يا شكري.. ده لولا ستر ربنا كنت هتبات إنهاردة في الشارع!

أجاب مُبتسمًا ببلاهةٍ بعد أن بدأ عقله في الغياب:

- البركة في أخوك ناجي هو اللي لحقني..

وأشار إلى أحد الجالسين والذي كان يرتدي جلبابًا أبيض اللون، وقال:

- وفي الحاج فتحي صاحب العمارة اللي شهد على عقد الإيجار اللي كتبته لمراتي الجديدة بتاريخ قديم.

كانت الجلسة قليلة العدد في ذلك اليوم؛ فبجانب شكري والحاج فتحي كان يوجد عبد الرحيم حارس أحد العقارات المجاورة، وخليل الذي عاش طيلة حياته يعمل كومبارس في السينما يتفاخرُ دومًا بمشهدٍ وحيدٍ ظهر فيه صامتًا بجوار عادل إمام.. وفي كل جلسة يتكلم عن قصة الحب التي جمعته بيسرا أثناء تصوير الفيلم وسط ضحكات السكارى الساخرة منه. أما الأخير فكان خالد أحد أصدقاء شكري والذي كان يخدمُ الجالسين لأنه لا يمتلك المال اللازم لما يشربه.. أثار اشمئزازي حين رأيته أول مرةٍ؛ بعظم وجنتيْه البارز عند جانبيْ وجهه ذي السَّمار الباهت والحبوب الحمراء المتناثرة، تُحيط رأسَه أذنان كبيرتان بارزتان عنه، وقليلٌ من الشَّعر المنثور الذي كان بمثابة لحيةٍ غير مكتملةٍ واصطفَّ جزءٌ منه فوق شفتيْه كشاربٍ رفيعٍ.. ناولني زجاجةً من البيرة فشربتُ نصفها على مرةٍ واحدةٍ قائلًا لشكري:

- مش ناوي تنزل طحا بقى؟.. أبوك بيسأل عليك دايمًا.

استنكر شكري تحيزي المفاجئ لأبيه، ذكَّرني بما أقوله دائمًا عن جشع عطوة، وطمعه في ميراثي أنا وناجي، قلت وأنا أنهي زجاجتي وأشير لخالد كي يناولني أخرى:

- أنا مابطيقش أبوك.. بسّ برضه هو أب وحقّه يطّمن عليك.

قال شكري وهو ينفثُ دخان الحشيش:

- أنا كده مستريح.. أحسن حاجة عملتها ستي فرحة إنها سابتك أنت وناجي تكملوا تعليمكوا وتعيشوا هنا في شقة أبوك اللي في الحسين..

قلتُ له ناصحًا إن عطوة مهما فعل سيظل أباه ويجب عليه أن يودَّه، ردَّ مُستنكرًا أنه في غنى عن الأب الذي ميَّز حسن أخاه الأكبرعنه وجعله يُدير كل أعماله التجارية، ودلَّل أخاه الأصغر حسين الذي يعول على أبيه ولا يستطيع أن يتحملَ نفقات أهل بيته حتى الآن!.. تدخَّل خالد في الحوار بعد أن قام بلفِّ الحشيش للحاج فتحي وتركه مع خياله، وجَّه حديثه لشكري قائلًا بلهجته "السكرانة" إن علماء النفس يُعرِّفون ما يُعانيه باسم "عُقدة الأخ الأوسط"؛ فلا هو كبير الإخوة وزعيمهم كحسن، ولا يتمتع بنفس الاهتمام والتدليل اللذين كانا يحصل عليهما قبل أن يُولد حسين.

تعجَّبتُ من كلام خالد غير المتسق مع منظره الرثِّ وجلسته القرفصاء، سألته وأنا أسحب زجاجة الخمر الثالثة عن السبب الذي أوصله إلى تلك الحالة.. تركنا شكري وأخرج كيس الهيروين من جيبه، وضع جزءًا منه على المنضدة أمامه وبدأ في تسطيرها باستخدام بطاقته.. كدت أن أنهره ولكن خالد سرق انتباهي حين رد عليَّ قائلًا:

- أنا مش مدمن زي شكري ولا غاوي كِيف زيكوا يا أستاذ يحيى.. ولو جت لي مليون فرصة أبطَّل مش

هابطَّل، أنا مشكلتي كلها إني شغلت بالي زيادة بالواقع ودوّرت كتير عشان أوصل للحقيقة.

بدأت أدخل في حالةٍ من السُّكر وأغفل عن أجزاء من الحديث، سألته قائلًا:

- ووصلت للحقيقة؟!

أجاب خالد وهو يُعيد توزيع زجاجات الخمر الممتلئة على الجالسين:

- لو ماكنتش وصلت لها مكانش زماني قاعد هنا بحاول أغيِّب دماغي.. أصل الحقيقة زي الشمس؛ على قدّ ما هي عظيمة وبتنوَّر لك الطريق، بس لو قرَّبت منها زيادة عن المسموح هاتتحرق.

نظرت بحزنٍ لشكري الذي أوشك على إنهاء كيس البودرة كاملًا، وقلتُ لخالد:

- بس الشمس ما بتحرقش مؤمن.

- والحقيقة ما بتحرقش مسطول، وأنا اخترت أكون التاني.

أشرت لخالد كي يناولني زجاجة أخرى، فعلَّق مُتعجبًا من عدم اقترابي للحشيش، ضحكت قائلًا:

- زمان قبل ما رجلك تاخد على السطح ده كنت بحب الحشيش أكتر، بس الفترة اللي فاتت مبقاش يحوَّق فيّا

غـير الميـة.. أصـل الحشـيش ده للروقـان والسـلطنة، وأنـا مـش عايـز أروق؛ أنـا عايـز أغيـب.

كاد خالـد أن يطـرح سـؤالًا آخـر ولكـن قاطعـه صـوت ارتطـام جسـد شـكري بـالأرض جـراء الجرعـة الزائـدة التـي أخذهـا.. حاولـت أن أنهـض لكـن جسـدي كان ثقيـلًا يرفـض الاسـتجابة لأوامـر عقـلي المشـتتة، قـام الحـاج فتحـي عـلى الفـور لإيقـاظ الطبيـب القاطـن في العـمارة ليُسـعف شـكري.. أثنـاء خروجـه مـن بـاب السـطح ارتطـم بزوجـة شـكري الجديـدة التـي صرخـت لاهثـةً ولطمـت وجنتَهـا في فـزعٍ:

- إلحقـوني.. محمـد ابنـي شرب مـن إزازة الخمـرة الـلي كانـت مسـتخبية في التلاجـة، الـواد وقـع مـن طولـه ومـا بيحطّـش منطق !

لمزيد من الكتب الحصرية
زوروا موقع عصير الكتب
www.bookjuices.com

fb.com/groups/Book.juice

ننتظر رأيك ومناقشتك للكتاب
على جروب عصير الكتب
facebook.com/groups/Book.juice/

٢

النارُ تأكلُ بعضَها

شعورٌ غريبٌ أن تبدو ميتًا أمام الجميع، تُدقق في أصوات بكائهم علَّك تُميز الصدق من الرياء.. كان الأمرُ مُمتعًا في البداية؛ فقد انخدعوا بمنظرٍ جثماني الذي يُشبه الأموات. ولكن مع الوقت قلَّت المتعة حتى تحوَّلت خوفًا من ألا أعود مرةً أخرى إلى عالم الأحياء.. شعرتُ بانقباضٍ مُفزعٍ حين سمعتهم يتحدثون عني بضمير الغائب، يذكرونني كجزءٍ من ماضٍ بعيدٍ، لم أعلم متى أصبح لقبي «يحيى اللّه يرحمه»!

بدأ الناس يرفعون نعشي ذاكرين عبارات التوحيد.. حينها راودني هاجسٌ جعلني أتساءل: هل ما زلتُ حيًا أم أنني أتوهم الحياة لأهوِّن على نفسي سكرات الموت؟!

الخميس 2 فبراير 2006

- إيه التهريج اللي بيحصل ده!.. يعني إيه موكلي يقعد في الحبس الاحتياطي يومين من غير ما يتعرض على النيابة؟

هكذا افتتح ناجي الطحاوي ظهوره داخل أروقة نيابة المركز التابعة له قرية (طحا-الطريق).. ممشوق الجسد وعلى قدرٍ من الوسامة التي اكتسبها من وجهه قمحي اللون، غزا الشِّيب جانبيْ رأسهِ مُبكرًا، بيدَ أن ذلك الشيب ما زاده إلا وقارًا. أخبره أحدُ العساكر أن موكله موجودٌ الآن داخل مكتب وكيل النيابة ليبدأ في التحقيق معه.. فاقتحم ناجي المكتب دون استئذانٍ رغم اعتراض العسكري الواقف على باب المكتب والذي أوقفه وكيل النيابة بإشارةٍ من يده ليترك ناجي ويخرج، ثم نهض على مهلٍ قائلًا:

- ناجي بيك الطحاوي.. نوَّرت مكتبي.

نهض على مهلٍ لمصافحة ناجي الذي لاحظ ارتداءه خاتم زواج في يُسراه، كما لاحظ أن شكله لم يتغير منذ أن كان زميله في الدراسة؛ فلا يزال بدينًا ذا قامة قصيرة أملس الوجه الذي يشعُّ احمرارًا كالأطفال، كما كان صوتُه رفيعًا وهالته أبعد ما تكون عن الهيبة التي تتطلبها مهنته.. نظر له ناجي من أعلى إلى أسفل وقال ضاحكًا:

- البهويـة دي طـول عمرهـا بتاعـة النيابـة.. خلِّينـي أسـتاذ ناجـي أحسـن.

ردَّ مُحدِّثُه بلهجةٍ خبيثةٍ:

- مـا أنـت كنـت قُريـب مـن النيابـة وكل الدفعـة كانـت متوقعـة إنـك تكـون أول واحـد يدخلهـا.. ثـم نظـر إلى المتهـم الواقـف أمـام مكتبـه، وقـال:

- ربنا يسامحه بقى اللي كان السبب في حرمانك منها.

نظـر ناجـي إلى الشـخص الثالـث الـذي كاد أن ينـسى وجوده، اقـترب منـه وربـت عـلى كتفـه قائلًا:

- ما تقلقش يا عمي.. كله هيبقى تمام والنيابة هتنصفنا.

قـال وكيـل النيابـة مُتهكـمًا إن النيابـة لـن تنصـفَ إلا الحـق.. لم يـرد ناجـي وأشـار لعمـه بالجلـوس عـلى المقعـد المقابـل لـه أمـام مكتـب وكيـل النيابـة دون انتظـار الإذن منـه. بـدا الغضـبُ عـلى الوكيـل وحـذَّره بلهجـةٍ حـادةٍ مـن القيـام بأفعالـه الملتويـة التـي تـردَّد صداهـا في جميـع دوائـر نيابـات القاهـرة، واصفًـا طريقـة عملـه بالشـغل "الشـمال". تجاهـل ناجـي وصفـه الأخـير ونظـر إلى اللافتـة الصغـيرة الموجـودة عـلى مكتبـه وحملهـا قائـلًا:

- نائـل بيـك عبـد الـودود وكيـل النائـب العـام.. لأ حلـوة اليافطـة، ابقـى فكـرني يـا عمـي نعمـل زيهـا.. أبلـكاش دي يـا نائـل؟!

زفر نائل حنقًا، وقال باقتضابٍ:

- أنا بقول نتكلم جدّ بدل شغل الأراجوزات ده!

اعتدل ناجي في جلسته وفتح أزرار بدلته وقال بلهجةٍ عمليةٍ إن موكله رجل شريف خدم بلده في أكثر من موقفٍ؛ كان عضوًا سابقًا في البرلمان بعد فوزه بالانتخابات المُقامة سنة ٢٠٠٠، وأنه والد النائب الحالي عن نفس الدائرة: حسن الطحاوي.. الذي لولا سفرُه خارج مصر لما قُبِض على أبيه بمثل تلك التهمة المُشينة. ردَّ نائل على ناجي وهو يُطالع بعض الأوراق أمامه أن محضر الشرطة يتهم عمه "المُبجل" بتسهيل الدعارة في أحد البيوت المملوكة له داخل قرية (طحا- الطريق).. ليردَّ ناجي مُبتسمًا:

- مسكتوه متلبس؟

- لأ.. بس كل اللي اتقبض عليهم أكدوا إن عمك كان معاهم وإنه هرب في آخر لحظة.

- مسكتوه متلبس؟

- البيت مكتوب باسمه يا أستاذ ناجي.. أكيد اللي كانوا جوّه ما دخلوش غصب عنه.. القضية لابساه لابساه يا ناجي!

قال ناجي بنفس الإصرار دون أن يُغير من لهجته الساخرة:

- مسكتوه متلبس؟

خبط نائل منضدة مكتبه بيمناه قائلًا بصوتٍ مرتفعٍ إن البيت مملوك باسم عطوة الطحاوي، وإن جميع الشهود أقرُّوا بوجوده ساعة الحادثة. بدا القلق على عطوة ولكن ناجي ردَّ بهدوء:

- أنا بعتّ المحامي اللي بيتمرّن معايا يسأل اللي اتمسكوا في الشقة، وكلهم أكِّدوا إن الظابط جابهم من بيوتهم زيِّ ما جاب الحاج عطوة من بيته بالظبط، وضغط عليهم عشان يقولوا الأقوال المُثبتة عندك.. وأنا متأكد إن في محضر النيابة كل كلامهم هيتغيّر.

ضحك نائل قائلًا إن الموضوع ليس بالسهولة التي يتصوَّرها ناجي، وإن محضر الضبط والتلبس مكتوب بطريقة مُحكمة.. طلب منه ناجي أن يذكر عنوان موقع التلبس المذكور في المحضر، نظر نائل إلى أوراق المحضر وبدأ يقرأ منه:

- البيت مكوَّن من دورين ومتأسس على أرض مملوكة لعمك عطوة رفعت صادق عبد الحي الشهير بعطوة الطحاوي، جنب البيت من ناحية أراضي زراعية مملوكة لعائلة الطحاوي ومزروعة قمح حاليًا، ومن الناحية التانية مستوصف القرية، وباقي الكلام إنت عارفه بقى.. تعرف إن ده أدق وصف شوفته في محضر من

ساعة ما اتعيِّنت؟ واضح إن الناس في القسم بيحبُّوا عمك أوي.

نظر ناجي إلى عمه باستغرابٍ وسأله إن كان يملك بيتًا في الموقع المذكور، ليردَّ عطوة باستهجانٍ قائلًا:

- هو أنا مجنون؟.. هابني في حتة مهجورة زي دي!

صاح فيهما نائل بغضبٍ:

- إنتوا هتغنوا وتردوا على بعض..

ثم أشار إلى عطوة وصاح فيه آمرًا أن ينهض من مكانه، لم يفقد ناجي أعصابه واعتذر عما سبَّباه من ضجر لنائل، وأكمل حديثه قائلًا:

المستوصف ده على أرض الطحاوية اتبرعوا بيها للقرية، بناه أبويا- الله يرحمه- الباش مهندس أحمد الطحاوي.

أعاد نائل سؤاله عن مالك الأرض المُحدد موقعها، فأجابه ناجي بتلقائيةٍ أنها مملوكة لعمه عطوة، ولكنها خالية من البيوت عكس ادعاء محضر الشرطة، ولا يوجد بجانب المستوصف أي منشآت؛ فقط حظيرة للماشية. ضحك نائل قائلًا:

- زريبة مواشي؟!.. يعني إمبارح كانت مكان لمزاج عمك وإنهاردة بقت زريبة بقدرة قادر؟

قال ناجي بنفس النبرة الهادئة إن المكان على هذه الحالة منذ زمن، عرض عليه أن يسأل أهل طحا، فقال عطوة مؤمِّنًا على حديث ابن أخيه:

- وعلى فكرة يا بيه فيه عساكر كتير برّه بلدياتنا ممكن أناديهم وتسألهم بنفسك.

قال نائل وهو يُحاول أن يُداري غضبه ليفسدَ على ناجي لذة الانتصار:

- لسَّه شاطر زي ما أنت، كنت دايمًا أول واحد يطلع من لجنة الامتحان..

أكمل حديثه مُشيرًا برأسه نحو عطوة، دميم الوجه ذو الشارب السميك والقامة المتوسطة والبطن المنتفخ، أنه لم يكن يتصوَّر أن يقوده ذكاؤه للتحالف مع شيطان كهذا.. نظر ناجي إلى اللافتة المكتوب عليها اسم "نائل" مرةً أخرى ودعا على من كان السبب في خروجه. وطلب من نائل الإفراج عن عطوة بضمان محل إقامته.

صمَّم ناجي على أن يصطحب عمه في سيارته الخاصة، أشار لسائق السيارة المرسيدس الخاصة بعطوة كي يسبقهما إلى طحا، لم يفهم ناجي سبب إصرار عمه على اقتناء السيارات المرسيدس ذات الطراز العتيق. خيَّم الصمتُ على سيارة ناجي إلى أنْ كسر عطوة حاجز الصمت؛ فسأله عن

مـدى انتشـار خـبر القبـض عليـه بـين أهـل القريـة، طمأنـه ناجـي قائـلًا:

- بلدياتنـا العسـاكر قبضـوا كويـس، والرجالـة الـلي جـم هـدُّوا البيـت ونقلـوا البهايـم والجِـلَّة مـا يعرفـوش حاجـة.. بـس حسـابهم تقيـل أوي.

شـكر عطـوة فكـرة ناجـي الشـيطانية التـي تـم تنفيذُهـا بمنتهـى السرعـة والإتقـان، أخـرج عطـوة لفافـة طبـاق رخيصـة الثمـن، أبـدى ناجـي اشـمئزازه مـن رائحـة السـجائر الرديئـة، أخـرج هاتفـه ليُخبر عطـوة أن هنـاك مشـكلةً مـع شـكري قائـلًا:

- أول مـا صحيـت لقيـت رسـالة مبعوتـالي مـن يحيـى بيقـول لي إن شـكري تعـب عشـان خـد جرعـة بـودرة زيـادة.. تحـب نـروح نطّمـن عليـه؟

نظـر عطـوة أمامـه دون أن يبـدو عليـه أدنى تأثـر، أخـبر ناجـي أن اليـوم الخميـس؛ الاجتـماع الأسـبوعي للعائلـة.. وإنْ تخلَّـف عـن ذلـك المجلـس قـد يشـكُّ أحدهـم في أمـره ويعـرف بأمـر قضيـة الآداب؛ الأمـر الـذي قـد يـؤدي لنزولـه مـن فـوق عـرش عموديـة طحـا.

ردَّ ناجي باستغرابٍ:

- بس باين من كلام يحيى إن حالة شكري...

قاطعه عطوة بحزمٍ دون أن ينظر نحوه:

- دوس بنزيـن يـا ناجـي اللـه يـرضى عليـك.. مـش عايـز أتأخـر.

حـاول ناجـي تغيـير دفـة الحديـث؛ فسـأل عـن موعـد رجوع حسـن مـن السـفر.. أجابـه عطـوة أن آخـر مكالمـة أجراهـا مـع ولـده أخـبره فيهـا بانتهـاء الصفقـة التـي كان يتفـق عليهـا في السـعودية، وأنـه سـيعود بعـد عطلـةٍ بحريـةٍ قصـيرةٍ سـيقضيها مـع أصدقائـه.. حـين أتى ذكـرُ السـعودية قـال ناجـي مُسـتدركًا:

- صحيح عملت إيه في موضوع الواد سيد؟!

سأله عطوة:

- سيد مين؟

أجاب ناجي بفزعٍ:

- ابـن فـاروق السـبَّاك.. الـلي جالـك مجلـس العيلـة الأسـبوع الـلي فـات عشـان ابنـه عايـز يرجـع مـن السـعودية والكفيـل معسِّـفه...

أشـار عطـوة بيـده لناجـي علامـة عـلى أنـه قـد تذكَّـر، قـال بلهجـةٍ لم تخـلُ مـن فخـرٍ طفـولي:

- اتصلـت لـه بمـدوح باشـا صاحبـي، ولمـا عـرف إنـه بلديـاتي خـلّى واحـد مـن رجالتـه يخلّـص لـه موضوعـه مـع الكفيـل، وحجـز لـه العـودة في العبَّـارة بتاعتـه.

سأل ناجي عن مدى أمان عودته في هذه العبَّارة، ليرد عطوة ضاحكًا:

- طبعًا.. دي عبّارة السلام ٩٨؛ بقى لها سنين في البحر وما حصلهاش حاجة.

***

أمسيتُ جالسًا بجوار فراش شكري، منتظرًا أن يسترد وعيه، حاولتُ استيعاب معظم أحداث البارحة؛ فحين خرَّ شكري مغشيًا عليه.. سقط في نفس الوقت محمد ابن زوجته الذي لم يتجاوز عمره الأعوام الخمسة، أفقت من سكرتي بصعوبةٍ وأمرتُ خالد أن يحمل معي جسد شكري، استوقفت سيارة أجرة نادمًا على خروجي من البيت مترجلًا دون سيارتي كعادتي مؤخرًا.

تم الأمرُ سريعًا؛ أمليتُ على السائق عنوانًا غير بعيدٍ لمصحة نفسية متخصصة في علاج الإدمان بالمقطم، ودَّعني خالد عند باب المصحة مُعتذرًا عن عدم الدخول، وترك لي رقم هاتفه..

عرفت لاحقًا من الدكتور نجيب السعدني مدير المصحة تفاصيل ما تم لإنقاذ حياة ابن عمي؛ فعلى الفور بدأ إسعافه، وكانت المصحة مُجهزة طبيًا لمثل هذه الحالات.. فأعطاه الطبيبُ جرعة Naloxone المضاد لسُمِّية الهيروين، وتم وضعُه تحت الملاحظة.. استحييتُ أن أدعو له الله

بنفَسٍ مفعمٍ بالكحول.. استمرَّ انتظاري لساعاتٍ تخللها نومٌ مضطربٌ وكوابيس شتى، حتى استيقظ ابن عمي ببصرٍ زائغٍ ونصف وعي، سأل عن محمد أول ما نطق، فأجبته بلهجةٍ مطمئنةٍ:

- ما تقلقش عليه ده قرد.. الدكتور جاركوا ده لسّه قافل معايا دلوقتي، قال لي إنه خلّاه يشرب مية مالحة عشان يعمل له تفريغ معدة، وإداله شوية مُسكنات تُقلل وجع البطن من الترجيع، وعلَّق له محلول برد.

نظر شكري حوله، وهمس لي متضايقًا أن المكان يبدو فخمًا؛ فلن نقدر على تكاليفه.. أجبته مُطَمْئِنًا أن هذه الغرفة كانت محجوزةً ومُجهزةً خصيصًا له منذ فترةٍ؛ تمهيدًا لعلاجه بدايةً من الأسبوع القادم، وأن القائمين على المكان تعجَّبوا من قدومه مبكرًا بيومين، سألني عن مصدر المال الذي دفعته للمصحة، فأجبته بصدقٍ أن أخاه حسن قد تكفَّل بكافة مصاريف علاجه قبل أن يُسافر. تركتُ شكري يستريح؛ فلديه معركةٌ شرسةٌ ضد إدمانه لمسحوقٍ لعينٍ، توجَّهت إلى مكتب مدير المصحة كما طلب مني الأخير بعد أن أطمئن على ابن عمي، صافحته شاكرًا فأعرب عن امتنانه وأنه لم يقم إلا بعمله، ثم أضاف:

- بعدين ده أنت متوصي عليك من أمجد عمَّار.

أخبرته بحسرةٍ أن شكري لم يكن هكذا في الماضي.. ردَّ أن المدمن بشكلٍ عام يلجأ للمُخدر بحثًا عن احتياجٍ معينٍ لم يجده فيمن حوله.. سألته عن نسبة الأمل في شفائه وتعافيه تمامًا من هذا البلاء الأبيض.. أجاب بنبرةٍ هادئةٍ:

- إحنا لسّه مستنيين تحاليله عشان نقيِّم الحالة صح.. بس بخبرتي كده أظن إنه هايقدر يرجع لو انعزل عن كل اللي حواليه، ويُستحسن إنه لما يخرج يبدأ حياة جديدة تمامًا.

تطرَّق دكتور نجيب السعدني إلى أزمة علاج المدمنين في مصر، وأن معظم المراكز تتعامل مع العلاج بشكلٍ غير مختص كأنه وسيلةٌ لكسب المال، ثم قال مُستدركًا:

- أنت قولت له إيه عن محمد ابن مراته؟!

- قولت له اللي حضرتك فهِّمته ليًا بالظبط.

اقترب مني وحذَّرني بلهجةٍ جادةٍ:

- طب كويس عشان متأثرش على خطة التعافي.. لو عرف إن الولد مات بسببه ممكن تحصل له انتكاسة.

***

تُعتبر عائلة الطحاوي المُسيطرة على قرية (طحا-الطريق) من حيث الأملاك والنفوذ وتصدُّر كافة المشاهد

الاجتماعيـة والسياسـية.. ينعقـد مجلسـهم يـوم الخميـس مـن كل أسـبوع بحضـور أبـرز شـخصيات العائلـة؛ بدايـةً مـن العمدة عطـوة الطحـاوي الـذي يسـتضيفُ المجلـس العائـلي في دوَّاره، مـرورًا بشـيخ البلـد الـذي لا ينـوب عنـه: ولـده الأصغـر حسـين الـذي لا يُخفـي رغبتـه في تـولي العموديـة، خاصـةً بعـد أن حصل أخـوه حسـن عـلى مقعـد في البرلمـان المـصري، وبعـد أن أصبـح أوسـطهما شـكري منبـوذًا لا يـبرح القاهـرة.

قـد تحـدث بعـض المنازعـات بـين الطحاويـة الناجمـة عـن الأحقـاد والاختـلاف الـذي يُشـبه الهـرم الطبقـي أيـام الفراعنـة: يتربَّـع فـوق قمتـه عطـوة وتحته أبنـاؤه وأبنـاء إخوته، ويتوسـطه أبنـاء عمومتـه مثـل أسـتاذ فرحـات الطحـاوي.. نـادرًا مـا تخـرج أحاديـث المجلـس عـن دوَّار عطـوة إلا إذا سرَّب أخبارهـا أحـد الخفـر، والـذي سرعـان مـا يتلقـى جـزاء فعلتـه عـلى يـد شـيخ الخفـر وزعيمهـم: رجـب الطحـاوي، وهـو ينتمـي إلى سـفح الهرم الطحـاوي حيـث الطبقـة غـير الميسـورة مـن العائلـة. يتوسـط المقاعـد الشـيخ حافـظ عـزازي مُحتـلًا موقعًـا ملحوظًـا، وهـو الوحيـد- تقريبًـا- في ذلـك المجلـس الـذي لا ينتمـي إلى عائلـة الطحـاوي؛ يـأتي أحيانًـا لتـلاوة القـرآن بغـرض مباركـة الاجتـماع..

أمـا عـن الفـرد الآخـر الـذي لا ينتمـي إلى عائلـة الطحـاوي في هـذا المجلـس فهـو رزق المعتـوه؛ يتجـوَّل في القريـة متسـوِّلًا بمشـيته الغريبـة ولسـانه الثقيـل.. يعتمـد في كسـب رزقـه عـلى

الظهـور بجلسـات الطحاويـة؛ ليخدمهـم ويُراعـي طلباتهـم، يقتـات أيضًـا عـلى مواسـم زيـارة المقابـر التـي يقدِّسـها أهـل القـرى عمومًـا.. يُطيـل بقـاءه هنـاك علَّـه يعـود بالقليـل مـن المعجنـات والفواكـه أو يظفـر بالقـدر اليسـير مـن العمـلات النقديـة. انقضـت تـلاوة الشـيخ عـزازي التـي تلتهـا بعـض النقاشـات الفرعيـة.. طـرح أحـدُ الجالسـين عـلى عطـوة سـؤالًا شـغل بـال الكثـير مـن أفـراد العائلـة: سـأله عـن السـبب الحقيقـي لاسـتقالته مـن مجلـس الشـعب.. ضحـك عطـوة وقـال أثنـاء مداعبتـه لشـاربه السـميك أنـه لا يجـد الوقـت الـكافي لخدمـة أهـل طحـا، فكيـف سـيخدم أهـل الدائـرة جميعًـا. قوبِلَ بعبـارات المديـح والريـاء المزيفـة، فأتـمَّ حديثـه بأهميـة تسـليم زمـام الأمـور للشـباب، ووجـوب تسـليم الرايـة لمـن هـم أجـدر، ضرب مثـلًا عـلى هـذا بمـا يُخطـط لـه رئيـس الجمهوريـة لفعلـه: أن يهـب مقاليـد الحُكـم لابنـه الأصغـر. عقَّـب فرحـات الـذي قلَّـما يُـدلي برأيـه مُتسـائلًا عـن موقـف الشـعب.. قـال ناجـي بلهجـةٍ حـاول أن يجعلهـا مُحايـدة دون أن يغضـب عطـوة:

- النـاس مهـما بانـت سـاكتة مسـيرها تقـول لأ.. مـا يغركـش الجهـل والأميـة والعشـوائيات والقـرف الـلي بيتحطلنـا في الأكل والـشرب ده.

بـدأ فرحـات يهتـم بالنقـاش؛ فتكلَّـم مـن وجهـة نظـره كمعلـم عـن الجهـل الـذي انتـشر في البـلاد، تطـرَّق في حديثـه

عـن أسـبابه كالفقـر والأميـة.. وغيرهـا مـن العوامـل التـي تهـدم بسـببها الوعـي الشـعبي. عقَّـب عطـوة مـبررًا أن السـيدة الأولى تهتـم بإقامـة فصـول لمحـو الأميـة، لـيردَّ فرحـات مصححًـا أن محـو الجهـل أهـم، عقَّـب ناجـي قائـلًا:

- فيـه حاجـة أخطـر عـلى الشـعب مـن كل الـلي قولتـه ده يـا أسـتاذ فرحـات: المعارضـة المقنعـة.. الأحـزاب والجرايـد الـلي بتمثـل دور المعارضـة؛ طـول مـا هـي شـغالة وسـابكة دورهـا صـح الشـعب عمـره مـا هيفكـر يعمـل أي حـراك سـياسي، أصـل أنـت كمواطـن غلبـان شـايل هـمّ بيتـك وعيالـك لمّـا تشـوف فـلان بيزعـق في وزيـر عـلى التلفزيون.. ولا تقـرا مقالـة لعِـلَّان بيعـارض فيهـا النظـام.. ولا تسـمع عـن ترتـان الـلي اعتقلـوه بتهمـة قلـب النظـام أكيـد هتنـام مرتـاح وأنـت متخيـل إن فيـه حـد ممكـن يحـارب بدالـك.

بـدا الضيـقُ عـلى عطـوة، قـال لناجـي إن السياسـة أصـلًا "فـن التنـازل"، وأصـدر أمـرًا بإنهـاء الحديـث في هـذا الشـأن تجنبًـا لتسرُّبـه الـذي قـد يُـؤدي لمصائـب قـد تُطيـح باسـم العائلـة المعـروف انتماؤهـا للحـزب الحاكـم.

قاطع حديثهم صوت هاتف عطوة الذي قال بفخرٍ:

- دي مكالمـة دولي مـن السـعودية.. جهـزوا طلباتكـوا بسرعـة عشـان حسـن يجيبهـا لكـوا وهـو جـاي.

ردَّ على الهاتف مُبادرًا بالتحية قائلًا:

- وحشتنا يا سيادة النائب..

ولكن سرعان ما تبدلت ملامحه، واختفت البسمة المصطنعة من وجهه، وسقط مغشيًّا عليه.. التقط ناجي الهاتف وأنهى المكالمة شاكرًا مُحدثه بكلماتٍ معدودةٍ.. التفت إلى الطحاوية قائلًا:

- البقاء لله.. حسن مات غرقان.

٣

السابقون واللاحقون

الإثنين 6 فبراير 2006

أبلغني ناجي بفاجعة غرق حسن مساء أمس، بعد أن أخطره موظف الفندق آسفًا بالعثور على جثمانه ضمن ضحايا الرحلة البحرية التي نظمها الفندق، أخبره أيضًا أن حسن ترك لديهم رقم عطوة للاتصال به في حالات الطوارئ. خشيتُ أن أخبر شكري فأفسد رحلته الشاقة للتعافي من الإدمان. لم يتم إعلان الخبر لأهل "طحا" حتى أنهى ناجي إجراءات استلام الجثة التي وصلت القرية مُكَفنة، تعرَّف عليها عطوة برغم ما أخبرني به ناجي عن الانتفاخ الذي حلَّ بها جرَّاء ابتلاع كميات هائلة من المياه، وخروج العينين الفزعتين من محجريْهما، وبشرته التي صارت شديدة الزرقة.

وقفت مُنتظرًا وسط الكثير من أهل البلد. عرفتُ بعد ذلك أن بعضهم قد تخلَّف عن جنازة حسن؛ فقد ذهبوا لاستلام جثمان سيد ابن فاروق السبَّاك الذي مات أيضًا جرَّاء غرق العبَّارة في يومٍ مفزعٍ عصيبٍ لن ينساه أهل القرية.

لم تكد تظهر سيارة عطوة وخلفها سيارة الإسعاف الحاملة لجثمان حسن حتى ألجم الصمت أفواه الجميع؛ حالة من عدم التصديق اجتاحتني مصحوبةً برجفةٍ عنيفةٍ ضربت كياني، كان حسن أقرب أفراد أسرته لقلبي.

أوصلتُ زوجتي مي إلى بيت العائلة الكبير حيث يُقام عزاء السيدات، وحيث تقطن جدتي (فرحة).. كان ذلك البيت فيما سبق دوَّار جدي رفعت أثناء تقلُّده منصب العمدة، ولكن بعد استيلاء عطوة على المنصب ترك أمه وحيدة وشيَّد بيتًا مجاورًا لبيت العائلة؛ مسكنًا فخمًا يليق بثروته التي تضاعفت في وقتٍ قصيرٍ.. لم أستوعب أبدًا جدوى منصب العمدة في عصرنا الحالي. شرح لي ناجي قديمًا أن عطوة ينهب الأتاوى سِرًّا من جلسات الصُلْح التي يتقاضى قبل انعقادها أموالًا من الطرفين؛ فيحكم لصالح من يدفع أكثر. لم أميِّز وجوه الكثيرين من أفراد العائلة، ولا أطمح للتعارف عليهم.. فذهبت للوقوف بجوار أخي الذي همس في أذني سائلًا عن حال شكري وتأثير وفاة حسن

عليه.. طمأنته مؤكدًا شكري لم يعرف من الأساس.. نظر في ساعته قائلًا إن موعد أذان الظهر قد اقترب.. بعد دقائق خرج حسن من منزل فرحات محمولًا داخل نعشه الذي لم يُغطى؛ ليكشف عن كفن أبيض مُنتفخ، تمزقت طبلة أذني وتحطمت أعصابي كليًا حين سمعت صوت النساء الصارخ بالولولة. انفصلت عن العالم كليًا وسرحت في خواطري.. لم أكره شيئًا في العالم مثل كرهي لعويل النساء؛ لا يفعلن هذا إلا بدافع المجاملة وتأدية الواجب.. ألا لعنة الله على بنات حواء!

لا أظن أن دمعةً أخرى ستفلتُ من عينيَّ بعد ممات أبي وأمي، لم أتوقف عن البكاء بعد الحادثة التي رحلا فيها لفترةٍ طويلةٍ.. حتى ذبلت عيناي وجفَّت دموع قلبي.. لم أكن يومًا على عَلاقةٍ جيدةٍ بأفراد عائلتي الذين لم يتصدوا لطغيان عطوة وتناسوا ما فعله أبي معهم، لم أغفر لأيٍّ منهم خذلانه معي أنا وناجي سوى جدي رفعت؛ فقد اعتزل الحياة قبل وفاة والدي دون سببٍ واضحٍ.. بعد أن كتب أملاكه لولديْه وابنته الوحيدة، وبعد أن ترك منصبه كعُمدة لعطوة؛ بحُكم كونه أكبر أبنائه.

سرت بجوار فرحات دون أن نتبادل الكثير من الكلمات.. لم أستطع أن أكره هذا الكهل الأزهري بوجهه الأحمر الممتلئ وقامته القصيرة التي تجعله أقرب للطفل الكبير..

لا أنكـر أيضًـا فضلـه عـليَّ في حفـظ أجـزاء مـن القـرآن، وفي تعليمـي اللغـة العربيـة بشـكلٍ سـليمٍ، الأمـر الـذي فعلـه مـع شـكري حتـى أورثـه مهنـة التدريـس. لمحـت غرابًـا فـوق إحـدى الأشـجار المُحيطـة بنـا، أخـبرت فرحـات أن هـذه أول مـرة أرى عشًّـا للغربـان في المدافـن فرفـع رأسـه أعـلى الشـجرة ليُخـبرني أنـه لا يـراه!.. تكلَّـم كثـيرًا عـن نظـره الـذي لم يعـد كـما كان، فلـم أعبـأ بحديثـه.

تحـرَّك حاملـو النعـش سريعًـا، عملًا بمعتقـد مـوروث عـن سرعـة النعـش التـي تتناسـب مـع كـون الميـت صالحًـا في دنيـاه؛ فتجدهـم يمتدحـون تعجُّلهـم في المسـير متشـدقين بقولهـم: "النعـش كان طايـر".. أدركـتُ اقترابنـا مـن المقابـر حـين أصبـح حـذائي رمـادي اللـون مـن كـثرة الأتربـة، أشـار إليَّ فرحـات بـأن أجـدَّ السـير حتـى نشـهدَ الدفـن ففعلـت مـترددًا. دخلنـا حـوش العائلـة المكتـظ بصعوبـةٍ، شـعرت بانقبـاضٍ في قلبـي حاولـتُ إخفـاءه حتـى بلغنـا التربـة التـي سـيُدفن فيهـا حسـن.. وقـف الشـيخ حافـظ عـزازي فـوق صخـرةٍ عاليـةٍ في ركـن الحـوش، خطـب في المشـيعين بصـوتٍ عـالٍ ليُهـون عليهـم دقائـق الدفـن الطويلـة، تـضرَّع بالكثـير مـن الأدعيـة لـروح حسـن حتـى يرددهـا النـاس خلفـه، تحـدث عـن أول أيـام القـبر ومـا يمكـن أن يشـفع للعبـد حينهـا، واحتسـب حسـن مـن الشـهداء لوفاتـه غريقًـا.. لم أتحمـل كلامـه ولا الموقـف برمتـه، كـدتُ أنسـحب لـولا يـد فرحـات المتشـبثة بسـاعدي.

شـمَّر سـلامة "الـتُّرَبي" جلبابـه عـن سـاعديْه كاشـفًا عـن بعـض الوشـوم الخـضراء، والتـي تـشي بمـاضٍ غـير سَـوي.. فتـح المقـبرة ليـزداد إعيـائي، وطلـب مـن عطـوة النـزول معـه فتبعـه باكيًـا، تطلَّـب الأمـرُ مرافقـين لعطـوة حتـى لا تنهـارَ أعصابُـه تحـت الأرض.. وكأن الأرض انشـقت لتبتلـع حسـين وناجـي فلـم يبـقَ مـن الأقربـين سـواي أنـا وفرحـات.. أشـار لي فرحـات بالنـزول معـه ليندهـشَ بـردة فعـلي حـين صحـتُ فيـه رافضًـا النـزول كالممسـوس، تجنَّـب فرحـات ثـورتي ونـزل مـع عطـوة. انتهـى الأمـرُ سريعًـا وسـط دعـوات عـزازي، وبـكاء صامـت مـن الأقربـين، ونـواح صـادر مـن حناجـر النسـوة الـلاتي تتبعـن الجنـازة، ونوبـة مـن الهذيـان غـير المفهـوم المصحوبـة ببـكاء شـديدٍ أصابـت رزق المعتـوه؛ فلـم يشـهد حسـن إلا رحيـمًا بشوشًـا، ولم يـرَ منـه إلا معاملـة كريمـة، عكـس أهـل القريـة- وخاصـةً أطفالهـا.

ألهيـتُ نفـسي عـما يحـدث حتـى انتهـى سـلامة اللحـاد مـن عملـه سريعًـا لينفـضَّ الجمـعُ وهـم يترحمـون عـلى فقيدهـم.. خـرج عطـوة مـن تحـت الأرض مُسـتندًا عـلى فرحـات الـذي اصطحبـه بعيـدًا، ناولنـي قِفـل الحـوش حتـى أعطيـه لسـلامة لإغـلاق بوابتـه بعـد أن ينتهـي مـن غلـق اللحـد عـلى جسـد حسـن.. أشـار سـلامة بعـد أن خـرج مـن اللحـد إلى رزق كي يُسـاعده في وضـع الأسـمنت عـلى حـوافِّ التربـة لإحـكام غلقهـا..

هـدأت لوعـةُ رزق قليـلًا، وقـال بلهجتـهِ التائهـةِ جملـةً لم يسـمعها سـواي:

- مـا تخلصـش الأسـمنت كلـه يا عـم سـلامة.. تـرب الطحاوية هاتتفتـح كتير السـنة دي!

***

تعمَّـدت مـي تجاهُـل قريبـات زوجهـا الـلاتي صوَّبـن نحوهـا الكثـير مـن النظـرات والهمسـات، اعتـادت عـلى تصرفاتهـن المزعجـة وتعليقاتهـن التـي لا تنتهـي حـول ملابسـها وشَـعْرها المكشـوف؛ فقابلتهـن بوجـهٍ جامـدٍ ولسـانٍ لا ينطـقُ إلا بالغمغـمات. مـرَّ يحيـى سريعًـا ليطمـئن عليهـا وعـلى جدتـه فرحـة، ولينظـف ملابسـه اسـتعدادًا للعـزاء الـذي سـيُقام ليـلًا. لاحظـت فرحـة الضيـق المرتسـم عـلى ملامـح مـي فاقتربـت منهـا مُربتـةً عـلى كتفهـا دون أن تتحـدث، تعجبـت مـي حـين عرفتهـا فرحـة وتذكـرت اسـمها برغـم هرمهـا.. لمَحَـت نرجـس ابنـة عمـة يحيـى قادمـة نحـو فرحـة بوجـهٍ مُنهـكٍ مُتعـرقٍ وبعينـيْن حمراويْـن، وسـألتها بلهجـةٍ روتينيـةٍ:

- إنتي كويسة يا ستي؟

ربتـت فرحـة عـلى كتـف مـي مـرة أخـرى وقالـت لنرجـس دون أن تنظـر لهـا:

- طول ما ريحة يحيى جنبي أبقى كويسة.

نظرت نرجس لمي باحتقارٍ وقالت لفرحة بلهجةٍ حاولت أن تجعلها حنونةً:

- الأغراب لسه ما وصلوش.. تحبي تريِّحي فوق لحدّ العشا؟

سألتها فرحة:

- إنتي مين؟

ردَّت نرجس بضجرٍ وبصوتٍ حاولت أن تجعله خفيضًا أنها ابنة بنتها، فردَّت فرحة بعد أن مصمصت شفتيْها بحزنٍ:

- الله يرحمها بقى.. هي العيلة دي كده؛ مكتوب على كبيرها يعيش لحدٍّ ما يشوف خلفته في التراب.

- أمي جوه مع حريم العيلة بتجهِّز الأكل.

- أمال ده عزا مين؟

قالت نرجس وهي تُحاول أن تكتم دموعَها:

- حسن ابن عطوة ابنك.

- الله يرحمه، قولي للنسوان يشهِّلوا.. الفقها زمانهم جايين من التُرَب، ودول لو ماكلوش ممكن يفضحونا.

قالت مي بفضولٍ مُوجهةً حديثها إلى فرحة:

- يعني إيه فقها يا تيتة؟

ردَّت نرجس باستهجانٍ:

- دول الشيوخ اللي بيقروا في الترب على روح الميت، بييجوا في المياتم ياكلوا بعد ما يقروا على الميت بعد الدفنة..

هزَّت مي رأسها بفهم، وقد تذكرت هؤلاء الأفراد الذين رأتهم حين اصطحبها يحيى في الذكرى السنوية لوالده.. اشمأزَّت من منظرهم وجلوسهم القرفصاء أمام شواهد القبور، وتسوُّلهم بآيات القرآن.. قالت نرجس مُحدثةً مي وهي تهم بالعودة إلى المطبخ:

- مش هتقومي تساعدينا في المطبخ يا أبلة مي؟

كادت مي أن تجيب بالرفض؛ فهي لا تؤمن بضرورة إعداد طعام الوضيمة، الذي عادةً ما يكون رديء الطعم غير مستطابٍ.. ولكن فرحة وبخَّت نرجس نيابةً عنها قائلةً بلهجةٍ قاسيةٍ:

- مرات يحيى مش زي باقي النسوان.

توجَّهت نرجس إلى المطبخ وهي تصيحُ ببعض العبارات غير المفهومة.. لم يبدُ على فرحة التأثر، ونظرت لمي قائلةً بوهنٍ:

- مين البت اللي بتزعق دي؟

***

طلب عطوة من أخي ناجي الإشراف بنفسه على إقامة صوان العزاء الذي كلَّفه الكثير من المال، فوقف الأخير وسط الخفر مُوجهًا، حرص على التعديل من وضع ملابسه بين الحين والآخر؛ كان يُجيد الاعتناء بمظهره على عكسي.. أشار ناجي إليَّ كي أنزل برأسي قليلًا، همس في أذني مُتسائلًا عمَّا منعني من إحضار بدلة رسمية معي في السيارة.. أجبته بضيقٍ أنني لا أحب التجمُّل خاصةً في المناسبات الحزينة.. شرح لي- وهو يُطالع جزمتي المتسخة وملابسي التي لم أنجح في ضبط هندامها- عدم وجود تعارضٍ بين الحزن على الفقيد وبين استغلال مناسبة العزاء لتكوين علاقات داخل صوانه؛ فالكثيرُ من الشخصيات المهمة ستأتي مجاملةً للعائلة.. عقَّبتُ باستنكارٍ أن هذه الشخصيات "المهمة" مجرد حفنةٍ من الجُناة؛ تكتَّموا على أزمة العبَّارة حتى لا يقلبوا الرأي العام أكثر على صديقهم ممدوح مالك العبَّارة الذي هرب خارج البلاد. برَّر ناجي صمتهم على أنه "أوامر عُليا"؛ فقد حُظِر نَشْر أي تفاصيل تخصُّ الحادثة.. باستثناء جريدة صغيرة؛ انفردت بذكر كيفية الغرق وعدد دقيق للضحايا.. بعد صمتٍ قصيرٍ سألت ناجي عما سيفعل عطوة ليأتي بحق سيد.. ردَّ ناجي وهو يهز كتفيْه حائرًا أن عطوة خسر الكثير بموت حسن حتى أصبح لا يملك من أمره شيئًا حتى يملك لغيره؛ فهو مجرد ترسٍ صغيرٍ في آلةٍ متوحشةٍ لا

تتوقف عن طحن كل ما هو قيِّمٍ لصالح كل ما له ثمن. وأردف قائلًا:

- على فكرة هو كمان جت له نفس "الأوامر العُليا" إنه يبلغ عم فاروق ما يشاركش في القضية اللي رفعها أهل الضحايا، ومقداموش حاجة غير إنه ينفذ.. قواعد اللعبة بقى.
- ملعون دي لعبة زبالة تخلِّيك تطلب من أب يسكت على دَم ابنه!
- ما أنا كنت معاك في اللعبة النضيفة يا عم يحيى.. وأديك شوفت اللي حصل: ما اتقبلتش في النيابة، وعمك كان هياكل ورثنا.. وفرحة مكانتش هاتقدر تقف له كتير.. أنا فديتك بوساختي.
- فرحة هي اللي صمِّمت إنك تدخل حقوق وإنك تقرَّب من عمك برغم إنك الصغير..
- عشان مش زيك؛ باعرف آخد اللي أنا عايزه من أي حدّ حتى لو ما بحبوش.. يعني مثلًا عَمَّك برغم عضويته في البرلمان، بس كان السبب في إني ما أتعينش في النيابة عشان شغله المشبوه.. حدّ غيري كان قاطعه، بس أنا عرفت أستفيد منه وأعمل من وراه فلوس عُمري ما كنت هاعملها وأنا في القضاء.

عاتبته بلهجةٍ لم تخلُ من حسرةٍ:

- فرحة كانت فاكرة إنها بتربِّي موسى في بيت فرعون، ما تعرفش إنك مجرد بشر.. وإنها خلقت فرعون جديد.

ردَّ ناجي بانفعال:

- فرعون يحميك ويفضل في ضهرك أحسن من فرعون ياكلك صاحي.. إنت عارف كويس إنك من غيري كنت ضِعت من زمان، وبعد ما استقلت من المدرسة اتحايلت عليك تيجي تشتغل معايا في المكتب.. اعقل كده يا يحيى وفكِّر في مصلحتك زيّ باقي العيلة.

أشحتُ برأسي مُهمهمًا بعبارات السباب، سألته عن خططه لحملة حسين الانتخابية تمهيدًا لخلافة أخيه في البرلمان.. امتعض وجهه وهزَّ رأسَه نافيًا:

- مش هايكسب.. حسين ده ابن أمه وما حدّش بيحبه، حتى عمك عطوة عارف اللي فيها وغالبًا مش هاينزلّه..

ثم أردف بلهجةٍ عمليةٍ:

أنا لو عايز أكسب المرادي هالعب مع مؤمن المتوكل بتاع الإخوان.. المصالحة حصلت خلاص ونواب كتير منهم تحت القبة، ومؤمن ده كان هيكسب في جولة الإعادة.. لولا شعبية حسن بعيدًا عن الحزب وعن اسم الطحاوي.

تنحنح الشيخ عزازي في مُكبر الصوت ليجرِّبه تمهيدًا لبداية التلاوة.. وقد لاحظت ظهور وفود المُعزِّين، مازحني ناجي مُطالبًا أن أكف عن البُخل وأعزمه على الغداء في بيتي كي أرحم جهازه الهضمي من "أكل العُزَّاب".. كدتُ أضحك كعادتي في أي عزاء أذهب إليه، أخبرته أنني أخاف على صحته من طعام زوجتي، نصحته بأن يطلب الأصناف التي يشتهيها من نرجس.. قال ناجي بلهجةٍ خبيثةٍ حين سمع اسمها:

- كل ما أزور فرحة البت دي تسألني عليك.. شكلها لسّه بتحبك زي زمان.

لم أعلق، وسألته عن أحوال فرحة التي لم أجلس معها منذ فترةٍ طويلةٍ.. ردَّ آسفًا أنها لم تعد تتذكره بسبب مرض "ألزهايمر".. تعجَّبت من قوله، وأخبرته أنها تعرَّفت عليَّ حين ذهبتُ لأنظف ملابسي منذ قليلٍ! ردَّ ناجي:

- فرحة لو نسيت نفسها مش هاتنساك.

توقفتْ أمامنا سيارةٌ سوداء على قدرٍ من الفخامة، نزل من مقعدِها الأمامي جُبران كي يفتح الباب لأمجد الذي صافح ناجي واحتضنني حضنًا طويلًا هامسًا في أذني بكلمات العزاء.. شكرتُ له سعيه.. قال بجديةٍ وهو يربت على ظهري:

- تعالى بكرة الساعة عشرة أكون خلصت كل الجلسات.

أعربتُ له عن يأسي من العلاج.. فأكمل جملته بلهجةٍ هادئةٍ وهو يُنهي العناق الذي طال:

- جِبت لك الكفن.

***

لم أفهم يومًا حُب أهل طحا لتلك المراسم الجنائزية التي تبدو حزينةً من الخارج فقط، فأين العزاء في أشخاصٍ ينتهزونه مناسبةً لتكوين الصداقات وقضاء المصالح؟!.. أين القدسية في صوت المُقرئ المُدوِّي عبر مُكبرات الصوت التي تكاد تصم الآذان؟.. أين الحزنُ في ذكرياتٍ مُزيفةٍ صنعَتها هالة الموت؛ فبعد الدفن مباشرةً يكتسب الموتى قدسيةً لم يكونوا أهلًا لها، وصفاتٍ حسنةً لم يتحلوا بها يومًا.. كما تكتسي الحكاياتُ عن أفعالهم الأخيرة بقشرةٍ حزينةٍ ملحميةٍ، والتي تنتهي دومًا بالعبارة الكاذبة: "يا حبيبي كان قلبه حاسس".

يمرُّ أول أيام العزاء مريرًا على الأقربين، وفي اليوم الثاني يُفكرون في إجابة السؤال عن مصائرهم بعد حالة الوفاة؛ ليزيح العقل القلب من طريقه بعد أن قلَّت وفودُ المُعزين، وفي اليوم الثالث يتناسون الميت ويتصارعون على كل ما ترك، بعد أن أزاح الطمع كل شعورٍ آخر بداخلهم.. ومع المرور التدريجي للزمن تتحوَّل وفاة الأقربين من حادثةٍ

إلى حـدثٍ، ومـن حـدثٍ إلى رقـمٍ، ومـن رقـمٍ إلى مجـرد حالـةٍ مُبهمـة مـن الإنـكار المُنـسي.

وعـدتُ فرحـة أن أبيـت معهـا في اليـوم التـالي.. أوصلـتُ مـي لمنزلنـا في القاهـرة.. بعـد أن اغتسـلت أخـبرت مـي بأننـي سـأعود إلى طحـا.. لم تُبـدِ تعجبهـا مـن تصرفـاتي كـما اعتـادت مؤخـرًا، أخبرتهـا أننـي في حاجـةٍ للحديـث مـع جـدي رفعـت، أبـدت انزعاجهـا مـن رغبتـي في النـزول إلى المقابـر ليـلًا برغـم أزمتـي الأخـيرة.

كان جـدي يعيـشُ في المسـجد المجـاور للتُّـرَب برفقـة إمـام المسـجد: الشـيخ صالـح مكفـوف البـصر، عمـل لفـترة "فقـي" ممـن يتسـولون بآيـات القـرآن في المقابـر.. حتـى بنـى والـدي مسـجدًا بجـوار المقابـر عـلى أرضٍ كانـت مملوكـةً لـه، وأحـضر الشـيخ صالـح ليكـون إمامًـا ومشرفًـا عـلى المسـجد.. كان حافظًـا لكتـاب اللـه كامـلًا مُفـسَّرًا عكـس الكثـير مـن أقرانـه، ولهـذا السـبب أحبـه جـدي واسـتطاب معـشره وانعـزل معـه في ملكوتـه، لا يفعـلان شـيئًا إلا الحديـث معًـا والصـلاة. لم يعـد إقبـال المصلـين عـلى هـذا المسـجد كبـيرًا بعـد أن أعـاد عطـوة ترميـم جامـع القريـة الأقـرب لبيـوت أهلهـا في إطـار حملتـه الانتخابيـة.. والـذي سـمَّاه فيـما بعـد "جامـع حسـن الطحـاوي". وجـدتُ رفعـت نائمًـا عـلى المصطبـة الملاصقـة لجـدار المسـجد، تركـتُ بجـواره كيسًـا مـن البلاسـيتك. لم أتقبـل أبـدًا نصائـح أي

شخصٍ في هذه الحياة سواه؛ أعلم جيدًا أنه ينصحني بدافع الحب لا المزايدة ولا الوعظ. يمتلك جدي واحدةً من الأرواح الصلدة النقية؛ فلم يخدشها ابتعاد حبيب، ولم يُدنسها وفاة قريب.

دخلت لأصلي في الجامع الذي كان بابه مواربًا، سرت ببطءٍ كي لا أوقظ الشيخ صالح النائم على بساطٍ بسيطٍ في ركن المسجد.. اقشعرَّ بدني وانتصب شَعْرُه حين نظرت إلى النعش الموضوع آخر المسجد؛ كان مفتوحًا كفم تمساحٍ يُنادينـي، وبداخله ثلاثة أكفان من أموال التبرعات، أُعِدَّت خصيصًا لصدقات الدفن.. حاولت تجاهله وفرغت سريعًا من صلاتي، عُدت إلى رفعت محاولًا إيقاظه.. فتح عينيْه بصعوبةٍ وأطلق عليَّ فيضًا من السُّباب واللعنات لتكديري منامه.. لم يتوقَّف حتى رأى الكيس بجواره، فتحه بنهمٍ شديدٍ قائلًا:

- عارف لو كنت نسيت الكبدة ماكنتش دخَّلتك طحا.

أجبته ضاحكًا:

- عارف، بسّ مشوار الحسين ده سحلة.. ماعرفش أنا إيه غيتك في عربية الكبدة دي بالذات.

ناولني لفافةً ورقيةً من الكيس وقال:

- الراجل ده واقف في نفس المكان من زمان، لمَّا أبوك دخل الجامعة أجَّرت له الشقة اللي أخوك ناجي عايش فيها دلوقتي.. كنت كل ما أزوره لازم آكل من عند الراجل ده..

سألت بفضولٍ عن سرِّ تسمية الرجل بلقب "المزاجنجي".. أجاب بعد صمتٍ لم يدم طويلًا:

- أصل طلع عليه إشاعة من زمان إنه بيطحن الحشيش ويحطّه على خلطة الكبدة، فالناس كل ما تاكل عنده تتكيف وتاكل أكتر.

قلتُ ضاحكًا وأنا أفتحُ اللفافة:

- المشكلة إننا مش عارفين دي كبدة إيه..

علَّق رفعت قائلًا:

- المفروض نسأل دي كبدة مين أصلًا!

انفجرت ضاحكًا، فلكزني رفعت لأخفض صوتي. دام صمتنا لدقائق حتى فرغ من طعامه، سألني بلهجةٍ جادةٍ عن أخلاق حسن قبل مماته، وعن خاتمته.. أجبته بصدقٍ:

- حسن كان بيعمل اللي فرحة استنته من ناجي: حاول ينضّف وساخة أبوه على قدّ ما يقدر.

سألني بقلقٍ عن أحوال فرحة.. طلبت منه أن يدعو لها؛ فقد ثقلت حقيبة الأدوية الخاصة بها.. حاولتُ تغيير الموضوع فمازحته قائلًا:

- اللي يشوفك ويشوفها ما يقولش إنها أصغر منك بخمس سنين.. ده إنت يا مفتري لحد دلوقتي بتغلبني في الريست.

نطق بعبارة التكبير باسطًا أصابعه أمام وجهي ناكرًا قوته، وساخرًا من ضعف جسدي الذي أصابني باكرًا.. سألته عن سبب إغلاقه المسجد واختفائه ساعة مرور جنازة حسن.. فأجابني بهمهمةٍ لم أفهمها، أخبرني أنه لا يفتقد من حياته السابقة إلا فرحة، سرح في ذكرياته معها قائلًا:

- عارف يا واد يا يحيى.. فرحة وهي صغيرة كانت سمرة ورفيعة وطويلة ومكانش حدّ من العيلة عايز يتجوِّزها.. لحدِّ ما أمي قالت لي عليها.

خبطته على فخذه مُداعبًا، وقلتُ:

- وأنت بقى حبِّيتها بجدّ وشوفت جمالها اللي جوّة؟.. يا أبو الرفاع يا رومانسي!

ردَّ ضاحكًا:

- لأ.. بس مكانش فيه حدّ أطول منها في رجالة العيلة غيري.

ضحكت مرةً أخرى بصوتٍ حاولت أن أجعله خفيضًا ففشلت.. سألني عن موعد عودتي للعمل بالمدرسة.. أبديتُ رفضي لتلك الفكرة؛ فلم أتخرج من كلية العلوم لأعمل في مدرسةٍ ابتدائيةٍ، كما أنني لا أحب التدريس للأطفال ولا أملك صبرًا لهم.. أبدى قلقه من وضعي المادي المُعَرَّض للانهيار.. طمأنته أن إيجار الأرض وراتب مي يضمنان لنا حياةً جيدةً.. أطلق لفظًا اعتراضيًّا، وقال ناهرًا:

- إنت مش كَسيح ولا عويل عشان تكمِّل لقمتك من مراتك.. ومش فلاح يا يحيى عشان تخلي رزقك كله من أرضك.
- أبيع الأرض يعني عشان ترتاح؟
- اعملها عشان أنا وفرحة نتبرَّى منك ومن خلفتك اللي هتيجي.. وأخلِّي العيال الصغيرة يزفوك في البلد.
- اشمعنى حسين ابن عطوة بيعمل كده؟
- حسين ابن عطوة.. إنت ابن أحمد.
- تفرق يعني؟
- أنا ندمت إني خليتها تفرق.

سألته قائلًا:

- كنت بتحب أبويا أكتر؟

هـزَّ رأسَـه نافيًـا، قـصَّ عـليَّ تفضيلـه لعطـوة "البِكْـرِي" عـلى أبي، وكيـف جعـل أهـل طحـا يُنادونـه بلقـب "العُمـدة" منـذ صغـره ويتعاملـون معـه عـلى هـذا الأسـاس، أردف قائـلًا:

- وفي الوقـت الـلي دلعـي بـوَّظ عمـك وخـلَّاه مـا يحبِّـش غـير نفسـه.. أبـوك كان بيذاكـر وبيحـاول يكـون أحسـن عشـان آخـد بـالي منـه، ويـوم مـا قـال لي إنـه هايبقـى مهنـدس حبسـت نفـسي يومـين بأعيَّـط وباسـتغفر ربنـا إني فرَّقـت بينهـم.

ثم أردف وهو ينظر في عينيَّ:

- لمَّـا ربنـا يكتـب لـك رزق مـن الذريـة.. مـا تفرَّقـش بينهـم مهـما حصـل.

لم يـدرِ جـدي أنـه قـد ضرب وتـرًا حساسًـا عنـدي حـين تحـدَّث عـن الإنجـاب الـذي لم أنـل حظـي منـه. كانـت هـذه مـن المـرات القليلـة التـي يفتـح فيهـا رفعـت قلبـه لي، انتهـزت الفرصـة وسـألته عـن سـبب اعتزالـه الحيـاة باكـرًا؛ السـؤال الـذي أرَّقنـي طويـلًا دون إجابـةٍ شـافيةٍ.. سـكتَ قليـلًا ثـم أجـاب أن الحيـاة لا تطيـب لـه بعـد وفـاة أبي.. عرفـتُ أنـه يكـذب عـلى غـير عادتـه، فهـززتُ رأسي نافيًـا وصححـت لـه قائـلًا:

- أنـا كنـت صغـير بـس فاكـر كويـس.. أنـت سـايب البيـت قبـل حادثـة العربيـة الـلي أبويـا وأمـي ماتـوا فيهـا.

زفر مستسلمًا، نظر إلى السماء وقال إن هذه إرادة الله.. قلتُ له بهدوءٍ إن الله لا يُريد له- بالتأكيد- أن يعتزلَ الحياة ويقتاتَ من التسول مثل الشيخ صالح.. وبَّخني قائلًا بلهجةٍ جادةٍ:

- أنا مش عايش شحاتة.. الأكل اللي بيجيلي من الناس ده كله رد لجميلي عليهم.. أنا ياما إديتهم فلوس وأراضي لما كانت نص البلد ملكي.

- ماهه ده اللي مجنني.. حدّ يبقى عنده كل ده ويعيش في جامع زي الدراويش؟!

- إرادة ربنا يا يحيى.

- إرادة ربنا إن عطوة يفتري على أهل البلد ويلم منهم إتاوات؟!.. إرادة ربنا إن فرحة تلحقنا منه بالعافية؟!.. إرادة ربنا إنه يخلِّي ناجي يشتغل معاه وإن حسن يموت بسبب علاقاته مع ناس زبالة زيه؟.. إنت إزاي سايبه يعمل كل ده وأنت قادر تمنعه؟

نظر مباشرةً في عينيَّ، وقال بغضبٍ:

- وليه ربك سايب الشر اللي في الدنيا مع إنه على كل شيء قدير.. من غير الشر عمر الخير اللي جواك وجوه واحد زي حَسَن- الله يرحمه- ما كان هايبان!

- إنت مش ربنا عشان تحكم.. ولسّه قادر ترجع وتهدّ المعبد على دماغ اللي فيه.

- بس مش كل اللي في المعبد يستاهلوا كده...

قاطع حديثه صوتُ رنين هاتفي، كان المتصل ناجي، أجبتُ على الفور وبعد ثوانٍ أنهيتُ المكالمة ونهضتُ من مكاني مُسرعًا وأنا أقولُ لرفعت:

- دي جارة ناجي في الحسين.. بتقول لي إنه اتخطف!

لمزيد من الكتب الحصرية
زوروا موقع عصير الكتب
www.bookjuices.com

fb.com/groups/Book.juice

ننتظر رأيك ومناقشتك للكتاب
على جروب عصير الكتب
facebook.com/groups/Book.juice/

٤

خَارِجُ الصُّنْدُوقِ

انغلق القبرُ ببطءٍ مُعلنًا هيمنة الظلام التام.. صرختُ من أعماق روحي أنني ما زلت حيًّا، ولكن أحدًا من المُشيعين لم يسمعني، رحلوا جميعًا وتركوني أواجه الموت وحدي.

لم تكن لحظاتي الأولى تحت الثرى يسيرةً؛ بدأت تتجسدُ أمامي خيالاتٌ مُفزعةٌ.. وكأن عقلي يُعاقبني على ما فعلته بنفسي؛ فبدأ يعرضُ أمامي المخاوف الكامنة في أعماق نفسي البشرية. لو كانت لديَّ القدرة على الحركة لارتجفتْ كل جزيئات جسدي من فرط الهلع. الآن فقط أستوعب المعنى الحقيقي للهول الذي يختزله البشر في مواقفَ عاديةٍ، يعجزُ عقلي عن خلق الكلمات التي تصفُ شعوري في هذه اللحظات المريرة، لا أظن أنني سأعيشُ بعد ما رأيت،

حتى وإن مدَّ اللهُ في عمري قليلًا فستتوقف حياتي عند هذا الموقف الذي لن أستطيعَ نسيانَه.. أريدُ الخروجَ من هذا اللحد بأي ثمن!

***

الثلاثاء 7 فبراير 2006

صدقتْ توقعاتي لثاني أيام العزَّاء؛ حين انفضَّ الجَمْعُ ولم يُقْبِل على العزاء الكثيرون من خارج العائلة.. انقضت ليلةٌ طويلةٌ ملأتني بالضجر، وملأت هواتف الطحاوية بالأرقام الخاصة برجال الأعمال وذوي الحيثية ممن أتوا لمجاملة عطوة. اتصل بي ناجي من رقمٍ غير مُسَجَّل لديَّ أثناء توجُّهي إلى القاهرة بحثًا عنه، أخبرني أن جارته قد بالغت في الوصف حين ظنَّت أنه اختطف؛ أقسم أنه بخير، وأنه سيختفي لمدة يومين إنجازًا لعملٍ شديد الحساسية يخص مُوكِّلًا مُهمًّا.. حاولتُ أن أستشف من كلامه إن كان واقعًا تحت أي تهديدٍ.. طمأنني وطلب مني ألا أخبرَ أحدًا من العائلة؛ فبررت اختفاءه ثاني أيام العزاء بأنه قد مرض حزنًا على ابن عمه. قرَّرتُ أن أبلغ الشرطة والجميع إن طال اختفاؤه ساعة عن المُهلة التي حدَّدها.

قُدت سيارتي متوجهًا لزيارة أمجد في عيادته.. لمحتُ أثناء مُغادرتي للقرية عزاءً بسيطًا قليل التكاليف خمَّنت أنه يخصُّ ابن فاروق السبَّاك الذي انسحب من العالم

بنفس الهدوء الذي أتى به، لمحتُ أيضًا المقهى مُكتظًّا بأهلها مُجتمعين حول التلفزيون.. تعددت المقاهي والبؤس واحدٌ! عرفت فيما بعد أنهم كانوا يُتابعون مباراة منتخبيْ مصر والسنغال.. لم أعرف هل أحزن من قرية لم تراعِ حرمة فقيديْها في ثاني أيامهما تحت التراب، أم أحزن من بلدٍ كاملٍ لم يُعلن يومًا واحدًا من الحداد حزنًا على فقدان أكثر من الألف شهيد!

حاول المسئولون وأد قضية العبَّارة وإبعادها عن العقول بشتى الطرق، ونجحوا في ذلك بمرور الوقت، وبفضل المُلهيات الكثيرة التي يستخدمونها دائمًا مع الناس جاعلةً منهم سمكًا بلا ذاكرة...

اللعنة!.. من أين ظهر هذا الكلب الأسود؟!

***

جلستُ وحيدًا في غرفة الانتظار مُترقبًا دوري في الكشف.. كان ذوق إيفلين زوجة أمجد واضحًا في كل أركان العيادة؛ فموسيقى ريتشارد فاغنر تنبعثُ بصوتٍ هادئ من اللامكان تاركةً بداخلي وقعًا رائعًا، ولوحات مُقلدة بإتقانٍ لفرانتس مارك وفريدريش على الجدران تتوسط شهادات أمجد الطبية باللغتين العربية والإنجليزية. حرص جُبران على تنفيذ تعليمات أمجد بخفض الإضاءة ورش مُعطر الجو كل نصف ساعة مع عدم خلق أي فرصة لإثارة الضوضاء. أخذت من

فـوق مكتـب جُـبران إحـدى المجـلات الخاصـة بالطـب النفـسي؛ قـرأتُ أحـد المقـالات المكتوبـة بأسـلوبٍ مُبسـطٍ عـن الفـرق بـين المـرض النفـسي والعقـلي. خـرج جُـبران مـن الحـمَّام للمـرة الثالثة خـلال نفـس السـاعة مُعتـذرًا لي عـن تأخـر أمجـد في داخـل غرفة العـلاج، لم أتعجـب طـوال فـترة علاجـي أنـه لم يسـألني عـن مـرضي؛ فقـد تعلَّـم مـن أمجـد الحـرص عـلى خصوصيـة المريـض والتعامـل معـه باحترافيـةٍ دون الحكـم عـلى أي تصرفـاتٍ تحـدث داخـل أروقـة العيـادة.. أخبرتـه مازحًـا أن يـرشَّ قليـلًا مـن مُعطر الجـو عـلى قميصـه حتـى لا يعـرف أمجـد أنـه يدخِّـن خلسـةً في دورة الميـاه، ضحـك في خجـلٍ وطلـب منـي ألا أخـبره.. سـألته عـن الكفـن بحـذرٍ فأخـبرني ألا أقلـق، فـكل شيء عـلى مـا يُـرام.

عـلى الجانـب الآخـر مـن البـاب تفـرَّس أمجـد في مظهـر المريضـة الجالسـة أمامـه؛ كانـت عـلى درجـةٍ كبـيرةٍ من الحُسـن، ترتـدي فسـتانًا زاهـيَ اللـون وصفَّفـت شَـعرها عـلى هيئـة ذيـل الحصـان، ظلّـت تتأمـل شـكله الأقـرب لنجـوم السـينما؛ ببشرتـه البيضـاء وعينيـهِ العسـليتيْن وأنفـه الدقيـق وذقنـه الـذي يقـفُ لونـهُ عـلى الحافـة بـين اللونـين البُنـي والأحمـر كأنـه مصبـوغٌ بالحِنَّـاء.. سـألت بعـد دقائـق مـن الصمـت المحـرج عـن نسـبة الأمـل في شـفائها مـن المـرض الـذي اسـتحوذ عليهـا.. ابتسـم أمجـد قائـلًا:

- مافيش مرض مالوش علاج.. تعرفي إني عشان آخد رخصة علاج نفسي برّه قعدت سنتين أتعالج وأتحلل نفسيًّا.

قالت باندهاش:

- يعني كل الدكاترة اتعالجوا نفسيًّا؟

قصَّ عليها أنَّ هذا الأمرَ طبيعي خارج مصر، مُستشهدًا بخضوع كل المحللين النفسيين المشهورين للتحليل النفسي؛ باستثناء سيجموند فرويد الذي قطع علاقته بكارل يونج حين حاول أن يُحلل له أحد أحلامه.. سألته بخجلٍ:

- مش فرويد ده اللي معظم تحليلاته بتروح لحاجات مش كويسة؟

أومأ أمجد برأسه دون أن يفقد ابتسامته، شرح لها أنَّ معظم تحليلات لفرويد تؤول للغريزة الجنسية، مؤكدًا أنه لا يُشاركه نفس المجال؛ فشتَّان ما بين المُحلل والطبيب النفسي.. قالت بحذرٍ:

- هو ينفع مريضة تحب الدكتور بتاعها؟

ردَّ ضاحكًا بخجل أنَّ أحد المحللين النفسيين من أصدقاء فرويد قد حدث معه موقفٌ مماثلٌ؛ فمع الوقت تهيأ لإحدى حالاته أنها تُحبه، وراودتها تخيلاتٌ عن حملها منه، حتى تركها واعتزل المهنة كليًّا.. قاطعت حديثه الذي بدأ

يُثير مللها مصارحةً إياه بحبها له، احمرَّ وجهه حياءً وقال بهدوءٍ:

- مش غريب إنك "تُعجبي" بالدكتور بتاعك.. لأن بيكون جواكي مشاعر متخزنة تجاه القريبين منك، المشاعر دي بتطلع لمَّا الدكتور بينكُش عنها؛ سواء حُب أو كُره.

وأردف مُحذرًا بلهجةٍ جادةٍ أنه سيضطر لتحويلها لطبيبٍ نفسي آخر يثق فيه، في حالة زاد هذا الشعور عن حدِّه للدرجة التي قد تضرُّ علاجها، أو تؤذيه في حياته الشخصية. شَرَعَت في البكاء المُفاجئ بصوتٍ خفيضٍ، فنهض من مكانه وجلس مُقابلًا لها قائلًا برفقٍ:

- إنتي مش بتحبيني يا حنين؛ مشكلتك إنك مالقيتيش حدّ يعوّضك عن حنان والدك.. وقلت لك قبل كده إن سبب مرضك الرئيسي هو المشاكل اللي حصلت بين أبوكي وأمك، واللي بعدها أبوكي ساب البيت واختفى تمامًا من حياتك.

قالت وسط نحيبها الذي قلَّت حدَّته إن سنها قد تخطى العشرين، والمفترض أنها تجاوزت ذلك الصراع.. أجابها بحذرٍ:

- للأسف فيه جزء من عقلك مُتوقف عند الصراع ده ورافض يتجاوزه.. عشان كده ساعات بتلبسي وبتتصرفي

زي ما تكوني طفلة عندها تسع سنين؛ وقت حدوث الصراع ده في حياتك.

- بس ده مش سن صغير على تحوُّل نفسي كبير زي ده؟
- لأ طبعًا.. كل واحد في سن خمس أو ست سنين تقريبًا بياخد early decision بيحدد من خلاله كل قراراته المستقبلية وبيخزّنها في عقله الباطن.
- بس مش ممكن القرارات دي تتغير مع الزمن؟
- أكيد.. التغيير بيحصل بشكلٍ تدريجي من خلال تجارب الحياة سواء النفسية أو العاطفية، ده غير عوامل تانية زي البيئة المُحيطة واستعدادك النفسي للتغيير ده.. المهم دلوقتي الجلسة خلصت، نتقابل يوم...

قاطعته بصرخةٍ مُدوية انطلقت من حنجرتها، شرعت بعدها في البكاء ودفنتْ وجههَا بين يديْها.

***

لم يتوقف ناجي عن إطلاق السباب على خاطفيهِ دون أن يُبدي مقاومةً جسديةً لهم خشية أن يتعرض للأذى. حملوه بعد أن ربطوا عصابة على فمه وعينيْه.. سمع صراخ جارته الأرملة، التي تعيش بمفردها، حين رأتهم يهبطون به درجات العقار المتهالكة.. وبعد نصف ساعة أزاحوا

غطاء عينيْه ليجد نفسه في مخزنٍ رَطب وحوله الكثير من الأسلحة.. وخمسة رجال من ذوي البنى الضخمة، والذين لم تخلُ وجوههم من ندوبٍ، قال أحدُهم:

- المعلم عيد لمَّا اتقبض عليه قال لنا ماتسيبوش أستاذ ناجي غير لما يطلَّعني.

فكَّ آخر قيوده ولثام عينيْه.. عدَّل ناجي من وضع بيجامته المنزلية، نزع كمامة فمه وصاح فيهم مُطلقًا الكثير من الشتائم، لم يبدُ على أحدهم أي تأثر بلعناتهِ التي تنهالُ عليهم، قال بعد أن أطلق صوتًا اعتراضيًّا:

- إنتوا رجالة عيد المِجَبَّراتي؟.. ماهه لازم يتقبض عليه عشان مشغَّل بهايم زيكوا!

ردَّ أضخمُهم حجمًا مُهددًا بأنه لا داعِي لمثل هذا الأسلوب في الحديث.. لم يبدُ على ناجي الخوف، ذكَّرهم أن روح المعلم عيد بين يديْه، وأردف مُحذرًا إذا جرى له مكروه فسينتهي مصيرُ ربِّ عملهم إلى الأبد.. قال آخر بهدوءٍ:

- المعلم اتقبض عليه وهو رايح يجامل في فرح؛ كان معاه فرد خرطوش.. ومحجوز في القسم اللي جنبنا.

أشار ناجي إلى أضخمهم قائلًا:

- والبغل ده ماخدش منه السلاح ليه لما الحكومة كَبَسِت، آهه كان ديته كفالة وقضية حيازة.

- أصله كان فرح قرايبه، ومكانش عايز حدّ فينا يروح معاه.

لم يعبأ بنظرات التهديد التي رآها في عين ذلك الضخم والذي بدا أنه من ينوبُ عن المعلم، وقال بلهجةٍ عمليةٍ:

- حدّ يوصل البيت يجيب لي نضارة القراية والسجاير بتاعتي.. ويا ريت وهو نازل يعدِّي على أي كُشك يجيب علبة تانية زيها، ويفوت على المزاجنجي يشتري لي ساندويتشين سمين، بس خلوه يصفِّيهم من الزيت كويس.

لم يعبأ بنظرات الاستنكار والدهشة التي رآها في أعينهم، وأردف قائلًا:

- وواحد تاني يروح القسم يدِّي الأمين زينهم ورقة بخمسين وياخد صورة من المحضر، وإوعوا تطلبوا منه يدخَّل حاجة للمعلم بتاعكوا ولا تقولوا له إن الموضوع يخصِّني؛ مش عايزهم يحسُّوا إننا بنتحرك عشانه، وعايز حدّ يروح وسط البلد يقابل صاحب قهوة هناك اسمها "الصعيدي" يقول له إنه من طرفي.. وبالمرة شوفوا حدّ ما يكونش مُسَجّل، قولوا له يجهِّز نفسه عشان احتمال ندخَّله الحجز إنهاردة.

اعـترض أضخمهـم طالبًـا أن يـشرح لهـم مبتغـاه مـن كل مـا طلـب، فـردَّ ناجـي سـاخرًا أنـه إمـا أن يُفهِّمـه أو يحصـل عـلى بـراءة المعلـم، أمرهـم بسرعـة التحـرُّك. قسَّـموا المهـام فيـما بينهـم، وتركـوا أحدهـم بصحبـة ناجـي حتـى لا يهـرب. سـأل ناجـي مُسـتدركًا- قبـل مغادرتهـم- عـمَّا إذا كان المعلـم عيـد لا يـزال يعمـل مـع رجـل الأعـمال الكبـير الـذي يتاجـر سرًّا في الآثـار والسـلاح، فشـل في تذكُّـر اسـمه فأطلـق عليـه: "حـوت الحـزب الوطنـي".. تبـادل رجـالُ المعلـم عيـد نظـراتِ الحـيرة والـتردد، فنهرهـم ناجـي قائـلًا:

- الراجل ده مفتاح خروج المعلم بتاعكوا.. انطقوا!

أجاب أضخمهم مُتجاهلًا تحذيرات رفاقه:

- آه لسه شغال معاه.. اسمه صبري بيه العموري.

قال ناجي بفهمٍ:

- عشـان كـده المقـدم شريـف مسـتقصد الـدودة الـلي مشـغلكوا.. عايـز يوقَّـع التعبـان الكبـير.
- إحنـا عارفـين كـذا حـدّ مـن رجالتـه، وسـمعنا إن وراهـم عمليـة تسـليم بُكـرة.

قال ناجي بجديةٍ:

- طب كويس.. عشان هانبلَّغ عنهم.

***

برغـم أننـي لا أرتـاح أبـدًا عـلى تلـك الأريكـة الخاصـة بالعـلاج النفـسي "الشـيزلونج" إلا أننـي لم أقـدر يومًـا عـلى رؤيتهـا دون الاسـتلقاء عليهـا وسرد أزمـة حيـاتي عـلى أمجـد.. كنـتُ أدفـعُ ثمـن الجلسـة كأيِّ مريـضٍ آخـر، الأمـرُ الـذي لم يعـترض عليـه أمجـد مـن بـاب "المعاملـة الإنجليـزي". اعتـذر لي عـما سـببته المريضـة السـابقة مـن هلـعٍ وإزعـاجٍ، أسرَّ إليَّ بصعوبـة مرضهـا؛ فكثـيرًا مـا تدخـل في نوبـات بـكاءٍ مُفاجئـة وتتحـدث مثـل الأطفـال دون أن تشـعر، لتفيـق مـن تلـك الحالـة لا تتذكـر شـيئًا مـما حـدث. تنـاول ملفًّـا سـميكًا مـن درج مكتبـه المكتـظ بملفـات باقـي المـرضى، أخـبرني مـن قبـل أنـه يقـضي أيـام عطلتـه أمـام الكمبيوتـر؛ ليفـرِّغ كل ملحوظاتـه التـي خطَّهـا في دفـتر ملاحظاتـه أثنـاء الكشـف وكل التسـجيلات الصوتيـة، ويرفقهـا داخـل هـذه الملفـات.. راح يقـرأ مـن ملفـي مُسـتعيدًا أولى جلسـاتنا التـي انعقـدت منـذ سـنة تقريبًـا؛ حـين عـاد ليسـتقر في مـصر.. أخـبرني أن مشـكلتي لم تكـن واضحـةً لـه في البدايـة؛ شـخصٌ يهـاب المـوت كسـائر البـشر، وبعـد فـترةٍ شـخَّص حالتـي عـلى أنهـا وسـواس قهـري.. كنـت عـلى درايـةٍ بـكلِّ مـا قـال، أشرت إليـه ليـسرع في سرده، فـأردف قائـلًا:

- الوسـواس ده عُبـارة عـن فكـرة بتجيلـك إنـك هاتمـوت وأنـت بتحـاول تقاومهـا، فضلـت تقـاوم الهاجـس ده لحـدّ مـا دفاعاتـك انهـارت..

اعتدل في جلسته أمامي، قال بلهجةٍ آسفةٍ- دون أن ينظر في الملف- إن فرع الطب النفسي مُعقد؛ تحدَّث عن حُلم الأطباء والمحللين النفسيين بوجود جهاز طبي قادر على اكتشاف المرض وتحديده بشكلٍ قاطعٍ بعيدًا عن الفرضيات.. تجاهل الضجر الذي ظهر على ملامحي من كلامه العائم.. أشار بيده طالبًا مني أن أصبر، قال بعد أن عاود النظر في ملفي:

- مشيت معاك في فرضية إن عندك وسواس قهري، وجرَّبنا كذا آلية للعلاج؛ جربنا العلاج الدوائي اللي برع فيه أطباء جامعة عين شمس.. وأخدت جرعات من الفلوكسيتين fluoxetine مع كذا دوا تاني بس حالتك ما اتحسنتش.

عدَّل من وضع نظارته الخاصة به.. كانت رقيقة العدسة بلا إطارات، واستكمل حديثه قائلًا:

- واشتغلنا بالعلاج النفسي اللي برع فيه أطباء القصر العيني.. طبعًا المدرستين بيؤمنوا بأهمية العلاج النفسي والدوائي مع بعض، بس أنا باذكر اللي برع في مجال أكتر من التاني. المهم إن برضه حالتك ما بتتحسنش.. عقلك مش قادر يتجاوز الحادثة اللي اتعرضت لها في سن المراهقة لمّا العربية اتقلبت بعيلتك، وفضلتوا فترة

محبوسين جوَّاها، وشاء القدر إن أنت وأخوك تطلعوا بإصابات خفيفة، وإن أبوك وأمك...

أشرتُ له كي لا يُكمل جملته؛ ارتجفت كل أعضائي لدى سماع تلك الذكرى.. لم يعبأ أمجد بالفزع الذي ظهر على ملامحي، وأكمل حديثه ممتدحًا حمايتي لأخي من أي عُقدة نفسية قد تصيبه حين احتضنته وجعلته يُغمض عينيْه يوم الحادثة؛ فلا يرى منظر والديه قاطعين النفس مُحطمة أجسامهم، وصفني بالبطل لأنني تعايشتُ مع الحادثة بمفردي. أخبرني بإصابتي بهوس من فكرة الموت مُذ تلك اللحظة، ذكَّرني بالكوابيس التي تُطاردني بشكلٍ شبه يومي؛ أراني فيها ميتًا، وأعيش تفاصيل الموت منذ لحظة انقطاع النفس حتى دخول القبر.. قلتُ له بعصبيةٍ إن حالتي قد ساءت مؤخرًا؛ فالكابوس بدأ يأتيني بدايةً من اللحظة التي أغفل فيها، ولا أستطيع التعايش معه، ولا أقدر- بالطبع- على الامتناع عن النوم، وأنَّ الوضع قد تأزم أكثر بعد وفاة حسن؛ فأصبح الكابوس يقتحمُ عقلي أثناء لحظات سرحاني وأحلام يقظتي!.. نظرت إلى السقف وتنحنحتُ في خجلٍ قائلًا:

- علاقتي بمراتي ما بقِتش بخير خالص، لدرجة إن شوية الأمل اللي كانوا عندها في الخلفة راحوا.. استقلت من شغلي في المدرسة، ومش قادر أكتب حرف.. لو اللي

حواليّا حسّوا بحاجة مش هايرحموني وممكن يرموني في مصحة زي شكري.

أوشكت العَبرات على الخروج من عينيّ حين ضربت رأسي بكف يدي وأردفتُ قائلًا:

- أنا تعبت يا أمجد؛ بقيت بشوف الموت في كل حاجة حواليّا، ريحته ما بتفارقنيش، بتجيلي هواجس دايمًا إن النَّفَس اللي باخده ده هو النفس الأخير، مرعوب أخسر نفسي في غمضة عين.. حاسس إني عايش بنبض صفر!

تعرف إني فكَّرت في الانتحار كذا مرة من كتر الخوف؟!

رد أمجد بهدوء- كأنه لم يسمع شكواي- أنه استغلَّ سفريته الأخيرة وعرض حالتي على البروفيسور "بيتر مورجان" الذي أشرف على زمالته أيام البعثة، وأنه طرح تشخيصًا لمرضي كان أمام ناظري أمجد طوال الوقت؛ ولكنه استسهل ولعب على الفرضية الأكثر شيوعًا.. سألته بلهفةٍ عن التشخيص، أجاب مُبتسمًا:

- ثاناتوفوبيا ونيكروفوبيا يا يحيى.

- مرضين!

- الإتنين إلى حدٍّ ما مرتبطين ببعض؛ الثاناتوفوبيا هي مرض "الخوف من الموت"، ووجود هواجس عند الإنسان إنه هيموت قريب.. أما النيكروفوبيا فهي

الخوف من كل شيء متعلق بالموت؛ زي الجثث وخشبة الحانوتي والكفن والنعش، وأي حاجة من مقتنيات واحد مات قُريب ممكن تخوِّفك، ده غير كلامك عن الحالة اللي بتجيلك كل ما تكون في مستشفى أو حتى جنازة معديَّة قدَّامك.. وده بيفسر الكوابيس، وبيفسر الاضطراب السلوكي والعصبي اللي بيظهر عندك، مش محتاج أقول لك إن وجودك في موقف زي اللي حصل لك زمان ممكن يعمل أكتر من كده.

أكمل حديثه أن هذه الأمراض صارت مصحوبةً مؤخرًا فيما يُعرف باسمPanic Disorder؛ أي اضطراب هلعي يأتيني في صورة نوبات خوف وشعور بالخطر.. ذكَّرني بالحالة التي عشتها في جنازة حسن، وبشكواي الخاصة باستيقاظي من النوم مذعورًا غارقًا في عَرَقي، لا أستطيع التحكُّم في قلبي الذي ينبضُ كالطبل، ولا في نفَسِي الذي يضيق... قاطعته ساردًاعليه الكارثة الحقيقية: أن هذا الاضطراب بدأ يأتيني في لحظات اليقظة، أصبت به بعد دفنة حسن مباشرةً.. قال بلهجةٍ حَذِرَةٍ من غضبي:

- الكارثة الحقيقية إن الثاناتوفوبيا والنيكروفوبيا - زيهم زي معظم الأمراض النفسية- مالهمش علاج واضح سواء نفسي أو كيميائي.. بس أنا قررت أستعمل معاك أسلوب علاج نفسي جديد.

ثم قام من مكانه وانحنى أمام درج مكتبه، أخرج كيسًا بلاستيكيًّا، وألقى عليَّ ما فيه.. لأصرخ رعبًا مذكرًا إياه أننا اتفقنا في الجلسة الأخيرة على أنْ ألمس الكفن من بعيدٍ. قال أمجد بصرامةٍ:

- اتعوِّد عليه من دلوقتي.. ده مجرد بروفة لطريقة العلاج.

سألته بفهم:

- هتعالجني بالصدمة؟

- طريقة العلاج في حالتك اسمها "الغَمْر".. والعلاج بالغَمْر ده مرحلة أشد من العلاج بالصدمة.. بيتم فيه تعريض الحالة لمخاوفها بشكلٍ أقوى.

حاولت أن أتجنَّب ملمس الكفن الذي أجبرني على الإمساك به، وطلبت منه أن يشرح تلك الطريقة.. قال إن الشرح المُفصل قد يطول بلا داع، فسيختصر قدر الإمكان ضاربًا المثل بحالتي:

- يعني أنت لازم تتغلب على الصراع اللي نشأ عندك وأنت صغير، محتاج تعيش تجربة شبه الكابوس اللي مجننك ومبوَّظ حياتك عشان تخفّ منه.. زي ما تقول كده مُحاكاة أو Simulation .. غالبًا هاتجيب نتايج إيجابية، وفرضًا ما خفِتش بشكل كُلي؛ فعلى

الأقل هاتكون شوفت ما هو أبشع في الواقع، وساعتها الكابوس بالنسبالك هايكون مجرد لعب عيال.. وطبعًا كل ده لازم يتم بموافقتك، وأنا هنا هيكون دوري "معالج نفسي" بالمفهوم العام.. مش طبيب نفسي؛ لأننا بنجرّب طريقة علاج تعتبر مش موجودة.

لم أفهم بعضًا من حديثه، سألته المزيد من الشرح.. فشبَّهني بمريض البرد الذي يُلقى داخل حوضٍ به ماء مثلج كي يُشفى، وأكمل حديثه قائلًا:

- يعني أنت ببساطة خايف من الموت، فاحنا هانموِّتك!

٥

احترسْ كابوس مُتكرر!

الأربعاء 8 فبراير 2006

نفَّذتُ وعدي أخيرًا بالبيات لدى فرحة في بيت العائلة الذي تعيش فيه مع نرجس.. نائمة كملاكٍ أعيته الحياة مع البشر؛ تجاعيد وجهها الأسمر، عيناها المنهكتان، قامتها التي قصرت وفقراتها التي انحنت، شعرها الأبيض الذي تساقط معظمه أسفل حجابها.. يجتمعون ليَقُصُّوا الكثير مما عانت ورأت.

كانت تحظى بحب واحترام جميع أفراد العائلة منذ صغرها، ولم يظفر بقلبها منهم سواي.. اهتمَّت جيدًا بصحتها وبصحة رفعت عالمةً أن قطار الزمن سيفرم الجميع تحت عجلاته، أتذكر بريقَ عينيْها وإشراق وجهها أيام صغري.. حتى أنني في بعض الأحيان كنتُ أراها أصغر سنًّا من أمي،

خَفُت وهج ملامحها بعد رحيل جدي من المنزل مُفضلًا إكمال ما تبقى من حياته مع شيخٍ ضريرٍ، بدأ المرض يطرقُ بابها بعد وفاة أبي.. أصيبت بالجلطة التي أعقبها شللٌ نصفي في آخر مشهد في صراعها مع ابنها عطوة؛ من أجل حقي أنا وناجي والذي خرجَت منه مُنتصرةً. في معركةٍ مع مستبدٍّ كهذا تحتاج للكثير من الجرأة والذكاء والإصرار على الحق.. وهكذا كانت فرحة.

لا أذكرُ أنني رأيتها تشكو من أحدٍ قد آذاها.. هجرها زوجها ولم يَفْجُر لسانُها في حقه بعد الفراق، مات ابنُها الأصغر ولم تفقد إيمانَها في خالقها وقابض روحه، افترى كبيرُها على جميع مَن سواها ولم تتمنَّ له من الله سوى الهداية، انهالت عليها لطماتُ الزمن وظلت كما هي: فرحة.

وصل فرحات إلى منزل العائلة كما جرت العادة الأسبوعية أيام السبت والإثنين والأربعاء، بعد دقائق لحق به أطفال القرية؛ ثُلة منهم أتوا مُرغمين بإلحاح من أهاليهم وقليلٌ منهم أتى مقبلًا.. أمرهم فرحات بالالتفاف حوله في أحد أركان البهو المتسع، لم يلتفتوا إليه وركضوا جميعًا مُقَّبلين يد فرحة التي طالما أغدقت عليهم بالعملات المعدنية وبعضًا من الحلوى التي كانت تأمر نرجس بإحضارها لهم، صافحني فرحات بفتور، وطلب من الأطفال الابتعاد عن فرحة حتى ترتاحَ ويبدأوا دروسهم.. عاونتها على الصعود

إلى حجرة نومها التي قلَّما تنزلُ منها في الفترة الأخيرة.. أثناء صعودنا المتمهل سمعت فرحات يسأل الأطفال عن السورة التي سيمتحنهم فيها، فأجاب أحدُهم بسرعةٍ وقد بدا من صوته الواثق أنه أنجبُهم:

- هانسمَّع من الماضي سورة قاف، والجديد النُص الأول من سورة مريم.

بدَّلت ملابسي ونمت إلى جوارها.. لأول مرة منذ زمنٍ لا يزورني هذا الضيف الكابوسي اللزج؛ فقط نوم مظلم بلا أحلامٍ، وكأن فرحة هي دواء لعنتي ومرضي...

مهلًا، يبدو أن مفعول فرحة قد زال وأن ضيفي الثقيل اقتحم أحلامي مُعتذرًا عن تأخره..

بدأ صوتُ تلميذ فرحات النجيب يعلو بالتلاوة من سورة قاف متداخلًا مع المشهد الذي أُمَثِّل فيه دور البطولة.. فها أنا ذا على فراشي أطلق كحة قوية.. أحاول أن أنادي مي لأخبرها أنني لستُ على ما يُرام فيأبى صوتي الخروج، جالسة أمام التلفزيون لا تعبأ بي كالعادة، صارت تُعاملني مؤخرًا كأنني ضيف في زنزانة الزوجية..

(وجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

كانت تصرخُ بالضحك على نكات سعيد صالح في "مدرسة المشاغبين" برغم أنها شاهدت هذه المسرحية ما

يزيد على الخمسين مرة! حاولت أن أحرِّك أي شيء بجواري كي تسمعني بلا جدوى. قلبي ينبضُ بعنفٍ وكأنه يشتاقُ إلى التحليق بعيدًا عن صدري، أحسستُ بسخونة وجهي وبعجز قدميَّ، رحتُ أضربُ الهواء بيديَّ كالغريق بلا قشةٍ.. لم أعرف متى اقتحم عطوة غرفتي، حاولتُ أن أستغيث بمي منه، وقف أمامي ضاحكًا بصوتٍ أجش.. سمعتُ في الخلفية نكات سعيد صالح التي لم تتوقف، قال لي بصوتٍ غريبٍ عن صوته:

- حانت لحظتك يا ابن آدم.. هل أنت مُستعد؟!

حاولتُ أن أجيب نافيًا بشتى الطرق، فلم يصدر عني سوى حركاتٍ عشوائيةٍ غير مفهومةٍ.. فاستمر الصوت قائلًا:

- ألم تؤمن يومًا بفنائك؟.. لا يهم إن كنتُ مُستعدًا أم لا، فإن أجلك إذا جاء لا يُؤخر.

حاولتُ أن أطلب فرصةً أخيرةً فسمعتُ:

- أغلق باب عودتك، وانقطع عملك في الأرض.. الآن لا حيلة لك ولا مفر؛ ولو اجتمع الناسُ كلهم على أن يمنحوك نفَسًا زائدًا.. ما منحوك إلا ما كُتِب لك.

حاولتُ أن أبعد هذا "الكيان" عني، أو أشتت تركيزي عنه علَّه يرحل.. ضحكات مي بالخارج تزدادُ، و"مرسي ابن المعلم الزناتي اتهزم". شعرت ببرودةٍ شديدةٍ تجتاحني،

واقتحم صوته كافة حواسي.. لم أعرف كيف يُحدثني الصوتُ متجسدًا في عطوة الذي لم يزرني في هذه الشقة من قبل، أسمع صوت ضحكاتٍ مي آتيًا من بهو المنزل.. بدأ يتقدم نحوي ببطءٍ باسطًا يديْه دون أن يبدو على وجهه أي تعبير.

- (لقد كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

***

جلس أمجد أمام شاشة جهاز الكمبيوتر في منزله يُطالع بريدَه الإلكتروني.. لم يلحظ إيفلين التي اقتربت منه حاملةً طبقًا خزفيًّا، جلست مقابلة له وشرعت تأكل في صمت، قال لها بسعادةٍ إن دكتور بيتر قد وافق على تنفيذ طريقة العلاج التي فكرا فيها معًا.. أجابته إيفلين بفمٍ مليء بالطعام أنها جاهزة بالتركيبة الطبية.. هزَّ رأسَه مُشجعًا.. استدركت بعد صمتٍ قصيرٍ مُتسائلةً عما إذا كان شخصٌ آخر قد علم بأمر التجربة.. أجابها بهدوءٍ:

- لأ.. حتى جُبران مايعرفش.. بس ناجي أخو يحيى عارف، أصله محامي وهيخلَّص إجراءات الدفن والورث، ده غير إنه هايكون مشرف على تنفيذ التجربة في طحا، ولو حصل أي قلق سهل يحتويه.

ثم أردف قائلًا بقلقٍ أن مَكمَن المشكلة في يحيى الرافض لإجراء التجربة خشية أن تنقلب المحاكاة إلى حقيقة ويموت!.. تساءلت إيفلين عن تفسير وفاته في كوابيسه.. قاطعها أمجد قبل أن تنهي جملتها مُصححًا:

- يحيى مش بيموت، هو في الحلم اللي حواليه بيعاملوه كأنه اتوفى، وبيعيش التجربة كأنه روح عايشة في جسم ميت. بصّي الموضوع نفسيًّا شرحه صعب.. بس علميًّا لو حد حلم إنه مات وروحه انقبضت في الحلم يبقى مات بجدّ؛ زي الحلم اللي الناس كلها بتحلم بيه بتاع السقوط الحُر؛ لو السقوط حصل فعلًا في آخر الحلم يبقى اللي بيحلم مات في الحقيقة؛ لأن المخ بياخد إشارة بانتهاء عمله.. يعني من رحمة ربنا على يحيى إنه بيصحى أول ما القبر بيتقفل عليه.

سألته عن إمكانية إقناعه بإجراء التجربة.. طمأنها إلى قدرته على هذا؛ فلا حلَّ أمامه إلا هذه المحاكاة، طلب منها أن تكون مستعدةً بالتركيبة.. أعربت بصوتٍ خفيضٍ عن قلقها من أن تكون سببًا في حُزن عائلةٍ كاملةٍ على ابنها.

***

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾

انهار جسمي على الأرض بجوار الفراش، وعلى الرغم من الصوت العالي الذي أحدثه وقوعي إلا أنني لم أشعر بأي وجع.. أحاول النهوضَ فلا يتحرك لي جفن!.. أحاول الصراخ مرةً أخرى فلا أستطيع.. أحاول فِعْل أي شيء غير التحديق في أرضية الغرفة.. فلا تتحرك عيناي عن هذه الزاوية التي سقطت عليها. أقبلت مي مُسرعةً على صوت سقوطي لتجدني بلا حول ولا قوة، حاولَت رفع جسدي إلى الفراش فلم تستطع إلا أن تقلِبني لأستلقي على ظهري.. صاحت فيّ لأستيقظ ولكني لم أفعل، اشتد صراخها وراحت في نوبة بكاء.. اصرخي كيفما شئتي ولكن ابتعدي عن أذنيَّ أيتها المزعجة.. ألا لعنة الله على بنات جنسك!

نهضَت من جواري وتركتني طريح الأرض، ظلَّت واقفةً في حيرةٍ لا تعرف ما العمل، وبعد مكالمةٍ هاتفيةٍ قصيرةٍ مع ناجي حدث كل شيء بسرعةٍ؛ من الغُسل إلى التكفين إلى الصريخ إلى رحلة المقابر المُرهقة إلى دعوات بالرحمة والمغفرة من حنجرة الشيخ عزازي إلى تأمين عليها من أهلي وباقي المُشيعين إلى الدخول إلى ظلمات القبر وانعدام الرؤية من خلال قماش الكفن الخانق إلى صوت سلامة وهو يبدأ في إغلاق القبر!.. كنتُ أرغب في وجود ولد صالح يدعو لي ويحوز اهتمام المُشيعين. الآن ستنتهي آلامي ومعاناتي إلى

الأبـد، ليفـنَ البـشر جميعًـا مـن بعـدي، ليحـترقَ العـالم بعـد فقـداني.. اشـتدَّ الإظـلامُ مـن حـولي وقلـلَّ الكفـن مـن سرعـة أنفـاسي.. أرى وسـط الظـلام نـورًا أبيـض اللـون، ولكنـه بعيـدٌ.. هـل هـذا بصيـصُ الأمـل في العـودة أم أنـه بدايـة لظهـور...

﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾

- اصحى يا يحيى.. الغدا جُهز.

لا يـزال ظـلامُ القـبرِ يُحيـط بي برغم عـودة حـواسي إلى العمل في الواقـع.. أدركـتُ أن نرجـس مـن أيقظتنـي بصوتهـا المزعـج ولهجتهـا الريفيـة، سـألتها عـن فرحـة فأجابـت بفخـر طفـولي أنهـا أوقظتهـا منـذ قليـلٍ هـذا حتـى تُعطيهـا الـدواء في ميعـاده.. لعنتهـا في سري وأنـا في حالـةٍ مـا بـين النـوم والاسـتيقاظ.. حاولتُ بصعوبـةٍ أن أفتـح عينـيَّ لأجـد مؤخـرة نرجـس العريضـة أمامي، تُمثِّـل أنهـا تُحـاول التقـاط شيء مـن الأرض، حـين شـعرَت أننـي أتأملهـا تعمَّـدت إثـارتي بالإطالـة في الانحنـاء والنهـوض بإيقـاع بطـيء يُـبرز منحنياتهـا.. ضحكـتُ سـاخرًا مـن تصرُّفهـا المُريـب مـما سـبَّب لهـا الحـرج وجعلهـا تنتفـضُ وتُغـادر الغرفـة مُسرعـةً وهـي تُغمغـم ببعـض الكلـمات عـن الطعـام الـذي سـيبرد. لا أنكـر أننـي أحيانًـا مـا كنـت أسـتثار مـن جمالهـا الريفـي قليـل القـدر مُتوحـش الملامـح؛ بشَـعرها شـديد السـواد الـذي اعتـادت أن تخـرجَ نصفَـه مـن خلـف حجابهـا، وشـفتيْها العريضتـيْن الكاشـفتيْن عـن فلجـةٍ صغـيرةٍ بـين أسـنانها، وبشرتهـا الخمريـة

وعينيْها السوداويْن الواسعتيْن كالمها.. ولكن سرعان ما كانت تنطفئ رغبتي تجاهها حين تنطق بتلك اللهجة القروية التي لم أحبها قط خاصةً من حنجرة نرجس، لمحَّت فرحة أثناء شبابي لرغبتها في أن أتزوج من بنت عمَّتي حتى "أسترها"، تحدَّثت عن طيبتها وأخلاقها وكونها من دمي، وعن خرَّاط البنات النشيط الذي خرطها قبل أوانها. اضطررت أن أسرَّ إليها برفضي مبدأ الزواج من طحا، وصارحتها بمشاعري تجاه مي.. تحمَّلَت-سرًّا- القدر الأكبر من تكاليف الزواج؛ فابتاعت لي شقةً بعيدًا عن شقة الحسين التي كنت أقطنُ فيها مع ناجي بعد وفاة والديْنا في الحادثة، وتبرَّعت بربع ذهبها لأقدمه شَبْكَة زواجي.. لم أخبرها أن مي رفضت الزواج بشَبْكَة قديمةٍ واضطررنا لتبديلها بشبكةٍ جديدةٍ، ولكنها عرفت ولم تحزن؛ ففرحة تعرف كل شيء.

- تعرف إن ستي فرحة ماكلتش بنِفس مفتوحة كده من سنين ؟

هكذا قالت نرجس وهي تُطعِم فرحة في فمها على مهلٍ، ظلَّت تُحدق بي بتلك النظرة الشغوفة التي لا أرتاح لها، ظلَّ طبقُها كما هو لم تمسسه.. سألتني عن رأيي في الطعام فأخبرتها أنه دَسِم زيادة عن اللزوم، وأن شغفي تجاه الطعام لم يعد كما كان، ولولا فرحة ما أكلت.. دَعَت لي الأخيرة بابتسامةٍ أن يديمني اللهُ عليها نعمةً، وصفتني

بأنني "ابن روحها"... قَبَّلتُ يدها لتخبرني أن لديها ما تُريد إطلاعي عليه، نظرتْ حولها قائلةً:

- أنا عايزة البت نرجس تعمل لنا كوبايتين شاي.. هي راحت فين البت دي؟

ضحكتُ ضحكةً قصيرةً أوقفتها نظرةٌ غاضبةٌ من نرجس التي قالت لجدتها معاتبةً:

- أنا جنبك آهه يا ستي.

قالت لها فرحة ناهرةً:

- قومي غطِّي راسك يا بتّ..

ردَّت نرجس ضاحكةً:

- هو يحيى غريب يعني؟

لم ترد فرحة، ونظرت لي مُتسائلةً في حيرةٍ:

- مين دي؟

أجبتها ساخرًا:

- أنا عارف!

نهضت نرجس غاضبةً وهي تصيح بعباراتٍ غاضبةٍ.. فقالت فرحة وهي تضحك:

- أنا فاكراها.. بسّ باحب أضايقها.

- خدت بالي.

لن تشعر في محراب فرحة سوى بالراحة التامة؛ فرائحتُها الطيبة تملأ أرجاء الغرفة، ومكتبة جدّي تحتل مكانًا كبيرًا بجوار الفراش الكبير المُذهب المُعلقة فوقه صورة قديمة باهتة بالأبيض والأسود تجمع رفعت وفرحة يوم زفافهما؛ ارتدى فيها رفعت جلبابًا أبيض مزينًا صدره بوشاحٍ عريضٍ، كان أطول قليلًا من فرحة التي لم تكن جميلةً بمقاييس النساء، ولكن رفعت لم يرها كأي من أبناء جنسه.. رأى فيها الراحة المتكاملة؛ عقلًا تثقُ في رجاحته، وقلبًا تهنأ بين أحضانه، وروحًا يسكن إليها.

عاونتها نرجس على السير حتى وصلت إلى باب الغرفة لتستند على ذراعيَّ وتأمر نرجس بالرحيل، طلبت مني أن أفتح خزانة الملابس العملاقة المستقرة بجوار المكتبة التي تحمل في طياتها لغة الرافعي وعبقريات العقاد ورؤية الحكيم وعبرات المنفلوطي وملحمية الإلياذة وكفاح هتلر وكوميديا دانتي وصراعات ديستوفسكي النفسية وتأريخ نجيب المجتمعي وغيرهم.. مع الكثير من الكتب القديمة النادرة التي انتهكت الأتربة قدسيتها. أخرجَت صندوقًا كبير الحجم، ساعدتها على حمله وجلستُ مُقابلًا لها على الفراش، أخرجت الكثير من الصور الورقية، وقالت:

- رفعت طول عمره غاوي رسم وتصوير..

نظـرت إلى صـورةٍ عائليـةٍ تـم التقاطُهـا في بهـو البيـت بالأبيـض والأسـود جمعـت فرحـة ورفعـت وأبي الـذي عرفتـه مـن الشـامة المميـزة التـي تحتـلُّ الجانـب الأيمـن مـن خـدِّه، كان أبي يضـع يـده عـلى عمتـي التـي بـدا أنها تعلَّمـت المـشي لتوهـا، وكان جـدي يحمـل عطـوة الـذي بـدا وكأنـه في العـاشرة وقـد تغـيَّرت ملامحـه كثـيرًا عـن الآن.. أكملـت فرحـة حديثهـا مشـيرةً إلى بورتريـه صغـيرٍ مرسـومٍ بالقلـم الرصـاص، أخبرتنـي أن رفعـت مَـن رسـمه.. وأنـه كان يُداعبهـا قائـلًا إنـه بهـذه الرسـومات يوفـر ثمـن الهدايـا. حدثتنـي مُبتسـمةً أن الحـب لم يعُـد كـما كان؛ لم يتلقنـوه مـن الأغـاني ولا الأفـلام مثـل أبنـاء هـذا الجيـل، حكـت لي أن جـدي لم يقـل كلمـة "بحبِّـك" كثـيرًا.. لكنـه فعلهـا كثـيرًا؛ لم يرغمهـا يومًـا عـلى فِعْـلٍ يتنـافى مـع إرادتهـا، دافـع عـن حقِّهـا أكـثر مـما فعلـت، صنـع لهـا هالـةً مـن الهيبـة وسـط أفـراد العائلـة، فجعـل لهـا اليـد العليـا والكلمـة المسـموعة. سـألتها السـؤال الـذي طالمـا حيَّرتنـي إجابتـه: لمـاذا غـادر رفعـت المنـزل واعتـزل الحيـاة؟.. قالـت بعـد صمـتٍ طويـلٍ:

- ربنا يهدي الجميع.

ثـم سـألتني محولـةً دفـة الحديـث عـن عَلاقتـي مـع زوجتـي مـي، وجدتنـي أجيبهـا دون تفكـيرٍ كثـيرٍ أن مـرآة الحُـب لم تعـد عميـاء كـما سـبق.. سـألتني بقلـقٍ عـما إذا كانـت كوابيـسي

هـي سـبب تعاسـتي معهـا.. لم أسـألها كيـف عرفـت، قلـتُ لهـا بصـوتٍ خفيـضٍ:

- لأ الموضـوع مـن قبـل الحادثـة.. مـا بنتفقـش عـلى حاجـة مـن أول ريمـوت التلفزيـون لحـد السريـر، والموضـوع زاد بعـد مـا سِـبت الشـغل.

قالـت مبتسـمةً بخفـوتٍ: "لا تـدرِ لعـل اللـه يُحـدث بعـد ذلـك أمـرًا.." .. ثـم أردفـتْ مازحـةً:

- تحـب يـا ولـه أبعتـك مـع حـدّ مـن العيلـة للشـيخ سـليمان عبـد النـور في الكفـر الـلي جنبنـا عشـان يرقيـك ولا يشـوف إيـه لابسـك؟

كنـت أعلـم أنهـا- مثـلي- لا تؤمن بتلـك المعتقدات السـاذجة التـي ينشرهـا القرويـون ويصدقهـا أهـل الحـضر.. فهـززتُ رأسي نافيًـا، وقلـتُ ضاحـكًا:

- بـس مـا قولتيـش ليـا بقـى.. إيـه اشـتغالة الزهايمـر الـلي إنتـي عاملاهـا عـلى العيلـة دي؟!

***

قبـل أذان المغـرب بدقائـق توقفَـت سـيارة رياضيـة باهظـة أمـام بوابـة أحـد المصانـع المهجـورة عـلى طريـق بنهـا- القاهـرة الزراعـي، عـلى الفـور ظهـر شـخصٌ ضخـمُ الجثـة ليفتـح البوابـة

الحديدية المتهالكة.. تحركت السيارة متوقفةً أمام أحد المباني في الداخل؛ والذي يبدو- من الخارج- مهجورًا منذ زمنٍ بعيدٍ.. نزل منها شاب في منتصف الثلاثينيات من عمره، أشار للضخم الذي فتح له كي يتبعه، دخلا الدور الأرضي للمبنى الذي كان شديد النظافة من الداخل، لا يقل عددُ الموجودين فيه عن عشرين رجلًا، كان المكانُ رطبًا ذا سقفٍ عالٍ وإضاءةٍ خافتةٍ، مرصوصةٍ في أركانه الكثير من الثلاجات الخاصة بمصانع اللحوم. استدعى الشاب الثلاثيني كل الموجودين في المكان مُناديًا عليهم بصوتٍ عالٍ تردَّد صداه في المكان.. وعلى الفور اجتمعوا حولَه.. سألهم عن الأماكن التي سيتوجهون للعمل فيها اليوم.. اقترب منه شاب أنيقٌ يرتدي جاكيت "بليزر" كُحلي اللون وبنطلون جينز أسود وجزمة سوداء لامعة، كان أصغر الموجودين سنًّا وأكثرهم ذكاءً.. أجابه ناظرًا في ورقةٍ صغيرةٍ يحملها:

- الشغل إنهاردة كتير يا دكتور أنَس؛ فيه أربع أموات في قليوب واتنين في بلبيس وخمسة في الغفير.

ردَّ أنَس بصوتٍ خفيضٍ لمُحدثه:

- إيه دكتور أنَس دي يا كريم؟ إنت أخويا الصغير!

ردَّ عليه كريم مُبتسمًا بضرورة الحفاظ على الرسمية أمام العاملين لديه، نظر إليهم أنس وقال آمرًا:

- فيه طلب مخصوص.. لو لقيتوه ما حدِّش يتصرف فيه..

أشار لكريم كي يدوِّن ما سيقول، سرد مواصفات الجُثة المطلوبة؛ ذكر قمحي اللون، لا يقل طوله عن ١٨٥ سنتيمترًا، وأن يكون نصفه الأعلى ممتلئًا.. أمرهم حين يحضروا الجثمان المنشود أن يحلقوا له شعره من الأمام، وأن يكفنوه قبل وضعه داخل الثلاجة.. تعجَّب كريم من تناقض أوامر أخيه؛ فما الجدوى من كل هذه المواصفات إن كان سيتم التسليم داخل الكفن.. ردَّ أنس:

- ممكن حدّ يفتح الكفن بالغلط أو يحسِّس على راسه.. مش عارف، بسّ المهم ننفذ المطلوب عشان نعوّر الزبون في قرشين حلوين..

أشار كريم للرجال كي يستعدوا للتحرُّك؛ كل اثنين في شاحنة من الشاحنات الصغيرة المركونة خلف المبنى كما اعتادوا يوميًّا، قال لأنَس بلهجةٍ جادةٍ وبصوتٍ هامسٍ:

- بمناسبة القرشين.. ابقى زوِّد إيجار المبنى لأصحاب المصنع عشان رجعوا يسألوا تاني عن اللي بنعمله؛ شايفين عربيات عليها شعار شركة أغذية بتخرج المغرب فاضية وبترجع الفجر محَمِّلة.. ولولا إنك دكتور وشركة الأغذية اللي بننقل بعربياتها معروفة كان زمانهم شكوا في إننا تجار مخدرات ولا سلاح.

أومأ أنَس برأسه طالبًا من كريم أن يراقب بنفسه العميل الذي طلب هذا الطلب الغريب.. فحرَّك كريم القلم مُدونًا العنوان الذي تلاه عليه أخوه، سأله عن سبب مراقبة هذا العميل دونًا عن غيره، وسر الاهتمام بشخصه عكس المعتاد.. ردَّ أنَس بهدوءٍ:

- أصل ده مش زبون عادي؛ ده دكتور نفسي.. والمواصفات اللي طالبها مش زي اللي بيطلبها الطلبة بتوع التشريح ولا المهاويس بتوع النيكروفيليا اللي بيعشقوا جتت الأموات؛ فأكيد وراه سر ممكن نطلع من وراه بمصلحة أكبر.

***

ضحكت فرحة حتى اهتزَّ صدرُها المُنهك وضاقت عيناها، قالت:

- بيني وبينك أنا اتخنقت من الناس اللي عايشة معايا دي.. وما حدِّش فيهم حاول يكدِّبني لما ادعيت المرض، كلهم ما صدّقوا إني نسيت.

ثم لمست وجنتي بيدها وأخبرتني مداعبةً أنني الوحيد الذي لم تقدر على تزييف نسياني، وأنني الوحيد الذي لاحظ هذا الزيف الذي ستنتهجه حتى وفاتها.. اقشعرَّ بدني لمجرد طرح الفكرة، قلتُ لها بصدقٍ:

- أنا بحبك أوي يا ستي.
- وأنا روحي فيك يا ولا.

احتضنتها لدقائق غسلت عني كل همومي، رأيتُ في كل ما يُمكن أن يكون جميلًا في هذا العالم.

وكأي شيءٍ جميلٍ انتهى سريعًا، سألتُها وأنا أطالع باقي محتويات الصندوق عمَّا إذا كان ناجي قد كشف ادعاءها المرض.. فقالت بحسرةٍ إن الغشاوة الجاثمة على عينهِ كبيرةٌ تمنع بصيرته عن الرؤية، أخرجت صورةً من داخل الصندوق؛ ظهرتُ فيها مراهقًا أقف بجوار أبي وأمي وناجي طفلٌ، طلبت مني أن أتذكر له دائمًا صورته في هيئته الصغيرة الضعيفة، وأن أصفى تجاهه داعيًا له بالهداية.. لم أخبرها بموضوع اختفائه، خاصةً أنه يتصل بي يوميًّا يطلب مني ألا أخبر أحدًا.. قالت فرحة مشيرة إلى أبي المُتجسد على ورق الصورة:

- أنت ماشي لحدّ دلوقتي ببركة الراجل ده.. ياما عمل خير وما استخسرش في حدّ عِلمه ولا مِلكه؛ بنى المستوصف والجامع اللي عند التُّرَب من فلوسه، ورفض إن حدّ من الطحاوية يشاركه فيهم وقالهم يعملوا هما خير تاني.. كان صاحب فكرة إن أستاذ فرحات ييجي في بيت العيلة هنا يحفّظ العيال قرآن ويعلِّمهم عربي زي ما كان بيجيبه لك مصر يعلِّمك في شقة الحسين..

دققت النظر في الصورة، لاحظت دمعةً فلتت منها.. تركتها تكمل حديثها عن أبي؛ قصَّت عليَّ ليلة الحادثة حين مكث في هذا البيت وقتًا طويلًا كأنه يُودعه، كانت هذه أول مرة يرتدي فيها جلبابًا من أزياء رفعت، أخبرتني أنها تعجَّبت حين شهدته متعجلًا العودة إلى القاهرة، قبَّل يدها واعتذر منها لأنه قد وعدني أنا وناجي بالخروج في نزهةٍ.. تطرَّقت لعلاقته بأمه التي كان يعتبرها نصفه الثاني، استطاع دائمًا التعبير عن حبه لها بأرق الكلمات عكس رفعت.. تعجَّبت من موقفها المتناقض من كلام الحب؛ فكيف تحب قلته من رفعت وتحب كثرته من أبي.. أجابت أن كلًّا مُيَسر لما خُلِق له.. سألتها وأنا أطالع محتويات الصندوق:

- تفتكري أبويا كان بيحبني أكتر من أخويا؛ زي ما ناجي دايمًا بيقول؟

هدأ حزنها قليلًا وقالت وهي تنظر إلى السقف:

- هو كان شايفك حيطة عفية، وكان حاسس إنه هايعتمد عليك قدَّام، وإنك قادر تحمي أخوك من بعده.. وده اللي حصل فعلًا يوم الحادثة.

قلتُ متهكمًا:

- لو كان يعرف أنا هابقى إيه وناجي هايبقى إيه مكانش فكَّر كده.

اعترضت فرحة قائلة:

- وهـو أنـت كـده وحـش يـا عبيـط؟!.. إيـه يعنـي شـوية مشـاكل في الشـغل وفي البيـت، مـا كلنـا بنقـع وبنقـوم، المهـم فطرتـك تفضـل سـليمة.. ومـا تتعلمـش الأونطـة مـن أخـوك وعمـك.

قلـت بصـدق إننـي راضٍ بقسـمتي: أن أعيـش نصـف إنسـان بـروحٍ مشـوهةٍ.. قالـت فرحـة بلهجـةٍ جـادةٍ:

- ناجي عمره ما كان زيك، ولا عمره هايكون.

أخبرتهـا بلهجـةٍ لم تخـلُ مـن عتـابٍ أن كلامهـا قـد تغـيَّر، وأنهـا قالـت في المـاضي إن ناجـي أجـدر منـي بالوقـوف أمـام عطـوة.. أعـادت قولهـا أنَّ كلًّا مُيَسر لمـا خُلِـق لـه، وأنهـا أخطأت في تقديـري وبالغـت في تقديـر ناجـي، وأردفـت قائلـةً:

- ناجـي مـش زي عطـوة؛ عطـوة ابنـي وبدعيلـه بالهدايـة كل يـوم.. بـس ده عقـرب ملعـون لدغتـه توديـك القـبر.. إنمـا أنـت وناجـي بتكمِّلـوا بعـض، أنـت قلبـه وهـو عقلـك.

قبلـت يدهـا مُضيفًـا عـلى كلامهـا أنهـا روحنـا. لأول مـرة ألاحـظ احمـرارًا زائـدًا في كـف يدهـا، تناولـت يدهـا الأخـرى فوجـدت نفـس الاحمـرار! لم أسـمع مـن قبـل أن هـذا الاحمـرار مـن أعـراض أي مـرض.. نظـرت إلى فرحـة مُسـتفهِمًا فانخرطـت في بـكاءٍ صامـتٍ مقهـورٍ، أمسـكتُ كتفيْهـا وسـألتها عـن السـبب

بصوتٍ عالٍ فزاد بكاؤها.. لم أرها من قبل على هذه الحالة من الانهيار. خطرت ببالي فكرةٌ غريبةٌ؛ فأرحتها على الفراش ونظرت إلى كفي قدميها فوجدتهما على ذات الحالة.. كما لاحظت جرحًا آخر أسفل ركبتها.. قالت فرحة بلهجةٍ متوسِّلةٍ، جاهدت للحفاظ على كلماتها رصينة:

- ورحمة الغاليين انسى اللي أنت شايفه ده.

لا أعتقد أنني قد بلغت هذه الحالة من الغضب من قبل فقلت بصوتٍ عالٍ:

- لو اللي في بالي صح...

قاطعتني فرحة قائلةً برجاء وهي تُحاول بلوغ يديَّ بشفتيها:

- أبوس إيدك بلاش.. أنا كلها شوية وهاغور من الدنيا كلها؛ العيلة هي اللي باقية لك.

تركتها مُنخرطةً في بكائها، نزلت السلم مُسرعًا عازمًا على أن تكون الليلة سوداء على رأس الطحاوية جميعًا.

٦

وَزَهَقَ الحَق..

لا أتوقع لهذا الظلام المُخيم على قبري
سوى نهاية واحدة.. نهايتي.

الأربعاء 8 فبراير 2006

شرع ناجي في ارتداء ملابسه التي أحضرها رجال المعلم عيد المجبراتي في الوكر الخاص بهم.. أرسل أحدهم لأحدِ موظفي الشهر العقاري بتوصيةٍ خاصةٍ بالقضية، طلب من آخر تحضير القهوة. فرك عينيْه راجيًا منها الصمودَ دون أن تنغلقَ على نفسها، طلب من عقله ألا يُفرِّط فيما تبقى بين طياته من تركيزٍ وانتباهٍ.. تمنَّى ألا ينهار مغشيًّا عليه من قلة النوم أثناء عَرْض موكله على النيابة. لم يثق في قدرة هؤلاء البلطجية على تنفيذ ما أراد؛ فلم يُظهِروا أي فطنةٍ

منـذ اختطفـوه ولازمـوه حتـى وصـل إلى النيابـة ليجـبروه عـلى مـا لم يتهـرب منـه.

وقـف عيـد مُكبَّـلًا مـن يـسراه أمـام مكتـب وكيـل النيابـة، اقـترب ناجـي تجاهـه ليقـدم لـه المعلـم عيـد التحيـة مـادًّا نحـوه يـده اليمنـى.. نظـر لـه ناجـي بـازدراءٍ دون أن يُحـرِّك يديْـه وقـال:

- باعـت لي البهايـم بتوعـك يخطفـوني؟.. مـا أنـا ممكـن أخـش دلوقتـي ألبِّسـك تأبيـدة وعليَّـا وعـلى أعـدائي!

اتسـعت عينـا عيـد وانتـزع يـد ناجـي مُصافحًـا إيـاه عَنـوة، قـال:

- طب وعهد مين ده؟

أجاب ناجي مُتهكمًا:

- عهد مبارك.

لم يعبـأ عيـد بسـخرية ناجـي مـن كلامـه وأكمـل قسَـمه مؤكـدًا أنهـم حفنـةٌ مـن الحمـير الذيـن أسـاءوا فهـم تعليماتـه.. اشـمأزَّ ناجـي مـن رائحـة عيـد حـين اقـترب منـه؛ وخاصـةً رائحـة فمـه الكريهـة التـي كانـت مزيجًـا مـن رائحتـيْ السـجائر والاسـتيقاظ مـن النـوم، أشـاح بوجهـه بعيـدًا وردَّ دون أن ينظـر إليـه:

- حمير عشان شغالين عند مُتخلِّف زيك.. عامةً أتعابي في القضية دي إني ماشوفش وشك تاني.

ابتلع عيد الإهانة، سأله بلهجةٍ متوسلةٍ أن يُخلِّصه من هذا الكابوس وسيدفع له ما يشاء.. أمره ناجي أن يلتزم الصمت أمام وكيل النيابة ولا يتحدَّث إلا بنكران الواقعة.. سأله عيد عن الرد المناسب إن عُرِض عليه حُكمٌ مخففٌ.. ردَّ ناجي بعصبيةٍ مُحاولًا خفض صوته- حتى لا يسمعه العسكري المُكبِّل لعيد- أن المتهم الغبي فقط من يعترف مُبكرًا؛ فيجب عليه التَّمَسُّك بكذبته حتى الموت، ولا يبيع نفسه لأنصاف الحلول.

رنَّ صوتُ الجرس الخاص بمكتب وكيل النائب العام؛ فأدخل العسكري عيد وفك أصفاده، كانت هذه المرة الأولى التي يترافع فيها ناجي أمام هذا الوكيل، سمع الكثير عنه ولكن السمع ليس كافيًا. حاول أن يتفرَّس في ملامحه فلم يقدر على قراءة الكثير؛ لم يعرف السبب: أهو غموض الرجل أم أن هذا تأثير انعدام النوم؟ أشار إليه الوكيل بالجلوس، حيَّاه ناجي بابتسامةٍ مُنهكةٍ، وقبل أن يفكر في نقطةٍ لبداية سرد حجج براءة مُوكِّله قال له وكيلُ النيابة مُبتسمًا:

- أنت متوصي عليك توصية محترمة يا أستاذ ناجي.. سمعتك ما شاء الله يعني.

حـرَّك ناجـي كتفيْـه مُسـتفهمًا عـمَّا سـمع عنـه، تمنَّـى أن يكـون خـيرًا.. أجـاب الوكيـل أن صيتَـه قـد سـمَّع في محاكـم ونيابـات القاهـرة سريعًـا لدرجـةٍ مُفزعـةٍ.. فاجـأه ناجـي قائـلًا:

- المهم سيادتك هاتسكت على اللي بيحصل ده؟

- إيه بيحصل؟

- فيـه تعنُّـت واضـح جـدًّا مـن الشرطـة تجـاه مـوكلي الحـاج عيـد عبـد السـلام الشـهير بعيـد المجـبراتي.. وواضـح جـدًّا إن القضيـة متلفقـة.

ضحـك وكيـل النيابـة الـذي عـرف ناجـي أن اسـمه عـماد حَنـا، وقـال:

- دي حالـة تلبُّـس بَيِّنـة والمحـضر متقفـل صـح.. دوريـة القسـم كانـت معديـة، اشـتبهت في موكلـك وبعـد التفتيـش لقـت معـاه فَـرْد خرطـوش.

ردَّ ناجـي بلهجـةٍ عمليـةٍ أنـه لـن يتلـو عليـه مرافعـاتٍ طويلـةً ولا خُطَبًـا عصـماء كباقـي أبنـاء مهنتـه؛ فـكل مـا يطلبـه مـن النيابـة إعـادة تمثيـل الواقعـة طبقًـا للقانـون.. هـزَّ عـماد رأسَـه موافقًـا، اسـتدعى عـماد أحـد الحـرس مـن خاصتـه، أمـره بإخـراج الحِـرز، وبـدأ في قـراءة المحـضر وإعـادة تمثيـل الواقعـة.. أمـر العسـكري:

- حـط لـه يـا ابنـي الفـرد في كَمَـر البنطلـون زي ماهـه مكتـوب.

نهـض العسـكري وفعـل مـا أُمِـر بـه، فسـقط بنطلـون عيـد كاشـفًا عـن ملابسـه الداخليـة فضحـك ناجـي بانتصـارٍ قائـلًا:

- شـايف يـا باشـا.. إزاي بقـى هيمـشي في الشـارع بالمنظـر المُهَـزَّق ده، ده حتـى فيـه قـطْع أنـا شـايفه مـن عنـدي.

أشـار عـماد للعسـكري بإرجـاع الحـرز إلى كيسـه البلاسـتيكي، والخـروج مـرةً أخـرى.. وابتعـد قليـلًا ليُجـري مكالمـةً هاتفيـةً وعـاد لناجـي قائـلًا:

- كان لازم أبلّـغ توصيـة نائـل بيـه للنقيـب أكمـل العطـار الـلي حـرَّر المحـضر.. هـو ذكي وشـاطر بـس لسـه جديـد عـلى شـغل الدايـرة.

قال ناجي مُستفهمًا:

- أنا مش فاهم حاجة يا عماد بيه.

قال عماد وهو يُصفق بيديه دون أن يصدر صوتًا عاليًا:

- أنـت طلعـت لعِّيـب فعـلًا زيِّ مـا اتقـال لي.. كنـت متوقـع إنـك ممكـن تلعـب في الحِـرز زي مـا عملـت قبـل كـده في قضيـة الحشـيش الـلي نائـل بيـه حـكى لي عنهـا ضمـن قضايـاك؛ لمـا دفعـت لأمـين الشرطـة عشـان يُقطـم صُبـاع حشـيش مـن الخمـس صوابـع الـلي اتمسـك بيهـم موكلـك

وقتها.. وطبعًا كده الحِرْز قُدام النيابة بقى فيه ست صوابع؛ وبقى غير مُطابق لمحضر الشرطة، يعني القضية باظت.

ضحك ناجي وقال إنه لا يتذكر هذه القضية، كما أنكر هذه الفعلة "المخالفة للقانون".. طلب منه عماد التزام الصمت، وأن يدعه ليُدلي بالتفسيرالذي توصَّل إليه؛ أخبر ناجي أنه لم يجد أي ثغرةٍ لتحسين موقف موكله سوى وصف ملابس المُتهم في محضر ضبط المتهم، أردف قارئًا من أوراق المحضر أمامه: "قميص أبيض وبنطلون أسود استقرَّ في كَمَره فرد خرطوش به ثلاث طلقات".. أكمل حديثه قائلًا:

- واضح إن حضرتك كان عندك معلومة بإن الدايرة عندنا عينها على صبري العموري اللي موكلك شغال تحت إيده...

قاطعه عيد قائلًا:

- وربنا ما أعرفه يا باشا.. كل اللي أعرفه عنه إنه عضو مجلس شعب عن دايرتنا، بس وغلاوتك ما شوفته في حياتي.

أشار ناجي إليه كي يصمتَ.. أكمل عماد حديثه الموجَّه إلى ناجي قائلًا:

- فسيادتك عملت بلاغ كاذب بالليل عن عملية كان المفروض رجالة العموري يعملوها.. العملية اتلغت في آخر لحظة بعد ما حد بلَّغ رجالة صبري إنها اتشمت.. وطبعًا الناس في القسم ماحسوش إن ده طُعم إنت رميته لهم؛ عشان الظباط التقال يتحركوا من القسم وتعرف تدخَّل أي حدّ من رجالة المعلم الحبس الاحتياطي، بعيد عن عيونهم ومن غير ما النقيب أكمل العطار يشك إن الموضوع يخصّ قضية المجبراتي.

ضحك ناجي ساخرًا من التفسير "السينمائي" الذي يُقال، زجره عماد مؤكدًا أنه التفسير الوحيد لما حدث، أردف قائلًا:

- وجوه الحبس المعلم بتاعك قلع بنطلون الخروج الأسود اللي كان لابسه واللي كان معلق فرد الخرطوش في حزامه ولبس بنطلون البيت الأسود اللي الواد بتاعكوا اتحبس بيه، وطبعًا لما أعدنا تمثيل الواقعة اللي حصل قدامي ما طابقش المحضر، والله يرحمِك يا قضية.

ابتسم ناجي قائلًا بلهجةٍ خبيثةٍ أنه لو كان لديه نصف هذا الدهاء لأصبح أهم محامي في مصر، ردَّ عليه عماد باستياء:

- أنا عارف كويس النوع اللي زيك؛ اللي هو راضي بالمكتب البسيط والموكلين الغلابة، باعد نفسه عن حيتان القانون.. عندك Safe zone خاصة بيك بعيدة

عـن أي صراع ممكـن يئذيـك، وأكيـد بتشـتغل في قضايـا كبـيرة مـن الباطـن لصالـح النـاس التقيلـة.. الـلي زيـك هـما الـلي ممشـيين العـدل عـلى مزاجهـم يـا ناجـي.

لم يندهـش ناجـي مـن ذكاء عـماد ولا مـن اسـتخدامه لمصطلحـات إنجليزيـة أثنـاء الـكلام.. كان عـلى علـم بأنـه ابـن أسرة ثريـة؛ فوالـده مستشـار كبـير في محكمـة النقـض العليـا.. أخـبره ناجـي دون أن يفقـد هـدوءه أنـه يُبالـغ في تقديـره، وأقسـم أن القبـض عـلى موكلـه كان كيديًّـا.. سـأله عـماد مُتعصبًـا عـن السـبب الـذي سـيجعل قسـم الشرطـة تسـتهدف تاجـر سـلاح لأسـبابٍ شـخصيةٍ.. ردَّ ناجـي مُصححًـا أن المعلـم عيـد لا يُتاجـر في السـلاح؛ فهـو رجـل شريـف يمتلـك مقهـى في وسـط البلـد، وأردف قائـلًا:

- القهـوة دي بقـى سـاكن فوقيهـا جنـاب المأمـور؛ وواضـح إن ريحـة الدخـان بتضايـق المـدام بتاعتـه أو ممكـن حـدّ مـن الزبايـن بـصّ لبناتهـا بصّـة مـش كويسـة.. حاجـة يعنـي مـش في إيـد الحـاج عيـد.. المأمـور طلـب مـن مـوكلي ينقـل مـكان القهـوة بـس طبعًـا مـا حـدّش هايفـرَّط في مـكان أكل عيشـه.

ضحـك عـماد وسـأل ناجـي عـن المبلـغ الـذي تـم دفعـه لصاحـب المقهـى الحقيقـي كي يكتبهـا ويسـجلها باسـم موكلـه بتاريـخ قديـم لحـين انتهـاء التحقيقـات، وصـاح فيـه غاضبًـا أن

الجميع يعرفون نشاطات عيد المجبراتي في تجارة السلاح.. ردَّ ناجي بهدوءٍ أن عمله يعتمد على الورق والمستندات؛ وذكَّره بأن "البيِّنة على من ادَّعى".. كتم عماد غضبه وسأله بلهجةٍ لم تخلُ من اللين عن حقيقة كَوْنه من أوائل دفعته ورفض التعيين الجامعي.. أومأ ناجي برأسهِ إيجابًا وقال:

- الكلام ده صحيح.. أصلي شايف إن القانون ده فن يتحسّ أكتر من كونه مواد بتتلقن، بعدين ليه أبيع أسرار نجاحي لطلبة نصّهم مش مُهتم والنصّ التاني ممكن يستغلوه ضدي في المستقبل؟

سأله عماد بخبثٍ عمَّا إذا كان السبب الحقيقي وراء رفضه كان السعي وراء التعيين في النيابة، وأنه فوجئ برفض هذا التعيين بسبب سلوك عمه المشبوه.. ضحك ناجي قائلًا: "لا تستقضين إلا ذا مال وذا حسب؛ فإن ذا المال لا يرغب في أموال الناس، وإن ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس".. وأردف مُبتسمًا:

- طبعًا يا عماد بيه أنت حافظ الجزء ده من كلام الفاروق عمر بن الخطاب عن القضاء، حضراتكم دايمًا بتستشهدوا بيه بعد كل حركة تعيينات.. فواضح إن مؤسسة العدالة مش شايفة فيا المواصفات المذكورة.

استدعى عماد العسكري وجعله يصطحب عيد تمهيدًا لاستكمال إجراءات الإفراج عنه من القسم، وأشار لناجي بالانتظار، وقال له بصوتٍ هامسٍ:

- أنا حاسس بيك.. ليًا واحد صاحبي مرّ بظروف زي ظروفك دي.

أجاب ناجي بابتسامةٍ صفراء:

- أنا مش عايز حدّ يحسّ بيا..

قال عماد مُحذرًا:

- الكلام اللي هاتسمعه دلوقتي ده أنا ماقولتوش؛ بس ماتلعبش مع الرُّتَب تاني، عشان عينهم عليك ونهايتك بتقرَّب.

***

لم أشعر بمثل هذا الغضب من قبل.. نزلتُ السلم بسرعةٍ لا تتناسب مع بنياني ولا عُمْري، توجهت إلى غرفة نرجس في الدور الأرضي من البيت، فتحتُ الباب بعنف؛ كانت نرجس مُستلقية على فراشها بملابس البيت تستعد لقيلولةٍ، فزِعَت من منظري ونظرت لي مستفهمةً، لم أرد وسحبتها من قدمِها بسرعةٍ ليسقط جسدها بصوتٍ مدوٍّ على الأرض.. جررتها ورائي حتى بلغت بهو الدوَّار، أوقفتها وأمسكتُ بشَعرها، صرخت فيها بغضبٍ:

- إنتي بتعملي إيه في فرحة لما بتكونوا لوحدكوا؟!

قالت وسط بكاء كلمات غير مفهوم لم أفهم منها سوى:

- هي قالتلك...

لم أتركها لتُكمل جملتها فقد تأكدت ظنوني؛ لطمتُ مُقدمة وجهها بكف يدي بقوةٍ ثلاث مرات حتى نزفت من أنفها، صفعتها على جانب رأسها بكلتا يديَّ وتعمدت أن أطرق أذنيْها بكفيَّ، لم أعبأ بصراخِها وركلتها في معدتها وقفزت على نهديْها داعسًا.. ركضتُ نحو المطبخ وأحضرتُ سكينًا حاميًا، صرختْ فور رؤيتها للسكين وحاولت النهوض؛ أحكمتُ قبضتي على شَعرها أثناء محاولتها للفرار، ألقيتها على الأرض وانكببتُ عليها بكامل وزني، ثبَّتُ مقدمة رأسها ساحبًا شعرها بيسراي وجززت شعرها بالسكين، لم أنتزعه كله ولكن ما فعلته كان كافيًا لتشويهها.. لطمتها على وجهها عدة مرات، حتى شعرت بالإنهاك وبفتور حماسي.. سكنتُ لثوانٍ سمعت خلالها بكاء فرحة فانهلتُ على نرجس بالضرب أكثر ليزدادَ صُراخُها، أحكمت ذراعي حول عنقها عازمًا على خنقها حتى احمرَّ وجهها وانغلقت عيناها تدريجيًّا، فتركت رقبتها كي لا تموت وضغطت على عينيْها بكلا الإبهامين.. انتقمت من هذه النَّجِسَة بقدر ما أحببت فرحة، وبقدر ما مررت به في الفترة الماضية من ضغطٍ انفجر فيها.

أعـرف أن هـذه اللحظـات لـن تـدومَ؛ فسـيأتي خفـر عطـوة لينقذوهـا مـن براثـن ثـورتي.. ولكننـي لـن أضيـع الوقـت في مجـرد ضربهـا مُسـببًا كدمـاتٍ سـتزولُ مـع الزمـن، توجَّهـت سريعًـا إلى الحـمَّام بحثًـا عـن مُنظـف الأرضيـات الحامـضي "ميـة النـار".. سـمعتُ صـوت محـاولات فتـح البـاب المُسـتميتة والمُلبيـة لاسـتغاثة هـذه اللعينـة، ركضـت عائـدًا إلى البهـو، فتحـت زجاجـة الحمـض لأجـد خفيريـن ضخمـيْ الجثـة يركضـان نحـوي مسرعـين بعـد أن تحطـم البـابُ تحـت أقدامهـم.. أمسـكا بي بكامـل قوتهـما، وانتـزع ثالثهـما زجاجـة الحمـض مـن يـدي بحـرص، لم أقاومـه فلـم أكـن أريـد إيـذاء غـير تلـك البغيضـة.. لحقهـم عطـوة ومـرَّت دقائـق مـن الصمـت التقـط فيهـا الجميع أنفاسَـه دون أن يتركـوني أفلـت منهـم، بـدأ جسـدي في الانهيـار.. ظلـت نرجـس تبـكي بصـوتٍ عـالٍ ككلـبٍ يعـوي جوعًـا.. أتـت زوجـة عطـوة وأعانتهـا عـلى النهـوض مُحـضرةً لهـا كوبًـا مـن المـاء.. ظـنَّ عطـوة أن شـجارًا عاديًّـا قـد نشـب ولكننـي أخبرتـه قائـلًا:

ـ البهيمـة دي بتـضرب فرحـة وبتمدهـا عـلى إيديهـا ورجليهـا.. فاكـرة إن عندهـا الزهايمـر وهاتنـسى!

لم تـرد نرجـس ولم تُدافـع عـن نفسـها مُنخرطـةً في بـكاءٍ طويـلٍ، أبعـدت زوجـة عطـوة يدهـا عنهـا باشـمئزازٍ، نظـر لهـا عطـوة بغضـبٍ شـديدٍ حـاول أن يكتمـه.. أكملـتُ حديثـي قائـلًا:

- لمَّا أبوكي طفش وجرى ورا نجاسته وسابك إنتي وأمك لوحدكوا، وأمك حلفت ما هي مربياكي عشان بتفكريها بديل الكلب اللي كانت متجوزاه.. مين اللي خدتك زي ماتكوني عيل من عيالها واتكفلت بمصاريفك لحدّ ما بقيتي قدّ البقرة؟

قالت بصوتٍ متهدجٍ وبحنجرةٍ أعياها الصراخ إنها لا تُنكر فضل جدتها، حاولت تبرير موقفها فقالت إن فرحة كثيرًا ما تتغوط على نفسها وقت الطعام؛ فلا تستطيع أن تُسيطر على نفسها من الاشمئزاز.. صرختُ فيها بغضبٍ أنَّ فرحة تحمَّلت منها نفس الفعلة حين كانت رضيعةً.. حاولتُ أن أتحرر من الخفيرين ولكنهما كانا قويين بحق، قالت نرجس باكيةً:

- خلقي ما بقاش زي الأول.. أنا معدية التلاتين ولسه بنت بنوت...

قاطعتها بنفس الحِدَّة أن فرحة- سامحها الله- كانت تترجاني كي أتزوجها، وأحمد الله على أنني لم أفعل.. ابتلعت الإهانة قائلةً:

- آخر عريس اتقدملي كان من ست سنين؛ لا كلام الناس بيرحم ولا حتى جسمي بيرحمني!

- إنتي عارفة إن فيه مليون بنت زيك كده؟!.. بس ولا واحدة فيهم منعت الرحمة عن أحنّ واحدة في الدنيا عليها؟

نظرتُ إلى عطوة ووجَّهت له حديثي، طلبت منه أن يذكِّرها حين أراد ذلك "البغل" الذي أنجبها أن يختنها كباقي بنات القرية.. من التي تصدَّت له وأفهمته الصواب من الخطأ والحلال من الحرام! طأطأت نرجس رأسَها في الأرض وانخرطت في بكائها الكاذب كأنثى تمساح بغيضةٍ، أشار عطوة لزوجته كي تصعد لتطمئن على فرحة.. وقال لي بلهجةٍ صارمةٍ إنه سيُخبر أم نرجس بما فعلت، وسيأمرها بأن تنسى أنها تعرفها من الأساس، وأصدر فرمانًا بأنها لن تشم نسمة هواء خارج دوَّاره، ولن تدخل الحمَّام إلا مرة كل أسبوع حتى تشعر بالمسكينة التي عذَّبتها بلا ذنب. وإن تقدَّم أحدٌ لخطبتها- وذلك احتمال مستحيل- فسيرفضه معللًا أن الطحاوية لم يُنجبوا فتاة تُدعى نرجس.

أومأت برأسي موافقًا عطوة لأول مرة منذ أن كنتُ في المهد، وقامت نرجس من مكانها وانحنت محاولةً تقبيل يد عطوة الذي رفسها بقدمه، كادت أن تتوسل إليه بكلماتها المسمومة.. ولكن قاطعها صوتُ زوجة عطوة القادم من أعلى صارخًا:

- إلحقوني.. فرحة ماتت!

٧

رَحِيلٌ مَعَ إِيقَافِ التَّنْفِيذِ

الخميس 9 فبراير 2006

استلقَـت إيفلـين فـوق فراشِـها واضعـةً جهـاز اللابتـوب الخـاص بهـا فـوق ركبتيْهـا، للمـرة الثالثـة تراجـع بحثهـا المتعلـق بحالـة يحيـى، كان مشروعًـا قديمًـا عكفـت عـلى دراسـته قبـل زواجهـا وتقاعسـت عـن إكمالـه.. حتـى جاءهـا أمجـد بطريقتـه العلاجيـة التـي اقترحهـا عـلى صديـق عمـره المسـتعصية حالتـه. لم تنزعـج حـين علمـت برفـض يحيـى التـام لهـذا الأسـلوب العلاجـي؛ فمـن الممكـن لهـذا الحـل أن يـؤدي إلى وفاتـه، أو حـدوث انتكاسـة مرضيـة.

طـرق أمجـد بـاب غرفـة النـوم قبـل الدخـول، كـما عوَّدتـه أن يفعـل منـذ أن انتقـلا للعيـش معًـا، فأذنـت لـه بالدخـول.. وضـع أمامهـا قفصًـا معدنيًّـا يتحـرك بداخلـه نسـناس، صرَّح لهـا

أمجد وهو يستريح على المقعد المقابل للفراش بأنه لا يفهم الفائدة من إحضار هذا النسناس؛ خاصةً بعد إجراء التجربة على عينةٍ من الفئران.. عكفت إيفلين على مراجعة نقطة أخيرة في بحثها؛ قالت دون أن تنظر إليه أن رتبة الرئيسيات تُعطي نتائج أدق للتجربة عن القوارض، وأن الأمر ليس هينًا كي ترضى بنتيجةٍ مبدئيةٍ.. بدا أمجد مستاءً من غلو ثمن النسناس، أخبرها بنيته في أن يطلب ثمنه من ناجي بعد إعلام الوراثة.. سألته عن مستجدات حالة يحيى، فأجابها أنه لا يزال مُختفيًا لليوم الثالث على التولي منذ أن علم بموت فرحة، أردف موضِّحًا أن شخصًا كيحيى لا يستطيع الهرب طوال العُمْر؛ وأن اختفاءه مدفوعٌ بعدم رغبته في أن يراه الناس على مثل هذه الحالة الصعبة. استلقى جوارها على الفراش وألقى النظر على الكمبيوتر مطالعًا ملفها البحثي، مراجعًا أهم نقاطه، قال لها:

- طريقة العلاج دي لو نجحت ممكن نقنع يحيى يتخلى عن خصوصية مرضه وتبقى ورقة بحث مُحترمة في تاريخنا، ومش بعيد نتكرم عليها.. أنا بالشق النفسي وأنتي بالشق الكيميائي.

ردَّت إيفلين بفتور أنهم لم يضيفوا للعلم كثيرًا؛ فأمجد شخَّص مرضًا قديمًا، وابتكر له طريقة علاج معروفة؛ الإبداع فيه يكمن في التنفيذ ليس أكثر. أردفت، وهي تشير إلى

بعض العناوين الرئيسية في بحثها، أنها لم تفعل الكثير أيضًا؛ عملت على بحثٍ قديمٍ لها مكوِّنة تركيبتيْن دوائيتيْن: الأولى قوامها البوتاسيوم والأدرينالين كي تُدخِل متعاطي التركيبة في متلازمة "لازاروس" بشكلٍ مُتَعمد..

قال أمجد مُستفهمًا:

- يعني يحيى هيدخل في حالةٍ مماثلةٍ لحالة الـ Hibernation؛ زي الحيوانات في المناطق الشتوية اللي بتنام لمدة طويلة عشان تهرب من البرودة؟

هزَّت رأسها نافيةً، أوضحت له أن الحالة التي تُسببها التركيبة ستكون مؤقتةً، أكملت شرحها مُؤكدةً أن يحيى ستظهر عليه كافة أعراض الموت كالمُصاب بالسكتة القلبية، لكنه سيكون حيًّا واعيًا بكل شيء حوله دون القدرة على التدخل فيه... بدا على أمجد الفهم، وقال:

- يعني نبضه هيقف تقريبًا وجسمه هيتخشب، هيكون مشلول حركيًّا بس إحساسه وإدراكه هيكونوا حاضرين؟

أومأت برأسها مؤمِّنة على حديثه.. سألها عن التركيبة الثانية.. أجابته بهدوء أنه سيتناولها على هيئة قرص معمول له غُلاف مزدوج؛ أو حسب تعبيرها: "اتنين coating"؛ أولهما كبير الحجم، سيُحدث له انتفاشًا في الوسط الحامضي المحتوي على الماء؛ حتى يظل القرص في المعدة دون أن

يهبط إلى الأمعاء.. حاول أمجد استيعاب كلامها، فهم الكثير هذه المرة، سألها بعد دقيقةٍ من التفكير:

- والغِلاف التاني هايكون مضاد لإنزيمات المعدة نفسها.. صح؟!

أجابت إيفلين بالإيجاب، مُتَحدثة عن سهولة التحكُّم في وقت ذوبانه؛ بحيث يكون مفعول التركيبة بطيئًا حسب الحاجة التي تقتضيها التجربة.. أكَّدت على خطورة هذه التركيبة وأن نجاحها ليس أكيدًا ولا يزال قيد التجربة، ولكنها مهمة كي تقوم بعمل إنعاشٍ ذاتي لقلبه حتى يعود النبض إليه وتدُّب الحركة في جسمه من جديد. أخبرها أن التركيبة الثانية ستكون خطة بديلة في حالة لم يستطع الوصول إلى يحيى في الوقت المناسب؛ فتنقذه من بقائه في المتلازمة حتى الموت.. قالت إيفلين إنه من الأفضل أن يصل إليه بعد تبديل الجثتين وإنعاشه بالطرق العادية أو باستخدام الصدمة الكهربائية Electric shock لو لزم الأمر.

وأردفت قائلةً إن هذا القرص سيقوم بدور المسيح في قصته مع القديس "لازاروس" حين أحياه من الموت كما كُتِب في العهد الجديد.. أعرب أمجد عن قلقه من أن يفوق يحيى مبكرًا قبل إتمام التجربة. شرح لها الخطة بإيجاز: سيتم إعلان وفاة يحيى أثناء وجوده بعيادة أمجد، سيطلب جُبران من المرضى الرحيل لضرورة إغلاق العيادة، وسيتم

إبلاغ ناجي أن يحيى قد أخذ التركيبة كي يعلن لعائلته خبر الوفاة، سيُنقل جثمان يحيى إلى المستوصف القديم بناءً على اقتراح سيصدر من ناجي، وسيقترح أيضًا أن يتم الغُسْل والتكفين داخل المستوصف ليلًا على أن تكون الدفنة صباح اليوم التالي، سيلتقي حينها برجال دكتور أنس ليأخذ منهم الجثة البديلة وينقلها إلى طحا ليلًا.. ويتم تبديل الجثتين من خلال الباب الخلفي؛ فالمستوصف مُقام على مساحةٍ كبيرةٍ والمسافة بين البابين ستمنع انتقال صوت السيارة التي سيُطفئ نور كشَّافها قبل بلوغ البوابة الخلفية.

قالت إيفلين بعد مهلةٍ من التفكير أن الخطة تبدو على الورق جيدة، ولكنها ستحتاج توفيقًا كبيرًا لتنفيذها، أعادت التأكيد على ضرورة الوصول ليحيى وإنعاشه قبل أن ينتعشَ ذاتيًّا بفعل التركيبة الثانية.. على فرض أنه سيوافق على إجراء التجربة من الأساس. قال لها مُطَمئنًا أنه سيقدر على إقناعه، أخبرها أن شعور الناس تجاهه بعد موته المزعوم سيكون عاملًا مؤثرًا على موقفه؛ فقد يشعرون بقيمته حين تُعلن وفاته، ويرحبون بعودته حين يعلنها.. أكمل أمجد حديثه بحماس أن حلمه بالكتابة قد يتحقق؛ فدار النشر التي رفضته قد تُعيد النظر في موقفها من كتابه الذي سيسهل عليها تسويقه على أساس أن كاتبها حديث الوفاة، سيلعبون بسهولة على مشاعر الناس.. أردف مقترحًا:

- أنا هابعت له الأسباب دي في رسالة على الموبايل يمكن يظهر ويوافق على التجربة.. أكيد هو بينتكس دلوقتي بعد موت جدته ولازم نلاقيه بسرعة.

قامت إيفلين وأخرجت قفص النسناس من غرفة النوم ووضعته في غرفةٍ صغيرةٍ اتخذتها معملًا منذ فترةٍ.. أخرجَت بعض الموز الذي ابتاعه أمجد لأجله، مزجت قدرًا من التركيبة الأولى وقدرًا أقل من التركيبة الثانية مع الطعام وقدّمته للنسناس.. ضحكت ضحكةً خفيفةً حين شاهدت حركاته، حاولت أن تُداعبه محدثةً إياه بصوتٍ خفيضٍ. عادت إلى غرفة النوم لتطفئ النور وتستلقي بجوار زوجها مدثرةً بالغطاء، نامت على جنبها موليةً ظهرها لأمجد الذي احتضنها من الخلف، هزَّت رأسها مبتعدةً عنه، اعتذرت له عن فتورها تجاهه بحجة أنها "Out of mood".. سألها أمجد وهو يُداعب خصلات شَعرها الأشقر بلهجةٍ ناعمةٍ إن كان هذا الموعد غير مناسبٍ لما يرغب.. أجابت مغمغمةً أنها تفكر فيمَ قد يحدث إن كان هناك خطأ في التركيبة؛ الأمرُ الذي قد يُصيب يحيى بأعراضٍ جانبية كالشلل الدائم.. أو الموت!

***

لم أنتظر لأتأكد من خبر الوفاة الذي أعلنته زوجة عطوة.. ثلاثة أيام لم أفعل خلالها شيئًا سوى المكوث مع

رفعـت؛ لم أذق النـوم ولا الطعـام ولا السَّـكينة.. كذلـك فعـل رفعـت. لم نتوقـع قـدوم يـوم فرحـة؛ اعتقدناهـا خالـدةً كالزمـن، باقيـةً كبقـاء الأرض، روحًـا متمـردةً عـلى قوانين الطبيعـة البشرية الزائلـة.. وفيـمَ كانـت تُشـبه البـشر كي تفنـى مثلهـم؟!

اسـتلقيت عـلى فخـذ جـدي الأيمـن، كان جالسًـا عـلى المصطبـة الأسـمنتية الملتصقـة بالمسـجد، اتفقنـا- دون حديـثٍ- عـلى الاختبـاء مـن البـشر داخـل غرفـة نـوم الشـيخ صالـح البسـيطة المجـاورة للمسـجد، بالطبـع لم يعـترض الأخـير. كنـا ننتظـر حلـول الليـل وخلـود جميـع أهـل طحـا إلى النـوم حتـى نخـرج لاستنشـاق الهـواء الريفـي البـارد المتفاعـل مـع سـكون طريـق المقابـر ورائحـة زهـر البرتقـال المُنبثـة باقـتراب الربيـع ليكوِّنـوا مزيجًـا سـاحرًا مـن النشـوى الكفيلـة بفتـح شـهيتي للحيـاة بملذاتهـا في أي وقـتٍ آخـر؛ في وقـتٍ لم تتبخـر فيـه فرحتـي مـن روحـي.

غـطَّ رفعـت في نـومٍ غـير عميـقٍ انتُـزِع منـه جسـدُه عُنـوة، فخـارت قـواه دون أن يتحـرك مـن جلسـته، لم يعـد فخـذه مُريحًا لـرأسي كـما كان حـين كنـتُ صغـيرًا؛ قبـل أن يخـسر الكثـير مـن وزنـه، لكنـه لم يفقـد نفـس المقـدار مـن صحتـه ولا مـن طـول قامتـه؛ حتـى بقـى مهيبًـا في عينـي. كان- كفرحـة- يفضلنـي وناجـي عـن نسـل عطـوة.. أتذكـر حـين رُزِق شـكري بمولـوده الأول، قلـتُ لرفعـت مازحًـا إن اللـه قـد أطـال في عمـره لـيرى

أبنـاء أحفـاده؛ عـماد الجيـل الجديـد مـن نسـله.. هـزَّ رأسَـه نافيًـا وأخـبرني أن ناجـي لم يتـزوج وأننـي لم أرزق بالمولـود بعـد.. فأيـن ذلـك الجيـل الجديـد الـذي أحدثـه عنـه!

وبرغـم أننـي حُرمـت مـن الإنجـاب، إلا أننـي لم أسـعَ للإتيـان بمـن يحمـل لقبـي الـذي لا أحبـه وصفـاتي التـي أبغـض أن أراهـا في شـخصٍ آخـر غـيري.. حتـى انعدمـت رغبتـي حـين انقشـعت غشـاوتي عـن وهـم حبـي لمـي، فليلعـن اللـه الشـيطان الـذي أوهمنـا بانتظـار حيـاةٍ زوجيـةٍ سـعيدةٍ قوامهـا التفاهـم والاهتـمام والحـب الـذي سـينتج عـن عِـشرة طيبـة ومـودة نسـتكين إليهـا.. لم أعـرف حـين صارحتهـا برغبتـي في الـزواج منهـا أننـي سـألعن الفتـور والـبرود الـذي سنعيشـه لمـدة عـشر سـنين، اقتنعـت أن زواجنـا في سـن الثلاثـين سـيجعلنا أكـثر نضجًـا وتحمـلًا للمسـئولية؛ أقنعـت نفـسي أنهـا مناسـبةٌ لي أكـثر ممـن هـن أصغـر منهـا.. مـرَّ أمامـي تتابـع زمنـي غـير مُرَتـب لذكريـاتي معهـا، ومعانـاتي حـين شـهدت تحالـف ناجـي مـع عطـوة؛ ليصبـح مسـخًا يحمـي شـيطانًا.. أفـكاري غـير مرتبـةٍ وأعتقـد أننـي سأسـتغرق في النـــ..

ـ أنا حلمت بفرحة..

هكـذا اقتحـم رفعـت خواطـري بجملـةٍ جعلتنـي أنتفـضُ مـن مـكاني وأطلـب منـه أن يقـص عـليَّ مـاذا رأى، فقـال لي بـألم ممسـكًا قدمـه:

- أنت طول الليل نايم على رِجلي يا بغل؟

اعتذرت له طالبًا أن يحكي الحلم.. أجاب بغضبٍ مصطنعٍ أنه لا يذكره.. كررت اعتذاري مُقَبِّلًا فخذه، وقلت:

- حقك عليَّا.. بعدين رِجلك نمِّلت عشان أنت أصلًا سُكرة.

علمت أنه يُمازحني لنتناسى فاجعتنا فيما فقدنا.. ردَّ مُتهكمًا أنه لا يعرف من أين ورثت ثقل الظل والمزاح السخيف، أجبته مُبتسمًا:

- أكيد أمي كانت بتتوحم على عطوة.

تحركت شفتاه بضحكةٍ خفيضةٍ متحشرجةٍ، قال بأسى أنه لا يعرف كيف لأرضٍ خصبةٍ كفرحة أن تنجب مثل هذه الزرعة الفاسدة. أخبرني أنه رآها في المنام مُرتدية فستان زفافها، كان يأكل الكبدة كعادته، فنهرته قائلةً إن صحته لم تعد تتحمل أكل الشوارع.. نظر في عيني مقاومًا دمعة كادت تفرُّ من عينيه وأكمل ما رأى: قالت له فرحة إن الدنيا التي نتقاتل عليها مجرد وهم، تبدو كبيرةً طالما تحيا وتسعى بداخلها.. ولكن حين تبدأ روحك تصعد من سماء إلى الأخرى تستوعب الدرس؛ تفهم كم هي صغيرة، جَرم صغير من كونٍ عظيم.. طلبت منه المزيد، فأردف قائلًا:

- قالت إن كل حاجة في الدنيا مهما تبان حلوة بتكون صغيرة قصاد اللي عنده فوق.. مش كل الموت شر يا يحيى.

سألته بنفس اللهفة:

- طب هي مبسوطة؟!

- فوق ما تتخيل.. رجعت شابة بنت الإيه، وقعدت تتريق على هيئتي تقول لي مالك كبرت كده!

لم أسأله المزيد، ظللت في صمتي مُبتسمًا؛ طُفت في ملكوتها متخيلًا رائحة حضنها ومدى دفئه، هائمًا في ملامحها وضحكتها التي لم تتبدل، متذكرًا صمودها أمام موت أبي وظلم عمي وانسحاب جدي وخذلان جسدها الذي خاض حربًا طويلةً مع أكثر من خصم لا يتسم إلا بالخسة والقتل غير الرحيم.

تأملت ملامح رفعت التي لم تشتعل شيبًا كفرحة؛ منذ يومه وهو يحب الحركة والأكل الصحي، كلما أصلي بجانبه أسمعه يدعو الله ساجدًا أن يميته واقفًا على قدميْه وألا يحوجه إلى أحد.. أعتقد أن الله قد استجاب؛ أراه محتفظًا بقدرٍ من حلاوة وجهه على الرغم من تخطيه الثمانين عامًا، لم تنكمش ملامحه ولم تنحنِ قامته بالقدر الكبير كمن هم في سنه.. أتذكر- قبل رحيله من بيت العائلة- أن

فرحة كانت تغارُ عليه من جميع النساء؛ فقد بدت وكأنها تتقدم في العمر أسرع منه بكثيرٍ. قال لي بهدوءٍ إن فرحة أبلغته رسالةً خاصةً من أجلي، سألني عمَّا إذا كنت مُستعدًا لسماعها.. أجبته بدون تردد أن يبلغني الرسالة.. قال:

- بتقول لك لو عايز تشوفها في أحلامك اقتل كابوسك بسكينة باردة، ومتخافش منه؛ الموت لما بييجي في غير معاده بيكون جبان.. فيا تعيش صح يا تاخد الموت في حضنك، ماتقبلش بنص حياة.

قلت له إن هناك رسالةً أخرى من القدر كي أحاربَ كابوسي؛ فقد فتحت الهاتف منذ قليل لأجد رسالةً من أمجد طمأنتني إلى تنفيذ التجربة ونتائجها، أقنعني بالسير معه في نفقه المظلم.. ليس معي إلى نورٍ صغيرٍ؛ إما يساعدني على العبور، وإما ينطفئ لتسود العتمة وألحق بفرحة. لم يجب رفعت، فأعدت مضمون كلامي وانتظرت الرد فلم يأتِ.. فصحتُ فيه قائلًا:

- ما ترد عليَّا!

- عايزني أقول إيه؟

- تفتكر دي رسالة من ربنا؟!

أشار إلى قلبي وقال:

- اسأل فرحة!

ثم تنهَّد تنهيدةً كبيرةً قائلًا:

- فاكر لمَّا قولت لي إن اللي أبوه بيموت ضهره بيتكسر، وإن اللي أمه بتموت قلبه بيتكسر.. زوِّد على كلامك إن اللي حبيبته بتموت روحه بتتكسر.

قلتُ بأسى:

- طب واللي جدته بتموت.

- فرحته بتتكسر.

بكيت بحرارةٍ بعد أن ظننت أن عيني قد عقرت عن الدموع، لا أظن أن ما أفعله الآن بكاء عين؛ فهو بكاء روح خسرت جزءًا عظيمًا منها، روح مُطَالَبة بالتعرُّض للتشويه من خلال تجربةٍ أليمةٍ؛ حتى تستطيع استكمال ما قُدِّر لها من الحياة، لا أعلم سببًا لحرارة الدموع وانقباض القلب؛ أهو حُزني على فراق الراحلين أم خوف من أن ألحق بهم. قال رفعت مبتسمًا:

- نسيت أقول لك.. فرحة قالت حاجة كمان.

- خير يا جدي؟

ردَّ ضاحكًا:

- قالت بطلوا تعددوا عليا زي الولايا.. أنا في مكان أحسن من بلدكوا كلها.

ابتسمت حتى خجلت ابتسامتي من دفء عَبراتي، لم أهتم بالتحقق من صدق كلام رفعت عن رؤياه؛ فقد سمعت كل ما أردت سماعه لأخدر أحزاني، نهضت من مكاني عازمًا على قبول عرض أمجد والخوض داخل تجربته، أخبرت رفعت بقراري.. حيَّاني بقلقٍ.. أخبرته دون أن أنظر إلى عينيْه أن ينتظر عودتي خلال ثلاثة أيام؛ فإن غبتُ أكثر من هذا.. فليترحَّم عليَّ وليد علِّي أن أجتمع بفرحة.

٨

صِرَاعٌ نِهَائِيٌّ

الجمعة 10 فبراير 2006

لم أدرِ كيف وصلتُ إلى عيادة أمجد؛ مرَّ عليَّ اليوم طويلًا غير واضحِ المعالم.. كنت كالمُخدَّر منذ عُدت إلى زوجتي بعد غياب بضعة أيام، احتجتُ إلى راحةٍ- لم أنل منها قسطًا- قبل معركتي اليوم مع الموت؛ الصراع الأخير الذي سأسترد بعده كرامتي أو ستستكين روحي إلى الأبد. عاتبتني مي على غيابي غاضبةً من الحالة اللامبالية التي كنتُ عليها.. أدركَتْ بفطرتها أن ثمة خطأ بي، خاصةً حين صليتُ كل الفروض منذ استيقاظي؛ فلم تعتدني مواظبًا على صلاتي بالشكل المثالي. أكلت؛ علَّها آخر وجبة لي.. ما لبثت أن غسلت يديَّ حتى أفرغت كل ما في جوفي، شكت أن كوابيسي قد تملَّكت مني.. فوعدتها أن كل شيء سينتهي اليوم.

أعـرفُ أن المـوت خَصـمٌ قـوي، وأننـي أعـزل بـلا سـلاح؛ فـلا طاقـة ولا إيمـان ولا رباطـة جـأش.. فـما هـي نقـاط قـوَّتي أمامـه؟.. لا أمتلـك سـوى الحـظ الـذي لم يُنصفنـي طـوال أربعـة عقـود. سـمعت فيـما سـبق عـن أسـطورةٍ لا أتذكـر الكثـير مـن تفاصيلهـا؛ أعتقـد أنهـا كانـت تحـكي عـن طبيـبٍ ذهـب لعـلاج فتـاةٍ جميلـةٍ.. فوجـد المـوت مُتجسِّـدًا عنـد رأسـها تمهيـدًا لقبـض روحهـا، فـأدار الفـراش سريعًـا ليبعـد رأسـها عـن المـوت الـذي تحـرَّك حتـى بلـغ الـرأس ثانيـة.. ظـلَّ الطبيـبُ يُديـر الفـراش والمـوت يُطـارده حتـى مـلَّ الأخـير وتـرك الفتـاة لمُنقِذهـا الـذي أحبهـا. فهـل سـيرضى المـوت معـي بهزيمـةٍ مؤقتـةٍ؟!.. هـل سـيتركني أحيـا الباقـي مـن عمـري في سـلام؟.. أم أن ذلـك الباقـي سـينتهي اليـوم؟..

أخرجنـي أمجـد مـن خواطـري حـين طلـب منـي أن أهـدأ وأن أشرب كـوب الليمـون الـذي أتـاني بـه جُـبران؛ فيجـب أن تمـر فـترةٌ كافيـةٌ مـن مـدة الكشـف وتسـير الأمـور بشـكلٍ طبيعـي أمـام المـرضى المنتظريـن بالخـارج؛ فمعظمهـم مُصـابٌ بالبارانويـا وسيتشـكك في الأمـر إذا لم يتـم حبكـه بالصـورة الصحيحـة.. طلـب منـي أمجـد أن أصـف لـه شـعوري اللحظـي.. أجبتـه أننـي لا أشـعر بنصفـي السـفلي، ولا أسـتطيع تجميـع أفـكاري.. نظـر لسـاعته معلنًـا انتهـاء وقـت الجلسـة المعتـاد، أخـرج زجاجـة صغـيرة وطلـب منـي أن أتنـاول التركيبـة.. تـرددت لدقيقـةٍ قبـل أن أتنـاول منـه الزجاجـة، ألقيتهـا عـلى الأرض صارخًـا أننـي لا

أريد الموت.. حدجني أمجد بغضبٍ طالبًا مني أن أخفض صوتي، اقترب مني وقال بهدوء إنني لن أموت.. نهضت من مكاني قائلًا إنني لن أخوضَ التجربة، وسأذهب لقضاء الأيام الباقية لي بصحبة رفعت في صومعته.. أشار نحو باب الغرفة قائلًا:

- براحتك مش هاقدر أجبرك على حاجة.

كاد أن يقول شيئًا إضافيًّا.. لم أعبأ بكلامه وخرجت مندفعًا من غرفة الكشف كأنني أهرب من الجحيم، وصلت إلى سلم العمارة وبدأت النزول، تعجبت أن أمجد لم يركض ورائي لإقناعي باستكمال التجربة؛ فأنا أعلم أهمية التجربة في مسيرته العلمية...

كيف أتعرَّق بهذه الغزارة في أواخر الشتاء؟!.. ولماذا أجاهد لالتقاط أنفاسي؟.. وحين أتحسس نبضي لا أكاد أشعر به!

الآن أفهم إصرار أمجد على أن أحتسي الليمون، أستوعب عدم معارضته لي في قرار العدول عن التجربة؛ لقد أراد أن تبدو حادثة وفاتي طبيعية تمامًا. أرى جُبران يركض نحو جسدي الذي شُلَّت حركته بصحبة بعض المرضى وخلفهم أمجد.. حاولوا إفاقتي بالطرق التقليدية ولكن أمجد وحده يعلم أنني لن أنهض الآن.. اقترب أمجد وشرع يقيس نبضي، ضغط على صدري مُزَيِّفًا فزعه على صديق عمره ويصيحُ فيَّ

كي أستيقظ.. أذكر أنه أخبرني بوجود تركيبة ثانية يجب أن آخذها على شكل قرص سميك حتى تحدث عملية الإنعاش ويعود نبضي مجددًا.. فأين هي؟!

نظر إليهم أمجد، أخرج هاتفه متصلًا بناجي، بلَّغه آسفًا بخبر وفاتي بصوتٍ عالٍ.. اقترح أحد الواقفين نقلي إلى المستشفى لكي يتم إنعاشي هناك، صاح أمجد فيه مُنهيًا النقاش أو أي نقاش مماثلٍ قائلًا إن أحدًا لن يحرصَ على حياة صديق عمره أكثر منه، ولكنه الآن في عداد الموتى. أقنعني تمثيله لدرجة جعلت هاجسًا يستيقظ بداخلي: أمن الممكن أن يكون أمجد قد اتفق مع ناجي على تلك الخطة؟.. وأن ما تناولته كان مجرد سُمٍّ عادي، وأن قرص الإنعاش الثاني مجرد أكذوبة؟.. لكن هذه الفرضية تعني أنني ميت الآن!

اعتذر أمجد لمرضاه تاركًا جُبران ليحدد معهم ميعادًا آخر بعد ثلاثة أيام، لم أعرف إن كان قد أخبَرَ جُبران أمجد بالخطة أم لا.. لكنني استشففتُ من ردود أفعاله الصادقة أنه تأثر بما حدث لي؛ عكس رب عمله. حملني أمجد بمساعدة بعض الجيران الذين تعاملوا معي كجماد فأنزلوني على السلم دون رفق. تعجَّبتُ من كوني أكون مُتخشبًا لا أستطيع الحركة كالأموات، وبرغم هذا أرى وأسمع وأشعر بكل ما يحدث حولي.. لم أعرف هل قصدت إيفلين أن

تحافظ التركيبة على إدراكي.. أم أنه قد حدث مصادفة.. أم أنني أهلوس متوهمًا بإدراكي لما يحدث.. السؤال الأهم: هل هُزِمت مبكرًا في معركتي مع الموت بخيانة من أمجد وناجي؟!

أجلسني أمجد برفقٍ على الكنبة الخلفية للسيارة، شكر الرجال الذين حملوني تاركين أمجد، ضربوا كفوفهم مُتحسرين على حال الدنيا التي خُطِفتَ منها والموت الذي يأتي بغتةً والكفن الذي بلا جيوب.. لا أعرف إن كان لكفني جيوب فماذا كنت سأضع فيها! ذبح أمجد شكوكي بعد تحرُّكنا بدقائق حين توقَّف، ونزل ليهمسَ في أذني مطمئنًا أن كل شيء يسير على ما يُرام، فتح فمي عَنوة ليُعطيني القرص الضخم متبعًا إياه بنصف زجاجة مياه لم أشعر بها أثناء الابتلاع.

أظن أن حالتي الحالية لم تتكرر كثيرًا مع البشر؛ فكيف أشعر بكل ما يحدث حولي دون القدرة على تحريك أي شيء غير جفني عيني؟!.. لا أعرف ولا توجد لدي الخبرة الطبية لأفسر أي شيء، ولكن ما أظنه أن إيفلين هذه إما عبقرية أو محظوظة.. مع افتراض أن ما يحدث لي حقيقي وأنني لا أزيف هذا الإدراك، أو أهلوس متخيلًا الموقف برمته!

أعتقد أنني قد غفوتُ قليلًا داخل السيارة التي لم تكن نومتها مريحةً، لا أظن أن أمجد يُدرك أنني أشعر بالألم أصلًا؛

لا يريد إلا أن أكون واعيًا أثناء التجربة ليس أكثر.. أفقت من خواطري على توقُّف السيارة وصوت عطوة المختلط بصياح بعض رجال العائلة الذين حاولوا إقناع أمجد بعدم ضرورة مبيت جثماني في المستوصف وأن جميع بيوت العائلة مفتوحة لأجلي حتى الدفن، ولكن ناجي عضَّد موقف أمجد وقال بمنطقٍ سليمٍ إن هذا الحل الأنسب؛ حتى لا يفزع أحد من الطحاوية بعد أن تشاءموا من الموت الذي اجتاح ثلاثة أرواح من نسلهم في وقتٍ قصيرٍ.. واقترح أن يتم الغسل والتكفين الآن على أن تقام صلاة الجنازة والدفن بعد ظهر الغد.

وافق عطوة على مضضٍ دون أن يفهم سبب عجلة ناجي وأمجد.. واتصل بالمُغسِّل للحضور فورًا، أرسل أحد خفره لإحضار الكفن، وأمر آخر بتنظيف غرفة الكشف في المستوصف، وطلب من ثالث المبيت أمام باب المستوصف لحراسة جثتي.

شعورٌ غريبٌ أن تسمع اسمك يُنادى في مكبر صوت المسجد ليُعلِم أهل القرية بوفاتك: "البقاء لله والدوام لله.. توفي إلى رحمة الله تعالى أستاذ يحيى الطحاوي قريب كل من..."!

سمعت خفيرًا من ذوي عطوة يخبر زميله أنني لم أكن معروفًا لدى أهل البلد، وأن من عرفوني لم يُحبوني كثيرًا..

وكأنني كنتُ أتلهف لحجز مكانٍ في قلوبهم الرحبة التي تسع الجميع!.. أجابه الآخر بلا مبالاة أن ما يزعجه الآن أنه لن يشاهد مباراة نهائي كأس إفريقيا بين مصر وساحل العاج.. لا يعلم أنه يحضر الآن مباراة نهائي أكثر قوة وتنافسية؛ أخوضها ضد خَصْم أقوى مني كثيرًا، صراع أخير الهزيمة فيه تعني الفناء بلا أدنى فرصة للثأر.

***

أمر عطوة خفيريْه بحمل يحيى إلى إحدى غرف الكشف داخل المستوصف، والتي تم تنظيفها بعناية، ووضع ملاءة جديدة فوق سرير الكشف بداخلها تمهيدًا لاستقبال جثمانه. أتى المغسل متعجلًا خلفه زوج المساعدَين اللذين أتيا برفقته؛ حمل أكبرهما سنًا خشبة المغسلة ذات الأربعة أرجل، وحمل الأصغر كيسًا بلاستيكيًّا أسود اللون.. قال المُغَسِّل للأول:

- يلا يا سعد، خد محمود وروحوا قلّعوا المرحوم ونحنحوه لحدّ ما أخلص كلمتين مع الحاج عطوة..

فقال الأصغر سنًّا إنه سينتظر بالخارج؛ فلن يقدر على مشاهدة المنظر.. نهره المُغَسِّل الذي اتضح أنه أبوه، أخبره أن هذه مهنة العائلة منذ زمنٍ، ولن يسمح له بأن يوقف هذه السلسلة، سأله مُستنكرًا:

- عُمرك سمعت عن جزار بيخاف من الدم؟!.. عارف إن أول مرة صعبة، بس التانية هتتعود، والتالتة هتتحايل عليَّا أشغّلك معايا.

قال الابن بحدة أقل وتذمر أكثر إن زملاءه في المدرسة يُعايرونه بمهنة أبيه واصفينه: "ابن الحانوتي"، وأنهم يشمئزون من الأكل معه والجلوس إلى جواره.. تألَّم المُغَسِّل للحظة، ابتلع حزنه حفاظًا على منظره أمام الطحاوية وخفرهم، تغلَّب على ألمه بصفعةٍ على وجه ولده وقال بحزمٍ:

- يبقى العيب على المدرسة اللي ماعلّمتش العيال تحترم الناس، مش العيب على أبوك اللي بيأكلك واللي لولاه كانت جتت الخلق عفّنت في الشوارع.

أمره بلهجةٍ أقل حدة أن يلحق بمساعده سعد كي يُعلّمه الشغل.. ثم ذهب ليتفق على مستحقاته مع عطوة، بدأ حديثه بمجاملةٍ قائلًا إن يحيى كان أخًا عزيزًا وأنه لن يتقاضى قرشًا عن غسله، ولكن سرعان ما تطرق إلى تفاصيل عمله ذاكرًا تكاليف كل مرحلةٍ، أخرج عطوة محفظته ولكن ناجي أمسك يده، وقال بلهجةٍ حاسمةٍ إنه سيتكفل بكافة المصاريف.. ردَّ عطوة بحزنٍ مفتعلٍ أن معزته ومعزة يحيى من معزة أبنائه.. هزَّ ناجي رأسه نافيًا، أخبره بنفس الجدية أن كافة مصاريف أخيه سيتم تسديدُها من خير

أبيه الباشمهندس أحمد رحمه الله. لم يتمادَ عطوة في عرضه كثيرًا حتى لا يُقبل به، لم يقل عطوة إنه كان ينوي تدوين كل قرش دفعه؛ كي يُطالب به من ميراث يحيى لاحقًا.. أدرك ناجي أن عطوة ليس جادًّا في "عزومة المراكبية" تلك؛ فسأل المُغَسِّل بلهجةٍ عمليةٍ عن القيمة الإجمالية التي يُريدها.. ردَّ المغسل بابتسامةٍ صفراء أنه يريد نفس التكلفة التي أخذها يوم وفاة حسن مُضافًا عليها خمسون جنيهًا.. أطلق ناجي سُبَّةً وقال له:

- إنت جاي تنصب على الطحاوية؟.. خُد خشبتك واتكل.

ردَّ المُغسل بلهجةٍ مُتوسلةٍ أن الغلاء زاد، وأنه بلغ من الكبر عتيًّا، وحين يمرض لن يجدَ من يصرف على بيته؛ فجميع أولاده هاجروا خارج مصر وصغيره لا يُحب العمل.. لم يبدُ على ناجي التأثر بحديثه.. فأكمل المُغسل أنه قد أتى بكل اللوازم؛ بدايةً من الخشبة حتى زيت الكافور، وأن كل ما يريده قدر من الماء وطسْت واسع أو أي إناء مُشَابه.. تدخَّل عطوة مُعاتبًا:

- فالح بس كل ما تشوفني تقول لي "كل من عليها فان، والكفن مالوش جيوب يا حاج"!

ردَّ المغسل بنفس الابتسامة الثقيلة:

- أنا هابقى أفصَّل لي كفن بجيوب.

قال ناجي للمغسل أن يُنهي الغُسْل سريعًا.. قبل أن يدخل المستوصف أوقفه عطوة مُستدركًا:

- وأنت مروَّح عدي على منصور بتاع الرخام؛ خليه ينحت لنا رخامة نحطها على التربة باسم المرحوم "يحيى أحمد الطحاوي" وبتاريخ إنهاردة.

***

ضبط مساعد المُغسِّل من وضعية جسدي على مغسلته الخشبية، بدأ يخلع عني ملابسي، انتزع خاتم زواجي من يدي دون رفقٍ، وشرح لابن رب عمله ما يفعل، أمره بصوتٍ خفيضٍ أن يفتح الحقيبة ويأتيه بقطعةٍ من القماش تستر عورتي، كما طلب منه إخراج القفازات البلاستيكية التي سيرتدياها أثناء الغُسْل.. أومأ الصغير محمود برأسه موافقًا دون نقاش.. خلع المساعد عني الباقي من ملابسي ساترًا نصفي السفلي بقطعة القماش، أمر الغلام بثني ساقيَّ على فخذي وفردهما ثم شرع بدوره في ثني ذراعي مقربًا الساعد من العضد تارة ومباعدًا تارة أخرى.. وقال:

- كده إحنا بنليِّن الجثة عشان ما تخشبش زيادة، ولو كنا هنتأخر عن كده كان المفروض نحط حاجة تقيلة على بطنه عشان ما تتنفخش.. بس الجدع ده مش متخشب أوي الحمد لله، شكله كان راجل صالح.

أثـارت عبارتـه السـخرية بداخـلي.. سـأله محمـود عـن العَلاقـة بـين تصلُّـب الجسـد وبـين كـوني شـخصًا مسـتقيمًا.. فكَّـر سـعد قليـلًا وقـال وهـو يهـز كتفيـه بلامبـالاة:

- أي حاجـة بتمـشي سـهلة مـن لحظـة المـوت لحـدّ الدفـن تبقـى فـال حلـو عـلى الميـت.

هزَّ محمود رأسه بلا اكتراثٍ فأردف سعد:

- يلا عشان ننحنحه.. ارفع رجليه فوق.

نفّـذ الغـلام الأمـر عـلى مضـضٍ، فـشرع سـعد يرفـع ظهـري أيضًـا ضاغطًـا عـلى معـدتي.. أحسسـتُ بتـسرُّب يخـرج مـن أحشـائي عـلى الخشـبة، شـعرت باشـمئزازٍ كبـيرٍ مـن نفـسي وكذلـك فعـل محمـود، أمـره سـعد بتكـرار العمليـة حتـى شـعر أنـه قـد نظفنـي مـن الداخـل جيـدًا، ثـم نظّـف مـا خـرج منـي دون أن يكشـف سـترتي. وصـل المغسـل مـع عطـوة الـذي وقـف بعيـدًا وتبعـه خفـيران حاملان دلويـن مـن الميـاه، أمـر المُغَسِّـل مسـاعده بإغـلاق عينـيَّ، ربـط قطعـة مـن القـماش مـن فـكي إلى قمـة رأسي حتـى لا ينفتـح فمـي، شـعرتُ بفـزعٍ لم أمـرَّ بمثلـه مـا حييـت، كان الكابـوس يتحقـق بصـورةٍ أبشـع بكثـيرٍ مـما كان يصوِّرهـا لي عقـلي؛ كل هـذه العيـون تـراك عاريًـا عاجـزًا، كل هـذه الأفـواه تتحـسر عـلى حياتـك، كل هـذه الأيـدي تعبـث بجسـدك محاولـةً تنظيفـه.

أمـر المغسِـل ابنـه بإلقـاء الخرقـة التـي مسـح بهـا أسـفل عَجُـزي بعيـدًا، سـأله محمـود في حـيرةٍ وبصـوتٍ خفيـض حتـى لا يسـمع عطـوة الـذي شـعرت أنـه يقـف بعيـدًا ويخـاف الاقـتراب والنظـر:

- ليـه يابـا جبـت العمـدة عطـوة يحـضر الغُسـل مـع إن أسـتاذ ناجـي أقـرب للمرحـوم؟

قـال المُغسـل هامسًـا إن أهـل العلـم اسـتحبوا أن يحـضر أكـثر أقربـاء الميـت ارتكابًـا للمعـاصي البيِّنـة؛ حتـى يتعـظ قبـل أن يحـين أجلـه.. هـزَّ الولـد رأسـه في فهـمٍ.. أمـر المُغسِّـل مسـاعده أن يفـرك الصابـون في طبـق الميـاه حتـى تظهـر الرغاوي عـلى سـطحها، شرح لولـده قائـلًا أنهـم الآن يقومـون بـ"غُسْـل النظافـة"؛ يبـدأ بغسـل الـرأس جيـدًا مـع الحـرص عـلى عـدم فتـح فـم الميـت أو عينيـه وتجنُّـب تسـاقط الشَّـعر، يتـم بعـده غسـل الجـزء الأيمـن مـن الجسـد مـن أعـلى إلى أسـفل باسـتخدام اللوفـة أو أي قماشـة خشـنة، وتكـرار نفـس العمليـة عـلى الجانـب الأيـسر.. مـع الحـرص التـام عـلى غـض البـصر عـن عـورة الميـت.

بـدأ في تنفيـذ مـا شرحـه لولـده عـليَّ، كانـت يـده قاسـيةً ولوفتـه خشـنةً.. أعتقـد أننـي لم أكـن عـلى هـذه الحالـة مـن الطهـارة في أي يـومٍ مـن حيـاتي، قـال لمحمـود آمـرًا:

- حط دراعه اليمين على صدره، ورجله اليمين فوق الشمال؛ عشان نقلبه على جنبه الشمال وننضف ضهره.

كانت يد محمود ترتجفُ كلما لمسني، ولكنه كان خائفًا من بطش الأب، ففعل ما أُمر به. اجتاح الماء- الذي بدأ يفقد دفئه- جانبي الخلفي، كرَّر محمود الفعلة حين قلبني على جانبي الأيمن لإتمام ما فعله بمساعدة أبيه.. أمر المُغَسِّل سعد بتجهيز قِطَع القطن، شرح لمحمود أن غسل النظافة قد انتهى وسيبدأ الغسل الشرعي؛ مسح فمي بقطنة مبتلة ثلاث مرات مكررًا نفس الفعلة مع أنفي باستخدام قطنة أخرى، ثم أكمل وضوئي بشكل طبيعي.. وبعد أن انتهى أمر مساعده بخلط زيت الكافور بالماء ليُعَمِّم به بدني كله من الأمام والخلف.. طلب من ولده تجفيف الخشبة من تحتي ومن مساعده تجفيفي بمنشفة بيضاء أحضرها عطوة من منزله.. أمسك محمود رأسي بيده المترددة وبدأ في تجفيفها بحرص، قاومت رغبةً عارمةً في أن أفتح عيني لأرى ما يحدث حولي؛ خاصةً أنها العضو الوحيد الذي أستطيع التحكم به.. صرخ الولد بفزعٍ شديدٍ تاركًا رأسي، وهو ينظر إلى عينيَّ وقال لأبيه:

- الميت صحي!

نظر له والده بغضبٍ، نهره بصوتٍ منخفضٍ، أمره أن يحترم حُرمة الميت.. تحرَّك المُساعد سريعًا ليغلق عينيَّ بسبابته وإبهامه، وقال لمحمود بهدوءٍ:

- دي بواقي عصب عنده لسه ماماتتش.. ممكن عينه تفتح أو صباعه يترعش؛ حلاوة الروح يا محمود.

حفظت أشكالهم برغم أن لمحتي كانت سريعةً كالومضة؛ لم أرَ عطوة لحسن حظ كلينا.. كان سعد بدينًا أبيض البشرة عكس رب عمله- الذي لم أعرف اسمه- وولده محمود؛ كانا يتميزان بضآلة الجسد وسمر البشرة، كما كان المغسل يتميز بحَولٍ ملحوظٍ في عينه. أحضر سعد قطعةً كبيرةً من القطن، وقال لمحمود شارحًا:

- دي قطنة مبلولة زيت كافور.. ممكن تتبل بريحة عادية بس الكافور بيبعد الدود عن الجثة لفترة كبيرة؛ بنمشيها الأول على مواضع السجود السبعة؛ الراس والكفين والركبتين والرجلين.. بعد كده في المغابن.

قال محمود مُستفهمًا عن معنى المغابن.. أجاب والده أن المغابن تعني المواضع المخفية من الجسد؛ كالإبطين والرقبة وما خلف الركبة، شرح له أن قطعة القُطن يجب أن تغطي العورة كاملة؛ من الدُّبُر إلى القبل.

تعجَّبتُ من ثقافة هذا المغسل الذي كان يعرف ما يفعل حقًّا، لا شك أنه أزهري أو تعلَّم مهنته على يد أحدهم أو تفقَّه في عمله على يد آخر.. تأكد من تجفيفي تمامًا ومن جفاف الخشبة أسفل مني واضعًا القطن فوق عينيَّ وفي فمي وأذني ومنخاري حتى أصبحت أتنفس بصعوبةٍ شديدةٍ.. بدأ في وضع أول ثوب من الكفن أسفل مني برفقٍ وطبَّقه على جسدي حتى أصبحت ملفوفًا بداخله، وكرر العملية حتى أحاطني بثلاثة أثواب واضعًا بين كل ثوبٍ والآخر بعضًا من الكافور.. سأتجمد من البرد إن بِتُّ ليلتي هنا؛ فلا يزال الشتاء يحتضر.. أصبح التنفس أكثر صعوبة، يكاد يكون منعدمًا، لقد غفلنا هذا الجزء من الخطة تمامًا!

ربطني المساعد بثلاثة خيوط؛ الأول فوق رأسي والثاني عند وسطي والثالث أسفل قدمي.. سأفقد الوعي بعد ثوانٍ إن استمر الوضع هكذا!.. حملني ثلاثتهم بحرصٍ حتى وضعوني على سرير الكشف بالمستوصف المهجور، سمعت صوت حملهم للخشبة وصوت إغلاق بوابة المستوص...

أفقت بعد فترةٍ لأجد ناجي أمامي يخبطني على وجنتي بشدة كي أستفيق، فتحت عيني لأدرك أنني أسمعه يهمس قائلًا إنه أخبر الخفر برغبته في توديعي؛ حتى يفتح الباب الخلفي للمستوصف كي يدخل أمجد منه، وأثناء خروجه

تذكَّر صعوبة تنفسي لوجود القُطن وطبقات الكفن الثلاثة.. أردف قائلًا بحيرةٍ واضحةٍ:

- أنا خُفت تقطع النفس.. بس مش فاهم بتتنفس إزاي من غير مايبان لك نبض، وما أعرفش التركيبة دي عاملة معاك إيه.. بس لما فتَّحت عينيك بعد ما ضربتك فهمت إن الخطة تقريبًا ماشية كويس.. أنا هاربط الكفن بس هاخلّي أول طبقتين واصلين لحد رقبتك بس عشان النفس، وهاسيب تالت طبقة بس هي اللي مغطية راسك كلها.. وربنا يستر.

***

اتصل دكتور أنس بأخيه كريم الذي أجابه من داخل سيارته المركونة أسفل منزل أمجد.. قال كريم بقلقٍ إن أمجد نزل منذ أربع ساعات مع جيرانه حاملين ما بدا له شخصًا ميتًا، وأنه تتبعه حتى وصلا إلى بلد ريفية تُدعى (طحا-الطريق)، راقبه من بعيدٍ ورآه يُقابل مجموعة من الناس الذين استلموا منه الجثة، انتظر كريم داخل سيارته نصف ساعة حتى انتهى أمجد من الوقوف والحديث مع من بدوا كأنهم أقارب الميت، سار خلفه بسيارته حتى عاد إلى بيته ثانيةً.

قال أنس بلهجة لم تخلُ من الحيرة إن أمجد يلعب لعبةً كبيرةً، وأنه يجب أن يعرف ما يحدث؛ فلن يكتفي بالمال مقابلًا للجهد المبذول في إيجاد جثةٍ مطابقةٍ للمواصفات التي حددها أمجد، طلب من كريم الاستمرار في المراقبة دون أن يدع أمجد يغيب عن عينه.. قال كريم مطمئنًا:

- أنا مستنيه ينزل تاني، هو قال هايقابل الرجالة ياخد منهم الجثة إمتى؟

أتاه صوت أنس مؤكدًا أنهم اتفقوا على أن يتم اللقاء بعد ساعة؛ أي أنه يجب أن يتحرك الآن حتى يصل إلى مكان التسليم القريب من استراحة On the run على الطريق الصحراوي المؤدي إلى الإسكندرية..

قاطعه كريم قائلًا إنه لمح شخصًا يُغادر العقار مُتحركًا بمحاذاة سيارة أمجد، استدرك سريعًا نافيًا كونه أمجد.. بعد دقائق ظهر أمجد خارجًا من بوابة العقار محييًا حارسه، وتحرَّك بسيارته مُتجهًا إلى الطريق الصحراوي حيث مكان اللقاء، تبعه كريم على مسافةٍ مناسبةٍ كي لا يعرف أن هناك من يُراقبه.. لاحظ تهور أمجد في القيادة فاعتقد لوهلةٍ أنه قد كشفه ويُحاول الفرار من مراقبته، ولكن أمجد لم يغير طريقه وإن زاد تهوره.. تساءل كريم في نفسه عن السبب الذي جعل أمجد في هذه الحالة من التوتر؛ فسَّرها بخوفه

مـن مقابلـة رجـال أخيـه أنـس وتسـلُّم الجثـة.. خاصـة أنـه طبيـب نفـسي ولم يتعامـل مـع الأمـوات منـذ انتهـاء دراسـته.

ظهـرت فجـأةً أمـام أمجـد سـيارة نقـل ضخمـة عـلى الطريـق السريـع.. حـاول أن يتفاداهـا فحاد عـن الطريق واصطـدم بكثب رمـلي انقلبـت السـيارة عـلى أثـره.. تجمَّـد كريـم في مكانـه ولم يـدرِ مـا العمـل، توقفـت بعـض السـيارات التـي تحـرَّك أصحابهـا مُسرعـين للاطمئنـان عـلى سـلامة أمجـد وإخراجـه مـن السـيارة المقلوبـة. بعـد دقائـق اتصـل أنـس بأخيـه متسـائلًا بقلـقٍ عـن سـبب تخلُّـف أمجـد عـن موعـده مـع الرجـال.. أجابـه كريـم باقتضـابٍ:

- بلَّـغ الرجالـة إن العمليـة اتلغـت؛ أمجـد عمـل حادثـة ومـات.

٩

المَوْءُود

السبت 11 فبراير 2006

عرفتُ فيما بعد أن ناجي ظل واقفًا بلا حيلةٍ خارج المستوصف قبيل صلاة الظهر، لم يترك هاتفه من يده؛ كان يُحاول الاتصال بأمجد الذي لم يظهر صباح الجنازة مما أصابه بالقلق على نجاح الخطة.. نظر له فرحات متعجبًا، طلب منه أن يتماسك ويتسلح بالصبر على فاجعة فقداني، سأله برفقٍ أن يدخل المستوصف مع رجال العائلة؛ حتى يتحركوا بالجثمان وصولًا إلى الجامع لصلاة الجنازة على روحي.. أشار إليه ناجي بكف يده علامة على أنه سينتظرهم في الخارج، أشعل آخر سيجارة كانت معه، طلب من أحد خفراء عطوة القريبين منه أن يذهب ليشتري علبتين سجائر؛ واحدة له والأخرى توزع على رجال العائلة كما جرت العادة في هذه المواقف.. أخرج هاتفه ثانيةً وأعاد الاتصال بأمجد.

في نفس الوقت استرددتُ وعيي فزعًا على صوت الجلبة التي أحدثها اقتحامُ عطوة مع رجال العائلة للمستوصف مُرددين الشهادتين، لم تكن ليلتي يسيرةً؛ فقد راودتني الكثير من الخواطر عن تفاهة الحياة ومشاكلها، تعجَّبت من عدم إدراكي أن الموت قريب لهذه الدرجة، وكأنه يحدث للآخرين فقط، استرجعت لمحاتٍ كثيرةً من حياتي: ذكرياتي مع أبي وأمي اللذيْن لم تشبعني الحياة منهما، عناقي المطمئن لناجي يوم الحادثة لأخفي الحقيقة عنه، وألبوم صور فرحة بمن فيه، وعراكي الأخير مع نرجس، وسلسلة من الأحضان التي أودعتني إياها فرحة؛ منحتني دفئًا جسديًّا دون أن تدثر روحي، قسوة عطوة وسلبية فرحات التي سلبتني ثقتي في عائلتي، والنوم على فخذ رفعت مُستمعًا إلى قصصه التي لا تنتهي.. دون أن أجرؤ على معاتبته بعد ما فعل بنا، ترددت في أذني الكثير من جُمَلِه المحفورة في ذهني..

"حياتك بين كفتين؛ البصر والبصيرة.. لحظة الموت كفة البصيرة بتطُب، غشاوة البصر بتنجلي، بتتمنى لو كل الناس تيجي تشوف الحياة بعنيك؛ لحظة الموت قادرة تليِّن قلب فرعون وتعلِّمه الدرس متأخر، قادرة تحوِّلك من مِلة للتانية ومن تفكير للتاني، لحظة الموت فاس إبراهيمي قاسي بيهد كل أصنام حياتك، لحظة تجلِّي مهما حاولت تحيد عنها هاتفضل هي الحقيقة الوحيدة الثابتة.. البني آدم الصح هو اللي بيدركها قبل ما يتخلّد في عذاب غفلتها".

أفقت من خواطر نومي المضطرب على صوت أذان الفجر، لم أحب يومًا صوت إمام جامع القرية الذي يضع مكبر الصوت كله داخل فمه مُستعرضًا تشنجات أحباله الصوتية.. ولكن اليوم- لدهشتي- بدا صوتُه بديعًا، تعجبت من تأخُّر أمجد الذي خرج عن الخطة المتفق عليها ولم يأتِ حتى الآن لتبديل الجثتين تمهيدًا لإنعاشي، تيقنت أنه لن يأتي حين اقترب الظهر وبدأ كلام مَنْ حولي عن تفاصيل التحرك إلى المقابر.. هل سيتركني أتحلل حيًّا تحت الأرض؟! ولماذا لم يتدخل ناجي لإنقاذي من مصيري الذي أسير نحوه بلا أدنى مقاومة؟ على مدار الليلة ألفتُ شعور الوهن وضعف التنفس اللذيْن حلَّا بي منذ بدأ مفعول التركيبة في الظهور، كما اعتدت ظلام الغرفة وخنقة الكفن، الأمر الذي لم يمنع خوفي القديم من الحشرات التي توهَّمت بوجودها حولي تُداهم جسدي المشلول وتنخر في ثناياي.. تمنيت أن يسمح لي عجزي الجسدي- الذي منحتني إياه التجربة- بتغيير موضع نومي ولكنه أبى.. بقى سؤال واحد يراودني ويلهيني عن بشاعة التجربة: "كيف أدرك وأشعر بجميع المؤثرات الحسية على الرغم من عجزي التام عن الحركة؟!"، ظللت أرمش بعينيَّ للشعور بالحياة؛ كانت عيني العضو الوحيد الظاهري مني والذي لم يطله تأثير التركيبة.. هل سيأتي أمجد، أم سيكون كشخصية "جودو" في مسرحية صمويل بيكيت الذي طال انتظاره دون جدوى؟!

"مين اللي فك توب الكفن الجواني من على وش يحيى؟!"

هكذا قال فرحات حين وضع كفَّ يده على وجهي ليقرأ عليه الفاتحة؛ فشعر بعظام وجهي قريبةً لا يفصلها عن يده إلا ثوبٌ واحدٌ.. أجابه عطوة دون اكتراثٍ:

- تلاقيه الواد ابن الحانوتي نسي يغطي وشه من جوه؛ أصله كان متلَّبش إمبارح.

ولحسن الحظ.. رفع فرحات ثوبي الكفن الداخليين دون أن يكشف الخارجي؛ حتى لا يعيد دفس القطن في فتحات وجهي.. أين أمجد وناجي الآن؟ فلينقذني أحدهما أو كلاهما قبل أن يحدث ما أخشى التفكير فيه!

شعرت بأيادٍ غليظةٍ تحملني من الفراش الطبي حتى الصندوق الخشبي، ما لبثتُ أن خرجت للنور حتى سمعت صراخ الحريم الذي كان يُخيفني كثيرًا.. إلا أنه هذه المرة أثار سخريتي وتهكمي؛ فلا واحدة من هؤلاء تعرفني من الأساس باستثناء مي التي لم تحبني كثيرًا، ونرجس التي لم أسمع نحيبها فخمنت أن عطوة لم يُعطها إفراجًا استثنائيًّا كما كنتُ أتمنى.. أنبأني ظهورُ الظل وصوت الأذان المرتفع بوجودي داخل المسجد، شعرت بألمٍ جم في فقرات ظهري التي لم تحتمل الاستلقاء على خشب النعش، عرفت أنها النهاية وأن أحدًا لن ينقذني سوى حظي والدعاء؛ لكمني

المـوت في أول جولـةٍ فأسـقطني دون حـراكٍ.. ليبـدأ الحَكـم في العَـد التنـازلي لإعـلان هزيمتـي.

أقيمـت الصـلاة.. بـدأت أحـرك لسـاني بأذكارهـا، وأرمـش متخيـلًا حركاتها كأننـي أقـف بينهـم، الآن فقـط أسـتوعب عبارة "صلـوا صـلاة مـودِّع"، أحسسـت بدمعـةٍ صغـيرةٍ تفلـت منـي.. تخيَّلـت أننـي سأشـعرُ بالفخـر حـين يتقطَّـع الأقربـون حزنًـا عـلى فراقـي نادمـين عـلى كل مـا اقترفـوه بحقـي.. ولكـن شـيئًا مـن هـذا لم يحـدث، وتحـوَّل فخـري المتوقّـع إلى كومـةٍ كبـيرةٍ مـن خيبـة الأمـل؛ يحيـى ابـن مريـم مجـرد رقـمٍ جديـدٍ.. عـاش فتـألم فـمات، لينضـم إلى أمـمٍ ظنَّـت أنهـا باقيـة ببقـاء الزمـن، الآن سـأرقد مثلهـم تحـت تـراب عـالم كبـير لـن يؤثـر فيـه رحيـلي! أخـبرني جـدي أن يومًـا مـا سينشـغل الأقربـون عنـي، وسـيتجنب الأصدقـاء مجلـسي، ويضجـر الأحبـاء مـن وجـودي.

بعـد انقضـاء صـلاة الظهـر حمـل المُصلـون النعـش؛ ليصبـح في مقدمـة الجامـع أمـام محـراب الإمـام الـذي شرع يـشرح قواعـد صـلاة الجنـازة التـي يتعلَّمهـا الحضـور كل مـرة كأنهـا الأولى!.. صرخـة مدويـة تنطلـق مـن داخـلي: أنـا مـا زلـت حيًّـا.. لا أُرزَق ولكننـي حـيٌّ!

حاولـت إثـارة أي حركـة أو صـوت علَّهـم يتراجعـون عـن إكرامـي كميـتٍ وجـب دفنـه، لم يطاوعنـي أي مـن أعضـائي سـوى جفـوني التـي بـدأتْ تشـعر بالإرهـاق.. تمكَّنـتُ بعـد عـدة

محـاولاتٍ مـن تحريـك خنـصري الأيمـن، صحيـح أنهـا حركـةٌ قصـيرةُ المـدى والمُـدة ولكنهـا قشـةٌ يُمكـن أن أتعلـق بهـا.. حاولـت تكـرار الحركـة لأطـرق عـلى خشـب النعـش فغرقـت مُجـددًا في العَجْـز.. فلتوقفـوا مراسـم تشـييعي ولتتوقفـوا عـن تبـادل حمـل النعـش بينكـم، شـعرت ببـطء الجنـازة فتيقنـت مـن أنهـم سـيقضون ليلتهـم يتحدثـون عـن نعـشي الـذي لم يسـتطع "الطـيران" كدليـلٍ عـن عصيـاني وفسـادي في الأرض.. سـمعتُ همسـهم مـن حـولي؛ فمنهـم مـن يتلـو الفاتحـة ومنهـم مـن يُـردد الشـهادتين، ومنهـم مـن يطلـب حمـل النعـش قائـلًا لمـن يريـد أن يحـل مكانـه "آجِـرْني": أي اتركـه لي ودعني أتقاسـم أجـر التشـييع معـك. هبـط النعـش عـلى الأرض؛ علمـت أن النهايـة قـد حانـت، سـمعتُ سـلامة اللحـاد يُـردد قائـلًا لـرزق المعتـوه بلهجـةٍ عمليـةٍ:

- يـلا يـا رزق شـيل معايـا.. هـو فـين أسـتاذ ناجـي يدخـل معانـا؟!

سـمعتهم يتسـاءلون عـن ناجـي الـذي اختفـى وسـط الزحام، قـال فرحـات مُستسـلمًا إنـه سـينزل معهـما.. حملنـي ثلاثتهـم، أدخلـوني برفـقٍ داخـل غرفـة اللحـد المُقَامـة تحـت الأرض.. ردد سـلامة بصـوتٍ تزلـزل لـه كيـاني: "بسـم اللـه وباللـه وعـلى ملـة رسـول اللـه.. بسـم اللـه وباللـه وعـلى ملـة رسـول اللـه".

تجلى صوتُ الشيخ عزازي من فوق الأرض، ساعدتني خطبته المعتادة على المرور بهذا الموقف. عدل سلامة التربي من وضع جثماني بحيث أستلقي على جانبي الأيمن ويكون وجهي باتجاه القِبلة.. بدأ رزق في صُنع وسادةٍ ترابيةٍ أسفل وجنتي اليمنى المحجوبة بالكفن، وأهالا التراب على جانبيَّ لئلا أتزحزح عن موضعي، حتى امتلأ أنفي بالغبار وشعرت بألمٍ في عيني.. شرعا في فك أربطة الكفن تاركين فرحات عندَ قدميّ يُردد ما تيسَّر له من الآيات القرآنية، بدأ رزق يضبط من وضع جسدي للمرة الأخيرة؛ فحرّك ذراعي الأيمن قليلًا لكي لا يتحمل ثقل جسمي كاملًا، وأمسك يمناي أثناء محاولةٍ أخيرةٍ مني نابعة من إرادتي ورغبتي بالبقاء، فحركت أصابعي ليشعر رزق بنجاح محاولتي وصاح قائلًا: "الله".. نَهَرَه سلامة آمرًا باحترام "حُرمة الدفن".. قال رزق مُعترضًا:

- يا عم سلامة...

ثم صمت بإشارةٍ حازمةٍ من سلامة الذي قضى على آخر آمالي في البقاء.. خرج ثلاثتهم من غرفة اللحد الكبيرة نسبيًّا كسائر مدافن العائلة مقارنة بباقي القرية، وكما كان يفعلُ في كابوسي الوحيد: خرج سلامة مُتأخرًا عنهما بعد أن همس في أذني قائلًا:

- افتكر يا يحيى: الله ربك.. الإسلام دينك.. محمد رسولك.

بـدأ في إغـلاق بـاب اللحـد ليظلـم العـالم مـن حـولي تمامًـا.. انتظـرتُ ظهـور الومضـة التـي أراهـا في منامـي فلـم تـأتِ.. سـمعت صـوت سـلامة يقـول لـرزق:

- سِـدّ معايـا التربـة.. وإوعـى تقـول الـلي قولتـه لمـا كُنـا بنعجـن الأسـمنت في دفنـة السـت فرحـة.. الطحاويـة عمَّالـين ينقصـوا يـا غـراب البِـين!

ردّ رزق بلهجتـه المُبهمـة وبصـوتٍ خفيـضٍ لم يسـمعه سـلامة لحسـن حظه:

- هاسِـيب شـوية أسـمنت كـمان عشـان تُـرَب الطحاويـة هاتتفتـح تـاني قريـب.

أوصـد اللحـد ورحـل الجميـع آخذيـن معهـم آخـر أمـلٍ لي في الخـروج، وسـاد السـكون معلنًـا احتضـاري بالإيقـاع البطـيء، تدفـق في عقـلي نهـرُ الأسـئلة التـي لا أعلـم لهـا جوابًـا: أيـن أمجـد الآن؟.. هـل سـأموت جوعًـا أم مـن قلـة الهـواء تحـت الأرض؟.. هـل سـتتزوج مـي مـن بعـدي؟.. كـم سـيصمد جسـمي أمـام غيـاب الأكل والمـاء؟.. ومـاذا سـيفعل ناجـي وعطـوة في غيـابي؟.. هـل سيحسـم الفـزع المعركـة مبكـرًا لينهـي حيـاتي؟.. مـاذا تركـت خلفـي مـن تـراث؟.. متـى سـيبدأ الـدود في التهـام وجبتـه العاجـزة عـن طلـب العـوْن؟.. هـل سـتنجح تركيبـة إيفلـين الثانيـة في إنعـاشي كـما نجحـت الأولى في وأدي؟.. أم سـتؤدي إلى حتفـي؟.. هـل سـتُنشر روايتـي تخليـدًا لذكـراي؟..

هـل سيسـتجيب سـلامة الـتُّرَبي لاسـتغاثتي إذا دبَّـت الحيـاة في جسـدي مـرةً أخـرى أم سـيخاف أن تكـون هـذه روحـي الغاضبـة؟.. هـل كان كابـوسي يسـتحق كل هـذا العنـاء للتخلـص منـه؟.. والأهـم: أيـن أمجـد؟!

مـع الوقـت اعتـدت الظـلام والـبرد وحركـة الحـشرات حـولي، ألفـتُ رائحـة الـتراب الـذي كان يُحيطنـي متسـاقطًا عـلى كفنـي مـن سـقف اللحـد بـين الحـين والآخـر حتـى مـلأ أنفـي، شـعرت بوجـود عظمـة آدميـة صغـيرة أسـفل أذني؛ يبـدو أن سـلامة لم يرهـا مـن الـتراب، جاهـدت وسـاوسي بوجـود ثعابـين وعقـارب تتحـرك مـن حـولي؛ لم أعلـم إن كان وجودهـا حقًّـا أم هاجسًـا أتوهمه..حاولـتُ إلهـاء نفـسي بعـدِّ حبَّـات الحـصى أسـفل خـدي الأيمـن. لم آلـف الوضـع بقـدر مـا حاولـت عقـد هدنـة معـه، كانـت الرائحـةُ بشـعةً، لا أريـد إلا موتًـا سريعًـا بلا معاناةٍ مُفزعةٍ ولا سـكرات مؤلمـةٍ.. أريـد أن يسـمع الجميـع الصرخـة المدويـة بداخـلي طالبـةً النجـاة، سـأوافق عـلى الحيـاة مريضًـا بهاجـس المـوت فقـيرًا عاجـزًا إن تطلـب الأمـر.. أخرجـوني وسـأعيشُ هائمًـا مثـل رزق؛ ذلـك المعتـوه الـذي لا يعلـم شـيئًا عـن النعمـة التـي يعيـش فيهـا.. أريـد نصـف حيـاة!

بـدأت أشـعرُ بخفـة جسـمي وروحـي معًـا، وتحـررت مـن ضيـق نَفـس الكفـن وبـرودة اللحـد وظـلام القـبر.. ظهـرت الومضـة التـي طالمـا داعبتنـي أثنـاء نومـي وهوَّنـت عـليَّ

كابـوسي الأزلي الـذي لم يتوقـف عـن إفزاعـي وتكديـر حيـاتي، يبـدو أن عـلاج أمجـد قـد نجـح وتحـررتُ مـن كابـوسي.. ولكنـه سـلَّمني لكابـوسٍ آخـر؛ أشـد إيلامًـا وأكـثر واقعيـة!

بـدأ بصيـصُ النـور يتسـع حتـى تبـدد الظـلام تمامًـا وأصبحتُ قـادرًا عـلى الحركـة، صـار جسـمي أصغـر حجـمًا.. كنـتُ أقـف عـلى شـاطئ خـالٍ مـن البـشر مياهُـه هادئـةٌ شـديدة الصفـاء تعكـس لـون السـماء الصافيـة، أعكـف عـلى بنـاء قلعـةٍ مصغـرةٍ عـلى رمـال الشـاطئ شـديدة البيـاض، كذلـك كانـت إضـاءة الشـمس شـديدة البيـاض كأننـا نقبـع في الجليـد، سـمعت صوتًـا مألوفًـا تـردد صـداه باسـمي.. اسـتدرت لأجـد أبي؛ بـدا أصغـر سـنًّا ومشـابهًا للحالـة التـي كان عليهـا في صـورة زفافـه عـلى أمـي: أكـثر نحـولًا ويحتـل وجهَـه شـاربٌ كثيـفٌ واكتسـب وجهـه قـشرةً سـمراء مـن أشـعة الشـمس.. لم تمنـع انبعـاث النـور مـن وجهـه، توجَّهـت نحـوه سريعًـا مُحتضنًـا نصفـه السـفلي فنـزل عـلى ركبتيـه ليُعانقنـي عناقًـا تمنيـت ألا ينتهـي.. حملنـي عـلى ظهـره ونظـر إلى نمـوذج القلعـة الـذي بنيتـه، أشـاد بمـا صنعـت يـداي وأخـبرني بأننـي أحتـاجُ بنـاء عمـود إضـافي تحـت سـقف القلعـة حتـى لا تنهـار؛ وضـع بعـض الحـصى الصغـير فـوق القلعـة وداخلهـا كأنهـم الجنـود المفـترض وجودهـم فيهـا.. شرح لي أهميـة حسـاب مقـدار الحمـل الحـي المتمثـل في الأشـخاص، والحمـل الميـت المتمثـل في وزن المنشـأ نفسـه لعمـل الدعامـات المناسـبة حتـى لا يسـبب وزنهـم انهيـارًا أو هبوطًـا مقوّسًـا

للسـقف. تنبـأ لي بأننـي سـأصبح مهندسًـا أكـثر نجاحًـا وبراعـةً منـه، فَرِحـت بهـذه الإشـادة وطلبـت منـه أن ننـزل الميـاه مـرةً أخـرى، ظهـرت أمـي من العـدم حاملـةً منشـفةً لتُخبرني بوجوب ارتـداء ملابـسي اسـتعدادًا للعـودة إلى المنـزل.. كان بطنُهـا مُنتفخًا علامـةً عـلى اقـتراب نـزول حملهـا، اسـتدرت لأسـتعطف أبي كي يتركنـا عـلى الشـاطئ قليـلًا، ولكنـه اختفـى وبـدأت أمـي في الـصراخ مُمسـكة بطنهـا.. ركضـت نحوهـا لأحتضنهـا وظللـت متشـبثًا بهـا ليسـتمر صراخُهـا دون أن تُحـاول إبعـادي عنهـا.. شـعرتُ بسـائل الرحـم يتـسرب منهـا، أدركـت بفطـرتي أن هـذه علامـة عـلى اقـتراب الـولادة.. حاولـت أن أمنعهـا مـن السـقوط عـلى الأرض ولكـن جسـمي ذا الخمسـة أعـوام لم يسـعفني فهويـت معهـا.. نظـرت أثنـاء سـقوطي نحـو موضـع بنـاء قلعتـي الصغـيرة فلاحظـت تغـيُّر معـالم هيكلهـا؛ لا أعلـم تحديـدًا متـى تحوَّلـت مـن قلعـةٍ إلى شـاهد قـبر؟!

لم أتوقـف عـن البـكاء حتـى احتضنتنـي فرحـة وضمتنـي بـين ضلوعهـا الهشـة.. كان وجههـا مشرقًـا وفي كامـل صحتهـا، قالـت بضحكـةٍ مجلجلـةٍ:

- يـا عبيـط مـا حـدّش بيتعلـم سـواقة العَجَـل صـحّ غـير لمّـا يقـع.

ثم صاحت في نرجس آمرةً:

- روحي الدوَّار هاتي قطن وشاش عشان ابن خالِك.

تأملت المكان حولي؛ كنا في حديقة الفاكهة المنعزلة على أطراف أراضينا، أظن أن هذه الأرض قد بارت فيما بعدُ وبنى أبي المستوصف مكانها.. عُدت إلى حضن جدتي ثانيةً واستكملت سيمفونية بكائي.. لم تفهم أن بكائي لم يكن بسبب آلامي الجسدية؛ كان الوجع ألمًا لكرامتي كمراهق لا يستطيع قيادة دراجة كباقي أقرانه، في حين أن أخاه ابن العشرة أعوام يقود دراجته بمهارةٍ شديدةٍ دون سقطةٍ واحدةٍ!

جذبني رفعت من أحضان فرحة منظفًا ملابسي بيدٍ قويةٍ آلمت جسدي، قال لي مُبتسمًا:

- تيجي معايا أوريك حاجة أحسن من العَجَل وشغل العيال ده؟.. ولا هتقعد تعيط زي الولايا!

وضع يده على كتفي وسِرنا وسط الأراضي الزراعية، شرح لي تقسيمة الأرض ومجرى المياه فيها وأنواع المحاصيل وأوقات زراعتها.. هززت رأسي دون أن أكترث بما يقول، أخبرته أنني أشعر بالإنهاك من طول السير، فربت برفق على كتفي دون تعليقٍ.. وصلنا إلى شجرةٍ عملاقةٍ يوجد أعلاها عش مكتظ بالغربان، فقال لي باستمتاع:

- دي شجرة الغربان.. ما حدّش يعرف طريقها وسط الأرض غيري أنا وعمك عطوة، حتى الفلاحين بيوصلوا لها بالصدفة.

لم أرتح لمنظر الغربان بريشهم الأسود ونعيقهم المزعج وحركاتهم العشوائية.. عقَّب جدي ضاحكًا أن الجهلة فقط من يتشاءمون من تلك الطيور؛ فالغراب كان رسالةً من ربنا لعبده قابيل كي يعلِّمه الدفن ويكرم أخاه.. قال مُبتسمًا إن الغراب ليس نذير شؤم، وإنما بشير للراحة والتكريم.. التصقتُ به أكثر وقلتُ بصوتٍ متهدجٍ إنني خائفٌ وأريد العودة إلى فرحة.. ردَّ رفعت بحزم:

- سِتك هاتعلَّمك تكون بني آدم، أنا هاعلَّمك تكون راجل!

تنصَّل رفعت من ذراعيَّ وابتعد عني.. حاولت اللحاق به ولكن قبضة أخرى أُحكِمَت حول ساعدي الأيسر بقوة، التفتُّ لأجد عطوة يُطالعني بنظرةٍ ناريةٍ، أعدت النظر نحو رفعت مُستنجدًا فلم أجده.. دفعني عطوة لأسقط على الأرض وابتعد مُشيرًا للغربان التي هبطتْ من فوق الشجرة ملتفة حولي في دائرةٍ ضيقةٍ، كانتْ أضخم حجمًا مما تخيَّلت.. رفعت أجنحتها في حركةٍ جماعيةٍ وراحتْ تُحكم إغلاق الدائرة من حولي، اقشعر بدني حين لامسني ريشها ووخزتني مخالبُها، انفتحت مناقيرُها مقتربةً مني في نهمٍ...

أطلقتُ صرخةً مُدويةً لم تنقطع حتى توقفت تلك اللعبة في الملاهي عن الدوران، نزلتُ بصحبة مي ومريم الممسكتيْن برأسيْهما من الدوار، كان أمجد ينتظرنا بجوار

اللعبة يتناول إفطاره.. كنت في السنة الثالثة من دراستي الجامعية بكلية العلوم التي أنجح فيها بمعجزةٍ لا يعلمها إلا الله، وافقتُ بالكاد على الاشتراك بتلك الرحلة بعد إلحاحٍ من أمجد وإقناعٍ من مي، ولكن ابتسامة واحدة من مريم حسمت أمري.. لا أنكر انجذابي الشديد نحوها حين أحسستُ أنها تُشبهني؛ توفي إخوتها الثلاثة في حادث انهيار عقار كارثي بسبب مقاول عديم الضمير وموظف حكومي مرتشٍ وجشع صاحب العقار.. كما كان اسمها كأمي فيما اعتبرته إشارة من القدر، اضطررت قبل رحيلي أن أجعل ناجي يُقسم على ألا يهمِل مذاكرته يوم سفري، أخبرته أن الثانوية العامة تحتاج إلى ذهنٍ مُحصَّنٍ ضد التشويش.

كانت مي زميلتي في الكلية وصديقتي المقربة، عرَّفتني على مريم جارتها وعرَّفتهما على أمجد صديقي اللدود، بعد حادثة وفاة والديَّ لم أشعر بشيء تجاه بشرٍ سوى مريم، حتى أخي الذي حرصتُ على مصلحته إرضاءً لضميري وليس بدافع الأخوة والحب المطلق.بعد أن عرفت مريم تغيَّر كل شيء؛ أصبحت أستمتعُ بالأفلام الرومانسية وأتذوق حلاوة كلمات الأغاني، اعتنيت بمظهري كما لم أفعل من قبل، بدأتُ التفكير في مستقبلي بعيدًا عن شقة الحُسين التي كانت مُستقرًا لأسرتي وملاذًا لي ولناجي من بعدهما.. ولكن أمجد تركني أحلم وتحرَّك لتحقيق الحلم كعادته؛ نجح في اصطياد مريم بذكائه ووسامته ولباقته، لم يحبها

ولكنه لم يشأ أن تفلت منه، ملك قلبها ثم هجرها متعلقةً بأمل عودته، فعل كل شيء وتركني أسيرًا لأحلامي!

لم تحمل مريم ضغينةً ضد أمجد.. كانت كالأطفال في كل شيء؛ عاملَته كصديقٍ على أملٍ أن يعود إليها نادمًاعلى ما اقترف. اقترح أمجد ركوب تلك اللعبة الجديدة التي تُدعى "قطر الموت".. تشاءمت فور سماعي الاسم واعتذرت عن مرافقتهم متحججًا برغبتي في الراحة وتناول الطعام، رُحت أتابعهم بنظري وهم يصعدون على متن ذلك القطار المكشوف الذي يتحرَّك بسرعةٍ على مسارٍ ملتوٍ.. جلست مريم ومي في عربةٍ واحدةٍ وخلفهما أمجد بجوار أحد رفاقنا في الرحلة، فتحت لفة الشطائر التي أعدَّتها مريم، رحت أقطع ورق الجرائد المغلف للطعام، لم يكن هذا أفضل طعام تذوقته.. ولكن يكفي أنه كان من صنع مريم.

لمحتُ أحد المهندسين يركض تجاه عامل تشغيل اللعبة وقال له بقلقٍ:

- مش قولت لك ما تركِّبش كل العربيات؟!.. وحطيت لك علامة (×) على العربيات اللي لسّه تحت التجربة!

أجاب العامل بعدم اكتراثٍ:

- النهاردة أجازة والدور ده كان زحمة؛ يعني الناس لو كانت شافت عربيات فاضية كانوا هايمسكوا فيا.. سيبها على الله!!

أصابني القلقُ ورحت أتابع ثلاثتهم.. كانت مي تحييني بإشارةٍ من يدها كلما مرَّ القطار بالقرب من مكان جلوسي، أما مريم فكانت تصيحُ وتنظر لأمجد لترى ثباته الذي حاول تزييفه كأنه يركب هذا القطار كل يوم.. ومع زيادة سرعة القطار زاد القلق على وجه العامل، وسمعت صوتًا واضحًا لخلخلة الأجزاء الممسكة لعربات القطار من أعلى.. أمره المهندس سريعًا بإيقاف اللعبة تدريجيًّا حتى لا تحدث إصاباتٌ بفعل القصور الذاتي، حاولت التركيز لأرى أي عربة موضوع عليها علامة من المهندس لاحتمال للسقوط، أدركت بعد لحظاتٍ أنها العربة التي يركبها أمجد.. نهضتُ عازمًا على أن أركض خلفها حتى أمنع ارتطامه بالأرض، لم أخطط لشيء معين سوى محاولة إنقاذه، وأثناء تركي للفافة لمحت خبرًا في المجلة المغلفة للشطيرة: كان نعيًا في صفحة الوفيات تتصدره صورتي وتحتها وصف "المغفور له"!

لم أتذكر بعد ذلك سوى إسراعي لإنقاذ أمجد الذي انخلع عنه حزام الأمان وسقط سقوطًا مدويًا فوقي، بعد سقوطنا علمت أن عربة مي ومريم كانت قيد الاختبار أيضًا؛ أدركت ذلك حين وجدت مي تصرخ باسم صديقتها

بعـد أن ارتطمـت رأسـها بـالأرض مبـاشرةً وسـال دمهـا في كل مـكان!

لم أسـتطع النهـوض برغـم أن أمجـد لم يعـد فوقـي كـما أن الأرض لم تعـد أسـفل منـي؛ لا أشـعر بكتلـة جسـمي عـلى الإطـلاق، اختفـى كل شيء عـلى مرمـى بـصري، لم يعـد هنـاك سـوى النفـق المعتـاد في كوابيـسي، ولكنـه هـذه المـرة كان متوهج الإضـاءة لدرجـةٍ آلمـت عينـي حتـى اعتدتها..أعتقـد أن هـذا هـو الـبرزخ الفاصـل بـين عالمـيْ الأحيـاء والأمـوات كـما قـرأتُ عنـه مـن قبـل، أم أننـي خاضـعٌ لهـلاوس تجربـة الدنـو مـن المـوت. هـل سـتنعقد محاكمـة حسـابي الآن لأعـرف إن كنـت سـأثاب أو أخلـد في عقـابٍ مقيـمٍ؟!..

تبيَّنـتُ أننـي أقـف وسـط النفـق، تسـتقر في نهايتـه البوابـة الحديديـة الكبـيرة الخاصـة بحـوش مدافـن عائلتـي.. لمحـت فرحـة تقـف خلـف البوابـة تُحـاول فتحهـا، بـدأت أقـترب ومـع كل خطـوةٍ كنـت أسـتعيدُ ذكريـاتٍ لم أرغـب يومًـا في اسـتعادتها: هـروبي مـن جلسـات تحفيـظ القـرآن، قبـلاتي ولمسـاتي المُختَلَسـة مـع نرجـس في الحديقـة الخلفيـة للـدوَّار؛ التـي لم تكـن بدافـع غـير شـهوة المراهقـة.. تذكـرت خداعـي لمـي في الكثـير مـن لحظـات زواجنـا، واختـلاس المـواد الكيميائيـة مـن معمـل العلـوم بالمدرسـة..

الحركة تزداد صعوبةً ولا أرغب في تذكر المزيد من تلك اللمحات المخزية.. أحسستُ أن شرط التقدم الوحيد هو الخوض في تلك الذكريات، أصبحت قريبًا من البوابة، أشارت إليَّ فرحة بالتقدم إليها؛ وقف بجوارها أبي وأمي وحسن ابن عطوة وأقارب رحلوا قديمًا لم أميزهم إلا من صورهم التي تحتفظ بها فرحة، بدت فرحة أصغر بكثير مما عهدت، وكان رفعت على كتفه ما يشبه جسم طفل في العاشرة من عمره الذي لم أتبين وجهه؛ خمنتُ أنه أحد أطفال العائلة أو ابن زوجة شكري الذي مات بسبب تخاذلي عن علاج زوج أمه من الإدمان.. لمحتُ خلف كتف فرحة آخر شخصٍ كنت أتوقع وجوده في هذا المكان ومع هؤلاء الأشخاص: أمجد!

لم أستطع الاقتراب أكثر من هذا، رفض عقلي تذكُّر أي خطيئةٍ إضافيةٍ، سأظل عالقًا في مكاني هذا لا أبرحه حتى أتراجع عن النكران.. كيف بلغ هؤلاء السابقون البوابة؟!.. ليت هناك طريقة للتقدُّم غير هذا الاعتراف. تحرك الطفل النائم على كتف رفعت فجأة إلى أعلى وطار بعيدًا، ثم اختفى من بعده كل الواقفين تباعًا..انتهاءً بفرحة التي اختفت دون أن تفارق الابتسامة ثغرها. حاولتُ التحرُّك إليها فلم أستطع، حاولت الصراخ مُستنجدًا بها لتظل معي فلم يخرج صوتي.. اختفت البوابة واختفى كل شيء من حولي وعُدت إلى ظلام القبر مرةً أخرى..

أفقـتُ لأجـد نفـسي غارقًـا في بركـةٍ مـن العـرق الغزيـر الـذي بلـل الكفـن، وتسـارعت أنفـاسي كأنهـا تتسـابقُ عـلى الخـروج، وشـعرتُ بزلـزالٍ أحدثتـه نبضـاتُ قلبـي الـذي أعلـن عودتـه للخفقـان.. كـما أعلنَـت التركيبـة الثانيـة عـن بـدء عمليـة الإنعـاش.

١٠
وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ

الأحد 12 فبراير 2006

كما توقَّع ناجي؛ فقد اقتصر ثاني يوم من العزاء على الأقربين من أفراد الطحاوية وعلى الأقلاء ممن فاتهم الحضور أول يوم.. تعجَّب من غياب أمجد ظنًّا منه أن اختفاءه جزء من الخطة التي -بالتأكيد- تسير على ما يرام بعد أن نفَّذ دوره فيها. استنكر ناجي حديث العائلة فيما يفترض أنه ثاني يوم يمر على وفاة أخيه؛ فقد اقترح أحدهم تجديد حوش العائلة ودهانه وعمل الأرضية ببلاط باهظ الثمن، وافق الجميع على الفكرة وأعلن عطوة تبرعه بنصف المبلغ، تناسوا الحداد وأخذوا يتحدثون عن أتفه التفاصيل في عملية التجديد.. تعجَّب ناجي من ولعهم الشديد بالتفاخر حتى في الموت، ضرب كفًّا بكفٍّ دون تعليق. أعلن مؤذن الجامع القريب من مكان العزاء عن

وجـوب صـلاة المغـرب، تباطـأ ناجـي ولم يلحـق بهـم كعادتـه، ترجَّـل متمهـلًا نحـو عـزاء الحريـم المُقـام في بيـت رفعـت الطحـاوي؛ ذلـك البيـت الشـامخ والـذي كـثر بداخلـه المقيمـون والوافـدون والـزوار، تعـددت اسـتخداماته بـين مسـكنٍ ودوَّار ومـكان لتحفيـظ القـرآن وسرادق عـزاء حريمـي.

وقـف بعيـدًا يتأمـل جـدران البيـت التـي تشـقق دهانهـا واحتلـت العنكبـوت أركانهـا العليـا، نظـر إلى المقاعـد العتيقـة التـي تسـتقبل المُعزيـات؛ نفـس الوجـوه ونفـس الـكلام ونفـس الحـزن المصطنـع.. أشـفق عـلى أرجـل تلـك المقاعـد التـي تصـدر صريرهـا الـذي يشـبه الأنـين حـين تجلـس فوقهـا النسـوة مـن ذوات الأرداف الضخمـة.. أرسـل رسـالة إلى أمجـد يُطالبـه بالظهـور لحضـور العـزاء حتـى لا يُشَـك في أمرهـم، أخـبره بعنـوان مـوكل قديـم لديـه يعمـل بالتزويـر مُقترحًـا خلـق هويـة جديـدة كليًّـا ليحيـى.

انتظـر حتـى قامـت والـدة مـي لتذهـب إلى دورة الميـاه، ثـم مـال عـلى ابنتهـا، سـألها بصـوتٍ هـادئٍ ناظـرًا في عينيْهـا الحمراويْـن مـن كـثرة البـكاء عـمًّا إذا زارتهـم شـخصيةٌ مهمـةٌ اليـوم.. مسـحت مـي أنفهـا الدقيـق بمنديـلٍ ورقـي وقالـت بصـوتٍ مبحـوحٍ إن جميعهـن أتـين البارحـة، ولا يوجـد في العـزاء غـير قريباتهـا وقريبـات يحيـى.. صحـح لهـا ناجـي قائـلًا: "يحيـى اللـه يرحمـه".. لم تكـد مـي تسـمع جملـة ناجـي حتـى انخرطـت في بـكاءٍ طويـلٍ، لم يشـأ أن يُخبرهـا بخطـة يحيـى في

تزييـف وفاتـه؛ فكَّـر في التربـح مـن الموقـف قـدر الإمـكان. جلـس عـلى ركبتيـه أمـام مـي، مـدَّ يـده إليهـا بمنديـلٍ مُعطـر، قـال لهـا مُهَدِّئًـا إن الحيـاة كالقطـار لـن يقـف مـن أجـل أحـدٍ.. صحيـح أنـه يسـير ناقصًـا عربـة أو اثنتـين.. ولكـن يجـب أن يُكمِـل رحلتـه، أردف قائـلًا بلهجـةٍ عمليـةٍ:

- تحبي نقسم ولا نسيبها مشاع؟

نظرت له مي نظرةً مُستفهمةً فوضَّح لها مقصده قائلًا:

- تركـة يحيـى.. مـا بـين نصيـب يحيـى في البيـت ده والأرض الـلي جنـب المسـتوصف، وشـقة الحسـين الـلي أنـا عايـش فيهـا وشـقة الزوجيـة.. أنـا هاكتـب لـك تنـازل عـن العربيـة وعـن أرصـدة يحيـى في البنـك..

عقَّبت مي بلهجةٍ مُتهكمةٍ:

- اتنازلت عنهم عشان عارف إنهم ملاليم؟

تلفـت ناجـي حولـه، وحـين تأكَّـد مـن انشـغال أعـين النسـاء الجالسـات عنـه، نظـر إلى يـد مـي اليـسرى المفـرودة عـلى ركبتهـا فوضـع يـده عليهـا برفـقٍ ناظـرًا في عينيْهـا مبـاشرةً، قـال إنـه تنـازل لتتأكـد أنـه ليـس طامعًـا؛ فـكل مـا يريـده أن تكـون مرتاحـةً.. سـحبت مـي يدهـا بهـدوءٍ، وقالـت بحـزمٍ:

- جتـة أخـوك لسّـه بلحمهـا يـا أسـتاذ ناجـي.. ولـولا مشـيئة ربنـا كان زمـاني أم أولاده.

وقـف ناجـي عـلى قدميْـه قائـلًا بابتسـامةٍ خافتـةٍ إن عطـوة سـيعقد مجلسًـا مصغـرًا للعائلـة، مشـترطًا حضورهـا مـكان يحيـى.. أجابتـه بتعجُّـب أن يحيـى نفسـه لم يحـضر أبـدًا.. ردَّ بهـدوءٍ:

- ما عشان كده لازم تحضري.

سألت مي مُستدركةً :

- صحيح هي فين نرجس؟.. مش شايفاها خالص!

***

كان أنـس يفضِّـل العمـل في منزلـه الفخـم ذي الإضـاءة الهادئـة والأثـاث داكـن اللـون، مـارس عادتـه في تنـاول "عـين الجمـل" أثنـاء مطالعتـه لـلأوراق البحثيـة التـي يعمـل عليهـا، كان يحـرصُ دومًـا عـلى ظهـور بـرواز صغـيرٍ أمامـه وسـط كومـة الأوراق الموضوعـة أمامـه والتـي يحمـل بعضهـا توقيعـه: "د. أنـس عـز الديـن".. اسـتقرت داخـل الـبرواز صـورةٌ نهاريـةٌ لأنـس مـع زوجتـه وابنتـه الوحيـدة داليـا، يظهـر في الخلفيـة حـمَّام سـباحة واسـع خـاص بأحـد الفنـادق الشـهيرة في القاهـرة؛ أقـام فيـه أنـس منـذ فـترةٍ بنـاءً عـلى دعـوةٍ مـن إحـدى شركات الأدويـة لحضـور مؤتمـرٍ طبـي.

لم تكـن داليـا تُشـبه أباهـا بقامتـه القصـيرة النحيلـة وبشرتـه الخمريـة ورباطـة جأشـه التـي لم يفقدهـا في أصعـب أوقـات

حياتـه، ولم تشـبه أمهـا شـديدة البيـاض ذات العينـين العسـليتين والقـوام الممتلـئ عنـد مناطـق الأنوثـة دون غيرهـا وضحكـة طفوليـة لا تُفارقهـا؛ كان يـرى داليـا ناتجًـا أكـثر جـودة ونقـاء مـن العنـاصر المتفاعلـة عـلى الطـرف الآخـر مـن المعادلـة.

كان أنـس يحتفـظ داخـل درج مكتبـه بملـفٍّ طبـي يحمـل اسـم ابنتـه.. اعتـاد مطالعتـه مـن آنٍ إلى آخـر ليذكِّـر نفسـه كيـف تحـوَّل مسـار حياتـه كليًّـا؛ تذكـر حـين وُلـدت داليـا وتـم تشـخيصُها بمـرضٍ تجميـلي يُدعـىPlagiocephally ، ويعنـي تسـطُّح عظـام الجمجمـة.. كان يعلـم أنهـا مشـكلةٌ بسـيطةٌ، ولكـن علاجهـا باهـظ التكلفـة ويجـب أن يتـم خـلال السـنة الأولى مـن عمـر المولـود. اقـترح عليـه أخـوه كريـم فكـرة نبـش القبـور، وافـق أنـس عـلى مضـضٍ بعـد تـردد لم يـدم طويـلًا.. اسـتعان كريـم بأحـد أصدقائـه العاطلـين عـن العمـل- ومـا أكثرهـم- في تنفيـذ أول عمليـة. تتابعـت عمليـاتُ المُتاجـرة في الجثـث، وقـد اكتسـبت طابعًـا احترافيًّـا، وفي وقـتٍ قصـيرٍ تضاعـف العاملـون تحـت إمـرة أنـس الـذي اسـتطاع- خـلال زمـنٍ قيـاسي- توفـير كافـة النفقـات اللازمـة لسـفر ابنتـه للعـلاج في ألمانيـا.

أدرك أن الأمـر لم يعـد بخصـوص المـال حـين اسـتمرَّ في عملـه الـسري بعـد شـفاء داليـا، وبعـد نجاحـه في جَنْـي الكثـير مـن الأمـوال التـي تكفـل لأسرتـه مسـتقبلًا كريمًـا؛ لكنـه اسـتمرَّ سـعيًا

وراء التميُّز حين وجد ذاته في هذا العمل الذي تفوَّق فيه كثيرًا عمَّن سواه.. عمل بمنتهى التفاني والجدية في هذا المجال المشبوه حتى كبرت جماعته واتسع نشاطها، فآلت الأمور إلى ما أراد.. وأصبح الأفضل فيما يفعل.

اقتحمت داليا غرفة مكتب أبيها دون استئذانٍ حاملةً طبقًا كبيرًا من المكسَّرات المُفضلة لأبيها، ليحتضنها الأخير بعد أن يتناول منها الطبق ويُجلِسها فوق فخذه الأيمن، سألها عن أمها.. أجابته الإجابة التي توقعها: فأمها تقضي معظم أوقات راحتها في قراءة الروايات البوليسية التي كان يراها مضيعةً للوقت، وكانت تراها قاتلةً للفراغ، في ظل غياب زوجها إما في العمل خارج المنزل أو لمواصلة العمل بداخله.. داعب أنس خصلات شعر ابنته السوداء التي ورثتها عن جدتها أم أمها، والتي زرعت داخل أم داليا منذ صغرها أن جمالها هو سلعتها الأغلى للقفزة الطبقية التي تتمناها؛ رفضت الكثير من المتقدمين لزواجها؛ لضعف مستواهم الاجتماعي والمادي، حتى حسم أنس المزاد على جمال الابنة التي تصغره بعشر سنين، حين أتى مُسلحًا بشهادةٍ جامعيةٍ مرموقةٍ وثروةٍ صغيرةٍ وطموحٍ كبيرٍ، ساعده الحظ حين مرضت حماته بعد قراءة الفاتحة لتجده موفرًا لها كافة أنواع الرعاية بمساعدة زملائه من مختلف التخصصات.. ليضع الأم تحت ضرسِه، ويضع الابنة على فراشه.

ظلَّ يُلاعب داليا ويبعد يديْها عن الأوراق المنثورة فوق مكتبه، سرح في لقاءاته الحميمية القليلة بأمها والتي كانت كحياتهما: فاترةً وخافتةً ومظلمةً، لا هدف لها سوى داليا.. لم تشُك يومًا في عدم خيانته لها؛ ليس ثقةً في ولائه بقدر ما كان الأمر ثقةً في تواضع قدراته وضعف شهوته التي لم تتجاوز كثيرًا شهوتها المختونة.. كان خضوعه الأعظم أمام شهوة الثراء؛ الأمر الذي جعله ينتهك قَسَمه الطبي، مكوِّنًا عصابته الصغيرة المتخصصة في نبش القبور.

- هو إحنا ما بقيناش نزور جدو ليه؟

قاطعت داليا خواطره، فنظر إليها مبتسمًا وأشار بيده إلى أعلى قائلًا بلهجةٍ حاول ألا يشوبها حزنٌ "أن جدها عند ربنا".. سألته ببراءةٍ كيف صعد إلى السماء.. ردَّ أنس موضحًا أن جسده لا يزال على الأرض، ولكن روحه صعدت إلى الله؛ بسَّط عليها الأمر حين شرح لها أن الروح التي تجعلها تحيا وتتحرك وتتنفس أيضًا.. سألته:

- يعني جِدو موجود لسّه في بيته بس لو روحنا كلمناه مش هايردّ؟

أخبرها بصوتٍ خفيضٍ أن جدها مدفونٌ في الأرض كما أمرنا ربنا أن نفعل مع الموتى.. أطلقت داليا صرخةً قصيرةً فاحتضنها أنس بحنانٍ طالبًا منها ألا تخاف عليه؛ فهو في مكانٍ أفضل الآن، قال لها بحزن إن الأحياء من يستحقون

الشـفقة لا الأمـوات. قبـل أن تسـأل أسـئلةً أخـرى رنَّ هاتفـه المحمـول معلنًـا عـن اتصـال وارد مـن أخيـه كريـم، تنـاول أنـس قطعـةً مـن المكـسرات وردَّ عـلى الهاتـف قائـلًا بفـمٍ نصـف ممتلـئ:

- أيوه يا كريم.. داليا بتسلم عليك، تاخد تكلِّمها؟

أخـبره كريـم بأنفـاسٍ متلاحقـةٍ أن لا وقـت لمثـل هـذا الحديـث المُجامـل، طلـب منـه أن يحـضر سريعًـا.. أنـزل أنـس داليـا مـن عـلى حِجـره واعتـدل سـائلًا كريـم بقلـقٍ عـمَّا حـدث.. ردَّ كريـم بقلـقٍ:

- مـش خـير.. الـواد صـبري ركـب مـع عصـام السـواق وراحـوا مدافـن طحـا؛ عشـان يطلَّـع جثـة الراجـل الـلي مـات في عيـادة دكتـور أمجـد...

قال أنَس بعجلةٍ:

- وبعدين؟

- رجـع العربيـة بعـد خمـس دقايـق مـن دخولـه الـتُّرَب بيترعـش وبيخـرَّف، بالعافيـة عصـام عـرف يربطـه في الكـرسي وجابـه المصنـع.. أول مـا جـه فضـل يتلـوى عـلى الأرض زي مـا يكـون اتلبـس، وبقالـه سـاعة مـا بينطقـش!

***

وضعت السيدة أمل جارة إيفلين صينية القهوة أمام أقارب أمجد بابتسامةٍ سمجةٍ، لم تكن تعرف عن إيفلين قبل رحيل أمجد سوى أنها "الخواجاية" زوجة الطبيب القاطن في الشقة المقابلة لشقتها ويعمل بالعيادة التي تعلوها بطابقين في نفس العقار.. شعرت بمسئوليةٍ تجاه هذه الغريبة فظلَّت بجوارها هي وبناتها المراهقات للتخفيف عنها ومساعدتها في استقبال قريبات أمجد وزميلاته السابقات في الدراسة وإعداد الطعام لها؛ كعادة المصريات في مثل هذه المواقف.. كما أعارتها جهاز التسجيل وشرائط القرآن لتشغيلها أثناء زيارة المُعزيات، كانت إيفلين تطفئه فور رحيلهن.

قامت إيفلين وصافحَت أمل شاكرةً بلسانٍ لم يتقن نطق العربية برغم فهمها للغة بشكلٍ تام.. أدركت أمل بفطنتها أن هذا الكهل والد أمجد وأن هاتين السيدتين المكلومتين أمه وأخته، كما لاحظت أن مصافحة إيفلين لها ما هي إلا طريقة لإبداء الامتنان وإخبارها بوجوب رحيلها.

اعتدل أبو أمجد في جلسته واضعًا قدمه فوق الأخرى، علمت إيفلين أن هذه الوضعية في الجلوس تعني لدى المصريين التعالي على الطرف المقابل، ولكنها لم تبالِ بمحاولات حماها في استفزازها، وفعلت مثله بحكم تعوُّدها على الجلوس بنفس الطريقة فتراجعت تنورتها قليلًا، نظرت والدة

أمجد لزوجها لتتأكد أنه يغضُّ بصره، قالت لإيفلين بضجرٍ بعد أن استعاذت بالله:

- إنتي عارفة إن أمجد الله يرحمه اتجوزك من ورانا!

قالت إيفلين بلهجةٍ حاولت أن تجعلها سليمةً تمامًا دون وقوفٍ في وسط الكلام مع ضبط مخارج الحروف أنها تزوجته أيضًا دون إعلام إهلها؛ فرقٌ كبيرٌ بين الزواج في السر وبين اعتبار هذا القرار لا يخص سواهما. قال والد أمجد بلهجةٍ أكثر عملية:

- على الورق إنتي وأمجد مش متجوزين؛ لأن طريقة جوازكوا في إنجلترا مش معترف بيها في مصر.. يعني إنتي في نظر الحكومة المصرية سائحة ألمانية مش متجوزة.

ردَّت إيفلين مستفهمةً عن كيفية بياتهما معًا في نفس الغرفة بالفندق الذي نزلوا به في بداية إقامتها بمصر؛ برغم أنها تعلم أن نظام الفنادق في مصر يمنع غير المتزوجين من الإقامة بنفس الغرفة. نظَرَت لها أخت أمجد من أعلى إلى أسفل؛ لم تكن خلقتها مليحةً كأخيها، وتذكرت إيفلين حين رأت صورة عائلة أمجد في حافظة نقوده، فقالت له مازحةً إنه أخذ حظه وحظها من جمال والديْهما.. قالت لإيفلين بلهجةٍ مُتهكمةٍ:

- عشان أخويا كان معاه جنسية أجنبية.. يعني كانوا بيتعاملوا معاكوا على إنكوا متصاحبين.

بدا عدم الفهم على أم أمجد فهمست لها ابنتها ببضع كلمات علَّقت عليها الأم مُستعيذةً بالله، قالت لإيفلين بحدَّةٍ وهي تضبط من وضع حجابها أن تستعد لإجراء تحليل DNA في حالة اكتشاف حدوث حمل؛ حتى تتأكد أن الولد الآتي سيكون حفيدها من صلب ولدها.. حاولت إيفلين كبح جماح غضبها، ولكنها قالت بصوتٍ عالٍ إنها اتفقت مع أمجد على تأجيل الإنجاب، ومن الجيد أنها فعلت، أشارت إلى خاتم الزواج المستقر حول بنصرها الأيسر وقالت ببطء إنها ليست عاهرة!.. كادت أخت أمجد أن تدخل معها في جدالٍ حول معتقداتها المتفتحة تجاه الجنس قبل الزواج، وعدم إيمانها بنفس دين زوجها، ولكن قاطع أفكارها قَوْلُ أبيها:

- ما حدِّش قال كده يا بنتي.. بس إنتي هنا لوحدك...

قاطعته ابنته قائلةً إنها مجرد أجنبية في مصر، ليست حاضنةً لطفلٍ حتى تحمل الجنسية المصرية؛ أي أن إقامتها ستنتهي قريبًا.. لم تدرِ إيفلين ماذا تقول؛ كان التيار قويًّا ضدها، سمعت صوت جرس الباب فتوجَّهت مسرعةً لتفتح للطارق الذي كان جُبران، لأول مرة في حياتها تبتسم في وجهه؛ رأت فيه طوق النجاة الذي قد ينقذها من أقارب زوجها

الراحـل وسـهام كلامهـم. جلـس جـبران وحـاول وضـع قدمًـا فـوق الأخـرى مواجهًـا لأبي أمجـد، ولكـن بدانتـه منعتـه، فتـدارك نفسـه قبـل أن يُصبـح مظهـره مُضحـكًا، وقـال:

- أنـا ماحضرتـش القعـدة مـن أولهـا يـا أسـتاذ عـمَّار.. بـس خمِّنـت الـلي قولتـوه للدكتـورة..

حاولـت أم أمجـد اسـتمالته، سـألته برفـقٍ إن كان يُرضيـه أن تـأتي "خواجايـة" تـسرق تعـب صديـق عمـره وشـقاه في الغربـة، ذكَّرتـه بفضلـه عليـه بعـد أن كان عاطـلًا لا يفعـل شـيئًا سـوى الجلـوس عـلى المقاهـي.

ثـار جـبران لـدى سـماعه الجملـة الأخـيرة وقـال بصـوتٍ لم يخـلُ مـن حـدَّةٍ:

- أنا ماليش كلام مع حضرتك وهارُد على راجل بيتك..

ثم أردف مُوجهًا حديثه لعمَّار:

- بـص يـا حـاج.. صاحـب عُمـري لـو كان موجـود وسـطنا مكانـش هايـرضى مراتـه تتعامـل المعاملـة دي، دكتـورة إيفلـين ليهـا فضـل كبـير في الفلـوس الـلي ابنكـوا عملهـا سـواء بـرَّه أو في مـصر، ولحـدٍّ آخـر أيامـه كان بياخـد رأيهـا في حـالات عنـده قدَّامـي.. حـرام يكـون ده جزاءهـا.

اسـتهجنت أخـت أمجـد حديـث جـبران متسـائلةً بحـدة أيـن الحـرام في تطبيـق شرع اللـه في المواريـث.. ردَّ جـبران بهـدوءٍ أنـه

يحترم شرع الله، ولكن هذه الشقة من ممتلكات الدكتورة "إيف"، أردف قائلًا قبل أن يعترض أحدهم:

- أمجد الله يرحمه أول ما رجع من آخر سفرية ليه قال لي أروح أسجِّل الشقة باسم إيفلين بيع وشرا بالتوكيل اللي معايا.

ثم أخرج من جيبه ورقتين ومرَّرهما على الجميع قائلًا إن الورقة الأولى صورةٌ من التوكيل الذي كتبه أمجد له، وأن الورقة الثانية صورة من عقد التمليك المكتوب باسم إيف.. والوثيقتان مسجلتان في الشهر العقاري. أبدت إيفلين دهشتها وقالت أم أمجد بعتابٍ:

- بتستغل التوكيل اللي كان عاملوهلك عشان تدوَّر أملاكه وتوزع فلوسه على مزاجك يا قليل الأصل؟!

ردَّ جبران بهدوء:

- أنا لو كده كنت كتبت باسمها كل حاجة.. أنا ماليش مصلحة، وماعملتش حرف زيادة عن اللي أمجد الله يرحمه طلبه مني..

ثم نظر إلى عمَّار، واستكمل حديثه قائلًا:

- بدليل إن العيادة لسّه باسمه، وحضراتكم اللي هاتورثوها مع باقي الأملاك بشرع ربنا؛ الأم ليها التِلت والباقي للأب.

نهض الأب متعصبًا، أشار لأسرته بالقيام وقال ساخرًا:

- اشبعي بالشقة.. دي ما تجيش حاجة في اللي كان مع أمجد الله يرحمه.

عادت الأم للبكاء وتبعتها الأخت بعد تماسكٍ ظاهري أمام إيفلين، قال جبران وهو يصافح عمَّار رغمًا عنه:

- اشبعوا إنتوا بالباقي من فلوسه، عشان هي مش هاتشبع بالشقة بس.. أمجد الله يرحمه زي ما يكون كان قلبه حاسس؛ خلَّاني أكتب بوليصة تأمين على حياته لصالح زوجته، أنا كنت معترض في الأول عشان قيمة الأقساط غالية بس ماكنتش أقدر أرفض له طلب.

وقبل أن يُجادل عمَّار قال جبران بهدوءٍ:

- ولحسن الحظ إن شركة التأمين أجنبية وفاتحة فرع جديد في مصر.. يعني معترفة بجوازهم.

بدت على إيفلين الصدمة الممتزجة بالاطمئنان الناتج عن شعورها بالنجاة، فأردف جبران مُلقيًا قنبلته الأخيرة وحاسمًا الحرب لصالح زوجة صديقه ورب عمله أنه تلقى تحويلًا بنكيًا منذ أسبوع من أمجد.. وقام بدوره بتحويل الأموال لحساب شركة التأمين بقيمة أول قسط من البوليصة؛ البوليصة التي تبلغ قيمتها عشرة ملايين جنيه.

***

أمـر عطـوة خفـره بإغـلاقِ مُكـبر الصـوت الـذي يـتردد مـن خلالـه القـرآن ليرحـلَ بواقـي المُعزيـن والطحاويـة مـن حديقـة منزلـه حيـث أقيـم ثـاني أيـام العـزاء، وأشـار لفرحـات بالبقـاء قائـلًا لـه إنـه يُريـد حضـوره الـكلام الـذي سـيقوله لزوجـة يحيـى؛ فهـي لا تثـقُ فيـه ولا في ناجـي.. فيجـب حضـور طـرفٍ محايـدٍ لتهدئـة الأجـواء.. سـأل فرحـات بصـوتٍ هامـسٍ:

- إنتـوا قولتـوا لهـا خـبر إن أرض يحيـى هاتخـش كـردون مبـاني؟

نهره عطوة قائلًا:

- إنـت عايـزني أقـول لهـا إن الأرض كـمان شـهر هايبقـى سـعرها أضعـاف دلوقتـي عشـان تمسـك فيهـا؟!

لم يعلـق فرحـات كعادتـهِ حـين يحتـد عليـه ابـن عمـه عطـوة، لحـق بـه مُتجهًـا إلى بيـت العائلـة القديـم المجـاور لـدوَّار عطـوة.. جلسـت مـي ملاصقـةً لأمهـا وجلـس أمامهـا ناجـي وبجـواره فرحـات، وظـل عطـوة واقفًـا، قـال بصـوتٍ مرتفـعٍ وبلهجـةٍ حزينـةٍ:

- الطحاويـة بيخلصـوا.. وعيـالي واحـد مـات عـازب والتـاني مدمـن مراتـه رافعـة عليـه قضيـة حضانـة والتالـت ابـن أمـه يعنـي جـدر مخـوَّخ مـش هايطلّـع زرعـة نافعـة،

مافيش حل غير إن ناجي يتجوز ويجيب حفيد طحاوي متربي صح.

لم تعلق مي ولا أمها.. أمَّن فرحات على كلام عطوة بإيماءةٍ من رأسه في حين طأطأ ناجي رأسَه في الأرض.. ليُكمل عطوة حديثه قائلًا:

- حسب شرع ربنا.. تركة يحيى هاتتقسم الرُّبع لأبلة مي والباقي لناجي أخو المرحوم.. وطبعًا ما يرضيش ربنا إن أرض الطحاوية تروح للأغراب.

قالت مي بهدوءٍ:

- الأرض هاتفضل متأجرة للفلاحين يزرعوها زي ما يكون يحيى الله يرحمه عايش، ويوم ما هابيع وعد مني مش هابيع غير لناجي أو لحضرتك.

قال عطوة إن وعدها ليس عقدًا، ومن حقهم أن يضمنوا حق حفيد الطحاوية الذي سيرث منصبه.. لا مفر من أن تتزوج مي من ابن أخيه بعد انتهاء أشهُر العِدة.. صاحت مي مُعترضةً على هذه الزيجة، قالت إنها تُفضل التسوُّل على الزواج قسرًا. لكزتها أمها في ذراعها اعتراضًا على تصريحها بإمكانية تنازلها عن الميراث، سألت فرحات إن كان يُرضيه تحكُّم عطوة في مصير ابنتها.. علَّق فرحات بصوتٍ خافتٍ:

- الجواز لازم يتم باتفاق الطرفين من غير ضغط بفلوس أو بغيره..

ثـم عقَّـب حـين شـعر بنظـرات عطـوة تحـرقُ وجهـه أن ناجـي لا يعيبـه شيء، وفيـه الكثـير مِـن يحيـى اللـه يرحمـه.. عـلاوة عـلى أن ناجـي أكـثر مـالًا وأصغـر سـنًّا مـن يحيـى. اسـتمر اعـتراضُ مـي بعبـاراتٍ تخللتهـا بعـضُ الألفـاظ الجارحـة في حـق ناجـي الـذي يصغرهـا بحـوالي خمـس سـنوات، تظاهـر رجـالُ الطحاويـة بأنهـم لم يسـمعوها، حتـى أسـكتتها الأم بصعوبـةٍ بعـد أن وضعـت يدهـا داخـل فمهـا تقريبًـا.. وقالـت لعطـوة بدبلوماسـيةٍ أن يُعطـي ابنتهـا مهلـةً للتفكـير؛ فـدم يحيـى لم يـبرد بعـد! ردَّ عطـوة بحـزمٍ أن أمامهـا أسـبوعًا للتفكـير، طلـب منهـا أن توعِّـي ابنتهـا لمصلحتهـا، أردف بلهجـةِ تهديـد:

- لـولا إننـا بنراعـي شرع ربنـا كُنـا خليناهـا تطلـع مـن غـير فلـوس ولا جـواز، ولـو مـا تعرفيـش الـلي حصـل لنرجـس بنـت أختـي...

أطلقـت فجـأةً أم مـي صرخـةً مُدويـةً، وسـقطت ابنتهـا مغشـيًّا عليهـا.. اتسـعت عينـا ناجـي وسـقط قلبـه في يـده، في حـين كاد قلـب فرحـات أن يتوقـف!.. شـعر عطـوة بيـدٍ غليظـةٍ تُحكـم قبضَتهـا عـلى كتفـه، وصـوتٍ مبحـوحٍ يقـول:

- وزَّعت فلوسي وجوِّزت مراتي لأخويا.. كمِّل كمِّل!

كاد فرحات يتحدث، ولكن يحيى أخرسه قائلًا:

- ده إنتوا كتَّر خيركوا إنكوا ما بيعتوش جتتي!

فـزع الجميـعُ مـن منظـر يحيـى؛ فقـد كان حـافِيَ القدمـين مُرتديًـا جلبابًـا شـديدَ القـذارة.. تغـيَّرت هيئتـه كثـيرًا عـما عرفـوه؛ ابيـضَّ جـزءٌ مـن شَـعر رأسـهِ، كـما بُـحَّ صوتُـه وفَقَـد وزنًـا واكتسـب هالـةً مُفزعـةً جعلتهـم يخشـونه كالمـوت.. ألقـى نظـرةً حانقـةً عـلى ناجـي دون أن يتكلـم، وأكمـل حديثـه قائـلًا بصـوتٍ عـالٍ:

- اطلعوا بره كلكوا.. يحيى الطحاوي ما ماتش!

لم يقـوَ أحدُهـم عـلى معارضتـه، حتـى والـدة مـي تركـت ابنتهـا الغائبـة عـن الوعـي وراحـت تركـضُ قـدر اسـتطاعتها خلـف عطـوة وفرحـات، تمهَّـل ناجـي وكاد أن يقـول شـيئًا لـولا إشـارة حازمـة مـن يـد يحيـى جعلتـه يلحـق بالباقـين ويُغلـق البـاب خلفـه. لم يندهـش يحيـى مـن طاعتهـم العميـاء، كان يعـرفُ أن الموقـف صعـب التصديـق وأن هيئتـه البشـعة ومنظـره أكسـباه هيبـةً لم يتميـز بهـا طيلـة حياتـه.. نظـر إلي مـيّ وعـرج نحوهـا بخطـواتٍ قليلـةٍ يجـرُّ قدمـه اليـسرى، وقبـل أن يوقظهـا انهـار مغشـيًّا عليـه ليُحـدث سـقوطه صوتًـا عاليًـا تـردد صـداه عـلى المـدى البعيـد، غـاب في غفـوةٍ طويلـةٍ، لم يـدرِ أنـه سـلب أهـل طحـا النـوم؛ بعـد أن وجـدوا في قصـة عودتـه مجـالًا للحكايـات التـي سـتملأ فـراغ الحديـث بمجالسـهم لسـنين قادمـة.

١١

نَصْرٌ بِلاَ غَنَائِم

الأحد 26 فبراير 2006

غزت أشعة المصباح الكهربائي البيضاء قرنية عيني حين فتحت لها أبواب جفوني بعد نومٍ هادئٍ بلا أحلامٍ؛ كعادتي بعد الحادثة التي مضى عليها أسبوعان. نظرتُ إلى العمود الحديدي الصدئ الذي ظلّت تُعلَّق عليه المحاليل المتصلة بجسدي لمدة أسبوع، كانت ضروريةً لإعادة الدورة الدموية إلى قدمي التي تخثَّر الدم فيها؛ لم أعرف إنْ كان التجلُّط قد حدث بفضل تركيبة إيفلين أم بسبب التجربة المُفزعة التي مررتُ بها.. تبيَّنت من خلال نافذة الغرفة أننا في حقبة غروب الشمس؛ كان يومي دهرًا طوال أسبوعين لم أغادر فيهما فراشي إلا متوكئًا نحو دورة المياه، لاحظت بجوار النافذة شرخًا شديد الاتساع.. حين أستعيد قواي سأرمم المنزل مهما كلفني من مال.

لم ترحل رائحةُ أبي معه عن هذه الغرفة؛ طالما تخيلته طفلًا نائمًا فوق هذا السرير، تأتيه أمه لتوقظه كي يذهبَ إلى المدرسة، أراه صبيًّا يُخفي ثيابه المتسخة من لعب الكُرة خلف خزانة الملابس حتى لا توبخه فرحة، يتجسد لي غلامًا يُذاكر دروسه على ضوء مصباح الجاز ذي الرائحة النفاذة والصوت المزعج بلا تشجيعٍ من أسرةٍ قرويةٍ لم تُدرك أهمية التعليم، أتذكر ما حكته لي فرحة حين كان شابًّا يُعد حقيبة ملابسه مُتوجهًا إلى حي الحسين حيث سيُقيم ليُكمل دراسته الجامعية.. أخبرتني أنه بكى بين أحضانها كما لم يفعل من قبل؛ أدركتُه ضعيفًا خارج وطنه الأصلي الكائن بين ذراعيْها. قصَّت عليَّ يوم إعلان نتيجة الثانوية العامة وقراره بأن يُصبح مهندسًا، وقتها صعد أخوه عطوة إلى سطح المنزل وظلَّ يبكي حاله يومين مُتصلين؛ فهو لم يتم دراسته بعد الإعدادية، لم يهدأ حتى حصل على وعدٍ من أبيه بأن يعهدَ له بالعمودية من بعده، استعَدتُ حديث فرحة عن ندمها حين عارضت طلب أبي بالزواج من أمي "المصراوية".. كانت فكرتها عن بنات القاهرة مستوحاةً من الأفلام العربية وقتئذٍ؛ فتصوَّرتهم جميعًا في هيئةٍ جامحةٍ تبحث بدأبٍ عن أي رجلٍ يمتلكُ المال لترمي نفسها بين أحضانه.. ليتها كرَّرت ذلك الرفض حين صارحتها برغبتي في الزواج من مي.

أتمنى أن أجتمع بالراحلين ولو خمس دقائق ثم أموت بعدها؛ سأكافئ عيني برؤياهم وقلبي بعناقهم وأشبع وروحي من نقاء أرواحهم، سأسألهم...

- إنت بتعيط ولا إيه؟!

اعتدلتُ في جلستي حين دخلت مي الغرفة مُقتحمة معها خواطري، كانت تحملُ بحرصٍ صينيةً كبيرةً استقرت عليها ثلاثة أطباق من الطعام، لم أسترد شهيتي تجاه الأكل بعد، ولكنه بالنسبة لي كان ضروريًّا كالدواء لأستردَّ عافيتي ووزني الذي فقدته بشكلٍ مريبٍ وقت الحادثة.. نظرتُ إلى مي نافيًا بكائي، بررتُ دموعي بألمٍ أصاب عيني، قلتُ بلهجةٍ آمرةٍ مُغيرًا الموضوع:

- وبعد كده لما تشوفيني نايم ابقي إطفي النور!

أبدت تعجبها من أوامري، ذكَّرتني بمشاجراتي معها قبل حادثة الدفن؛ حين كانت تُطفئ أنوار الغرفة.. أجبتُها بتلقائيةٍ أنني كنتُ أخشى النوم في الظلام، لكنني عرفت أن ثمة ظلماتٍ أشد.. سألتني بفزعٍ:

- قصدك ضلمة القبر؟!

- الضلمة اللي جوايا أكبر.

- كنت فاكرة إني عارفاك كويس يا يحيى.

أشحتُ بوجهي دون أن أعترضَ.. مرَّت دقيقة من الصمت الحَرِج.. نظرت إلى صورة أبي وأمي المعلقة في الغرفة، وقالت:

- كان نفسك تودَّعهم بشكل أحسن من كده؟!

قلتُ مُغيرًا الموضوع:

- سبانخ تاني يا مي؟

سألتني عن صحتي.. أجبتها بصدقٍ أن وجع قدميَّ قلَّ كثيرًا عما سبق، وشعور باقتراب الشفاء يُراودني، أردفتُ مقترحًا النزول لتناول الطعام معًا في البهو.. بدا عليها الفزعُ وأخبرتني بضرورة راحتي.. تناولتُ طعامي في صمتٍ، طلبتُ منها أن تأكلَ معي ولكنها أبَت، لم أخبرها أن آخر لقاء لي مع أبي لم يكن داخل السيارة التي انقلبت مثل أمي؛ فقد لامستُ عظامه داخل كفنه المهترئ حين نجحت عملية إنعاشي وارتجفتُ بشدةٍ داخل قبري، أثبتت التركيبة الثانية نجاحها؛ استعدتُ شعوري بأطرافي وبدأت أدخلُ في نوبة هلعٍ تأخرت كثيرًا؛ انتابت جسدي انتفاضةٌ هائلةٌ أقوى من المعتاد؛ كأنها تُطهرني من الداخل مودعةً جسدي، اخشوشن بعدها شَعري وسمعت صوت طقطقته المُنخفض، شعرت بقسماتِ وجهي وأساريره تزداد صلابة، بدأتُ أشعر بألمٍ في كافة جسدي خاصةً فقرات ظهري، قلَّ إحساسي بقدمي اليسرى.. نزعتُ الكفن لتزداد نفاذية الرائحة البشعة داخل أنفي حاولتُ الزحف نحو باب القبر مُتذكرًا اتجاه دخولي..

اصطكت يدي بكومةٍ من عظام الأولين المُلتفة بأقمشة أكفنة قديمةٍ باليةٍ، والتي علمتُ أن عظام أبي وسطها حين سمعت سلامة يُخبر رزق أن من حسن حظي- كشخصٍ ميت- أن تربة أبي لم تُفتح منذ شهور وأنني سأدفن بجواره. شعرتُ باشمئزازٍ قوي ولكن رغبة البقاء كانت أقوى.. يئستُ من الحركة التي أدركت أنها لن تزيدني إلا فزعًا، شعرتُ بوجود منفذٍ صغير الحجم عند فتحة اللحد حين تسرَّب منه الهواء البارد، لم أتبين موقعه تحديدًا فاستنتجت أن الليل قد أغشى، وأدركت أن الحكمة تقتضي ألا أهدر طاقتي في صراخٍ لن يسمعه النائمون.. وحتى إن سمعوه لن يفتحوا المقابر ليلًا وسيظنون أنني شيطان يُريد الخروج ليعيث في حيواتهم فسادًا، قرَّرت انتظار النهار ولكن الليل أبى أن ينجلي قبل أن يفاجئني..

سمعت صوت خطواتٍ مُتسللةٍ في الخارج، فكَّرت أن أهتف بعلو صوتي، ولكنني خفتُ أن أفزع السائر؛ فيصير لَحْدي منطقةً محظورةً ولا أستطيع الخروج صباحًا. سمعتُ دقاتٍ خفيفةً على باب القبر وصوت خدش لطبقة الأسمنت الرقيقة المغلفة لحواف الباب الصغير، اقتحمتني فجأةً لفحةٌ من الهواء البارد؛ تبعها دخولُ نبَّاش القبور الذي لم يُضع وقته مُستعيذًا بالله بصوتٍ خفيضٍ وبدأ يعبث في كفني.. تحركتُ مُفاجئًا له وأخبرته بسرعةٍ أنني ما زلتُ حيًّا؛ لا أسعى لإيذائه ولا أريدُ إلا الخروج.. انتفض مُتراجعًا وراح

يستعيذ بالله، ركض سريعًا لأسمع صوت دوران مُحرك سيارة.. زحفتُ حتى خرجتُ من القبر بهدوءٍ، حاولت أن أستر جسدي بثوب الكفن ولكنه كان يسقط رغمًا عني؛ لم يكن لديَّ من الأعصاب ما يُساعدني على الإمساك به، صممتُ على التحرك على الرغم من غياب شعوري بشقي الأيسر كله، ساترًا عورتي بيمناي ومتسترًا بظلام الليل. كان قفل الحوش مفتوحًا دون آثار كسر؛ يبدو أن هذا النبَّاش يعرف ما يفعله جيدًا ولا يُريد لأحد اكتشاف جريمته. خرجتُ إلى العراء، أردتُ الوصول إلى المسجد حيث ينام رفعت.. أثناء مسيري لمحت رزق المعتوه يسير فناديته بصوتٍ خفيضٍ كي لا يفزع، أقبل مُسرعًا وأبدى سعادته لعودتي، لم يخف ولم يندهش ولم يُطل السؤال، أخرج جلبابًا قذرًا من الكيس الأسود البلاستيكي الذي يحمله دومًا، ألبسني الجلباب- الذي لم أملك الرفاهية للاشمئزاز من رائحته المفعمة بنسائم العَرق والرَّوث- دون كلمةٍ إضافيةٍ.. طلب مني أن أتكئ عليه، اصطحبني مُتجهين إلى البيت حتى لا أموت بردًا.

علمتُ فيما بعد أن ناجي وعطوة وفرحات سمعوا صوت سقوطي أثناء هروبهم من الحالة المشوهة التي كنتُ عليها، عادوا إليَّ مُصطحبين طبيبًا عمل على إسعافي ومداواتي؛ علَّق المحاليل وكتب لي على أكثر من دواء، قال إنني سأحتاجُ وقتًا كي أسيرَ على قدمي اليسرى بشكلٍ طبيعي.. لم يسأل كثيرًا؛ ولم يملك أي من الحاضرين الإجابة.

أنهيتُ طعامي دون أن أتذوقه، بيد أنني تخيلتُ طعمه الرديء كما اعتدته من مي.. كنت أمازحها في بداية الزواج مُعلقًا أنني لن أُسمِّي الله قبل تناول طعامها؛ حتى يموت الشيطان مسمومًا. نهضت سريعًا مفاجئًا مي بخفة حركتي، توجهت للاغتسال بمفردي، لم أغتسل بالماء الدافئ على الرغم من برودة الجو، نظرتُ إلى مرآة الحمام لأطالعَ المسخ الذي صرتُ عليه؛ فقدت الكثير من وزني وبَزَغ السواد والتجاعيد حول عينيَّ التي جحظت مقلتاها فأصبحت أكثر بروزًا، كما اكتسبتُ سمرةً شاحبةً وبحَّ صوتي، وشاب شَعري من عند الفوديْن واخشوشن قليلًا، كما طالت لحظاتُ سرحاني وزاغ بصري قليلًا.

أقامت مي في الغرفة السفلية التي كانت تُقيم بها نرجس قبل أن يسجنها عطوة، كانت تزورها أمها وزوجة عمي بشكلٍ شبه يومي لمساعدتها في الاعتناء بي.. طرقتُ باب الغرفة لأجدها جالسةً بكامل ملابسها على أحد المقاعد اقتربت منها وانحنيتُ برأسي مُستهدفًا تقبيلها على وجنتها؛ فأبعَدَت رأسها عني في فزعٍ.. كرَّرت مُحاولتي فكرَّرت رفضها الناعم لمُلاطفتها، قلتُ بهدوءٍ إن ما كنتُ أخشاه قد حدث.. نظرتْ مُستفهمةً.. قلتُ لها بحسرةٍ:

- إنتي اتغيرتي يا مي؛ بطلتي تقعدي معايا، بطلتي ترتاحي على كتفي، بطلتي حتى تكلميني.

ردَّت مـي باسـتنكارٍ أنهـا تـرد عـليَّ حـين أحادثهـا.. قلـتُ لهـا:

- ردك عليَّـا مـش اهتـمام.. إنتـي طـول عمـرك بتيجـي تنكشـيني وبترغـي معايـا في سـيرة الخلـق.. حتـى لـو كنـت راجـع مـن بـرّه تعبـان ومـش شـايف قدّامـي.

اعتدلـت مـي قائلـةً بلهجـةٍ جـادةٍ إنهـا لا تُصدق عـودتي، وأن عقلهـا تمـت برمجتـه عـلى أنهـا صـارت أرملـة، أردفـتْ مُمسـكةً رأسـها في حـيرةٍ أن جميـع النـاس- باسـتثنائها-صدَّقوا نبـأ عـودتي؛ فعـلى مـدار أسـبوعين كانـوا يـدورون القريـة مُرددين حكايتـي، أوشَـكَتْ عـلى البـكاء حـين قالـت إنهـا لا تُصـدق وجـودي؛ فزوجهـا الـذي دخـل القـبر ليـس نفـس الشـخص الـذي خـرج منـه!.. قلـتُ وأنـا أهـزُّ كتفـيَّ:

- إحساسـك ده طبيعـي، والتجربـة الـلي مريـت بيهـا مـش سـهلة عشـان مـا تغيرنيـش.

- مـش دي المشـكلة.. أنـا حاسَّـاك غريـب، ومـش هاقلـع الأسـود عليـك، ولـو حـدّ مـا يعرفنيـش قـال لي يـا مـدام هاقـول لـه إني أرملـة!

سـألتها مُتهكـمًا إن كانـت تظننـي غريبًـا، وأن جلوسـنا تحـت نفـس السـقف وحدنـا حـرام.. نفـت ادعـائي بهـدوءٍ، قالـت دون

أن تنظـر في عينـي إنهـا ليسـت ناشـزًا؛ فلـن ترفـضَ معـاشرتي إن أصررتُ عليهـا.. صحـتُ فيهـا بغضـبٍ صـادقٍ:

- مـش هاترفضينـي؟!.. بأمـارة مـا إنتـي قاعـدة مـع جـوزك بالحجـاب!

نظـرت لي نظـرةً طويلـةً صامتـةً، فجذبـتُ حقيبـة ملابسـها وفتحتهـا، صحـتُ بلهجـةٍ مقتضبـةٍ:

- لمِّـي هدومـك وحُطـي حجابـك في شـنطتك، أنـا هاتصـل بناجـي ييجـي يوصلـك لأمـك.. والصبـح هاخليـه يمـشي في ورق طلاقـك.

أردفتُ بصوتٍ عالٍ:

- كابوسـك خلـص يـا مـي.. أنـا مـا رضـاش ليـكي تعـاشري راجـل غريـب!

***

انتظـرتُ حتـى انتصـف الليـل، توجَّهـتُ إلى المطبـخ ورحـتُ أعـد طعامًـا كـما اعتـدتُ أن أفعـل منـذ يومـين دون أن أخـبر مـي؛ سـخَّنت رغيفـين مـن الخبـز واضعًـا بأولهـما قطعتـين مـن اللحـم المسـلوق.. وفـردتُ فـوق الثـاني بعضًا مـن الجُبن، وجدتُ في الثلاجـة طاجـن "أم عـلي" فأخرجتـه لأضعـه مـع الرغيفـين داخـل كيـسٍ شـفافٍ. ارتديـتُ جلبـاب أبي مُغلقًـا جميـع أزراره،

سرتُ أتنشـق هـواء طحـا الـذي اكتشـفت روعتـه مؤخـرًا، لم يطُـل بحثـي عـن رزق المعتـوه كعـادتي حـين أحتاجـه فأجـده سريعًـا.. جلـس هـذه المـرة مسـتندًا إلى عمـودٍ كهربـائي لا يُـضيء إلا نهـارًا لحكمـةٍ لا يعلمهـا أحـد.. لم نتبـادل الحديـث كعادتنـا، أعطيتـه الكيـس ففتحـه مُلتهـمًا محتوياتـه بنهـمٍ جـمٍّ، فـرغ مـن طعامـه نظـر لي وقـال بلهجتـه البسـيطة المُتقطعـة اللدغـاء في أكـثر مـن حـرفٍ:

- بس مش غريب اللي بتعمله معايا ده يا أستاذ يحيى؟

- إيه اللي غريب يا رزق؟

- طـول عمـرك مـش شـايفني؛ زيـك زي أهـل البلـد.. وحتـى لـو سـلمت عليـك كنـت تـدوَّر وشـك الناحيـة التانيـة.. دلوقتـي بقالـك كام يـوم بتنـزل تقعـد معايـا وعامـل لي أكل مخصـوص، وسـاعات بتـاكل معايـا كـمان!

- عشـان إنـت الوحيـد فيهـم الـلي متقبلنـي يـا رزق.. أنـت الوحيـد الـلي شـافني خـارج مـن تربتـي عريـان ومخافـش!

أشاح بنظره بعيدًا، وقال لي دون أن ينظر في عيني:

- أنـا عـارف أصلـك كويـس، وعـارف إن يحيـى الـلي طلـع مـن القـبر أحسـن بكتـير مـن الـلي دخلـه.

قلتُ في حيرةٍ:

- طب أخلِّي الناس تشوفني زيك كده إزاي؟.. دول بقوا بيخافوا يعدُّوا من جنب البيت، حتى مراتي وأهلي خايفين مني.. وأخويا بيتعامل معايا من بعيد مع إنه أكتر واحد عارف اللي حصل!

قال رزق بهدوءٍ:

- ربنا إداني بصيرة مش عندهم؛ صحيح هو خَد مني فلوس وصحة وهيبة وحاجات كتير.. بس إداني اللي أهم منهم كلهم.

أردف مؤكدًا أنني يجب أن أقوِّي بصيرتهم كي أستطيع الحياة وسطهم.. أخبرته أنهم لن يروا إلا ما يُريدون رؤيته.. ردَّ بنفس لهجته التائهة أن الكذب هو الحل؛ يجب أن أستعمي بصرهم. لم أصدق أن رزق من يُحدثني بهذه الطريقة، فكَّرت في كلامه قليلًا، لم أستوعب معظمه ولكنني لم أعلق.. سمعت صوت أذان الفجر من المسجد القريب من المقابر فقرَّرت أن أذهب لأصلي مع رفعت.. طلب مني رزق حين رآني أنهض من مجلسي أن أبلغ سلامه للشيخ صالح الكفيف، وأبلغه أن صوته مليح في القرآن عكس الأذان؛ فليترك أذان الراديو.. قلتُ مقترحًا برفقٍ:

- طب ما تيجي تصلِّي معايا وتقول له بنفسك!

أجـاب رزق بضحكـةٍ خفيفـةٍ دون أن ينظـر إلى عينـيَّ مبـاشرةً كعادتـه:

ـ أنا مسيحي يا أستاذ يحيى.

قلتُ مندهشًا:

ـ بس إنت عُمرك ما قولت لحدّ كده.

أجاب بتلقائيةٍ:

وإنت عُمرك ما سألتني، ولا عُمرك صليت الفجر حاضر..

تركنـي وسـار في الاتجـاه المعاكـس لاتجـاه المسـجد؛ ناظـرًا للسـماء يُحدثهـا، ضاحـكًا مـع نفسـه بصـوتٍ عـالٍ وبـكلامٍ كثيـرٍ غـير مفهـومٍ، هائمًـا في ملكوتـه الخـاص.

***

كعـادة المسـجد الصغـير كان الحضـورُ مقتـصرًا عـلى رفعـت والشـيخ صالـح وأحيانًـا مـا كان يـأتي طالـبٌ أو اثنـان في أوقـات الامتحانـات.. مـال عـليَّ رفعـت بعـد أن ختمنـا الصـلاة بالسـلام، قـال "تقبـل اللـه".. أجبتـه "منـا ومنـك بـإذن اللـه"، دعـوتُ بـأن نصـلي الفجـر جمعًـا في الحـرم.. ابتسـم هامسًـا بمـرارةٍ أن أوانهـا قـد فـات عليـه، تعجَّـب كيـف فاتتـه فريضـة الحَـج حـين كان بكامـل صحتـه.. قلـت لـه إن أوانهـا لم يفُـت بعـد.. ردَّ بهـدوءٍ:

ـ صدِّقني فات.. تيجي معايا التُّرَب ولا لسه بتخاف؟

- هانجرب.. بس إيه هايودينا هناك الساعة دي؟!

- فيه شاب مات إمبارح العصر، هانروح نغرس له صبَّار.

سرت بجوار رفعت الذي كان يعرجُ مُتكئًا على قدمه اليمنى، اقتربنا من المدافن؛ تعجبتُ من كوني لا أخشى منظر شواهد القبور كما كنتُ أشعر من قبل.. يبدو أن علاج أمجد قد نجح لدرجة شعوري بالتبلُّد التام تجاه كل ما يتعلق بالموت، أمرني رفعت وهو ينظر أمامه أن أخبر عطوة بوجوب إرسال المال للشيخ صالح بصورةٍ شهريةٍ؛ فالرجل يقتاتُ متعففًاعلى معونات الناس الأشبه بالصدقة.. والحكومة لا تصرفُ له راتبًا لأن المسجد غير مُقيد بوزارة الأوقاف.

سألته قائلًا:

- أمال هو كان عايش إزاي قبل كده؟

- فرحة كانت بتبعت له فلوس عشان تكمِّل جِميل أبوك عليه.. وعلى فكرة إنت كمان هاتفضل عايش في خير أبوك؛ يا تكمِّل خيره على الناس، يا تتمرمغ في تركة المحبة اللي سابها لك.

- أنا أعرف عن الشيخ صالح إنه كان أزهري لحدّ ما مراته ماتت؛ فاعتزل الحياة واشتغل فِقيه عشان يعرف

يـاكل، لحـدّ مـا أبويـا بنـى الجامـع وخـلّاه إمـام فيـه.. بـس معرفـش اتعمـى إزاي؟

ضحـك رفعـت وسـألني إن كنـتُ أعـرف "وجيـه الرشـيدي".. هـززتُ كتفـيَّ كنايـة عـن الجهـل، فـأردف قائـلًا:

- ده كان وزيـر أيـام عبـد النـاصر.. عيلـة أمـه كانـت مـن طحـا، ويـوم مـا خالـه مـات الشـيخ صالـح فِـرِح، لبـس الجلابيـة النضيفـة وإسـتنى لمَّـا الجنـازة انفضِّـت والوزيـر راح مـع الحـرس بتوعـه يقـرا الفاتحـة عـلى خالـه..

عقَّبتُ قائلًا:

- كان حاطـط عينـه عـلى وَهبـة قرايـة محترمـة؛ دي باضـت لـه في القفـص...

ردَّ رفعت ضاحكًا:

- هـي باضـت لـه، بـس مـش في القفـص، الوزيـر جالـه خـبر إقالتـه في التعديـل الـوزاري وهـو في الطريـق للمدافـن.. الشـيخ شـاف الموكـب بتاعـه والفخامـة اتربـك ونـسي السـورة الـلي كان محضَّرهـا، ماجـاش في بالـه سـاعتها غـير سـورة آل عمـران، اتنحنـح وبـدأ التـلاوة مـن أول السـورة.. وأول مـا وصـل للآيـة الـلي بتقـول: "قُـلِ اللَّهُـمَّ مَالِـكَ الْمُلْكِ تُـؤْتِي الْمُلْـكَ مَـن تَشَـاء وَتَنـزِعُ الْمُلْـكَ مِمَّـن تَشَـاء" واحـد مـن الحـرس خـد بالـه ونبِّـه الوزيـر إنـه ممكـن يكـون

قاصد يلقّح عليه بالكلام.. عمك صالح يسكت؟ أبدًا راح مكمِّل الآية وقايل: "وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".. الوزير برَّق وافتكر الشيخ صالح من إخواتنا إياهم وشمتان فيه عشان كان مربِّي دقنه، وعينك ما تشوف إلا النور.. الراجل حِلِف له بكل أيمانات المسلمين إنه مالوش في السياسة وإن السورة دي هي اللي جت في باله، بس لا حياة لمن تنادي..

ثم أردف ضاحكًا:

- للأمانة الوزير صدّقه بعدها.. بس على ما صدّقه كان الحرس قاموا بالواجب.. كان فيهم واحد إيده قدّك كده، وتحسّه كان واخد أجازة مخصوص لقفا الشيخ صالح، فضل يضرب لحدّ الراجل ما أغمى عليه، صحي لقى نور عنيه اتقطع.

ضحك يحيى كثيرًا، وقال لرفعت:

- بس الناس بتموت كتير ليه اليومين دول، ده المغسل والتربي زمانهم بقوا أغنى من عطوة.

قال رفعت بجديةٍ:

- ما سألتش يعني مين اللي مات!

أجبتُ بصدقٍ:

- يعني أبويا وأمي ماتوا، وفرحة راحت لربها، وأنا نفسي اتدفنت وطلعت.. فكرك هايفرق معايا حدّ؟!

هزَّ رفعت رأسه نافيًا بحسرةٍ، قال إنني أبدو كالأحياء؛ ولكن الحقيقة أنني ما زلت موءودًا داخل قبرٍ بداخلي.. قبرٍ صنعته بنفسي.. ولن يخرجني منه أحدٌ سواي. وصلنا إلى القبر المنشود، ثبتنا الصبَّار الذي أحضرناه معنا في علبة سمن من الصفيح الصدئ، روينا الصبار بقدرٍ مناسبٍ من المياه.. سألت رفعت بفضولٍ عن هوية المتوفي.. ردَّ وهو يتأكد من تثبيت الصبار بحرصٍ:

- عارف أيمن القهوجي؟

هززتُ رأسي قائلًا بزفرةٍ صغيرةٍ:

- أيوه اللي كان واخد صندوق نذور الجامع دايمًا لحسابه؛ مرة يقول بنجهِّز بنت من بنات البلد، ومرة يقول هانبني جامع جديد.. وفي الآخر طلع بيصرفه على نفسه.. يلا الله يرحمه.

قال رفعت موضحًا:

- مش هو اللي مات.. أيمن خلِّف عيّل لما كنت إنت لسّه داخل جامعة.. فاكره؟

قلت مُسرعًا:

- آه يحيى.. ما له؟

ذكَّرني رفعت بهدوء أنه أسماه على اسمي.. أومأتُ برأسي مُتذكرًا حين وُلِد الصبي ابن السبعة أشهر وسعى أبوه لوضعهِ في حضَّانة أطفال بأي مستشفى حكومي، جئته من القاهرة حين عرفتُ وذهبتُ معه إلى أكثر من مستشفى قريبة، وحين لم يؤتِ سعينا ثماره المرجوة طلبتُ من فرحة أن تسمح لي ببيع قطعةٍ صغيرةٍ من الأرض التي ورثتها كي يدخلَ حضَّانة في مستشفى استثماري.. لم أعرف حتى اليوم الدافع الذي جعلني أقوم بكل هذه التصرفات. قال رفعت بحزنٍ:

- فاكر إنك جيت لي يومها وأنت فرحان، وقلت لي إن فرحة إديتك الفلوس وهاتخصمهم من مصروفك على كذا شهر؛ عشان الثواب يبقى بتاعك.. والراجل سمّى ابنه على اسمك. اللي ما تعرفوش بعدها إن فرحة قالت لعطوة يتوسط ليحيى الصغير عشان يدخل الكلية الحربية..

توجَّهنا إلى المسجد عائديْن، أردف جدي قائلًا بحزنٍ:

- زمايله اللي جم بجثته إنهاردة قالوا لأبوه إنه كان بيتدرب على القفز بالمظلات، فتح باب الطيارة ونط، جه يفتح البراشوت...

- ما فتحش.

- شوفت بسيطة إزاي يا يحيى؟.. غلطة بتحصل مرة كل كام سنة ومعمول لها احتياطات كتير.. بس قدر ربنا.

شعرتُ أن رفعت قصد اصطحابي خصيصًا ليوقظ ذلك الجزء الآدمي بداخلي، وليذكرني بما كنتُ عليه قديمًا برغم معاناتي.. سألني بجديةٍ عمَّا أنتوي فعله في المستقبل.. سألته باستنكارٍ عن أي مستقبلٍ يتحدث؛ الناس تخاف الاقتراب مني كأنني الموت، لا أستطيع التعامل مع أحد سوى رزق المعتوه، حتى الشيخ صالح شعرتُ بارتعاش يده اليوم حين صافحته بعد الصلاة. قال رفعت بهدوءٍ:

- يا تنوَّر عقولهم بالحقيقة يا تكدب عليهم.. الحل التاني غلط بس سهل ومضمون.. شوف هُما عايزين يشوفوك إزاي واعمله.

علَّقت قائلًا بحزنٍ:

- أنا خرجت لاقيت نفسي في تربة أكبر من اللي كنت فيها، ربنا إداني فرصة أعيش من جديد.. بس الناس رافضة تديهالي!

سألته متوسلًا أن يعودَ ليعيشَ برفقتي في البيت؛ بدلًا من حياة كل منا وحيدًا.. أجاب بهدوءٍ أن هذا القرار أيضًا أوانه فات. لم أتمالك نفسي، صحت فيه ثائرًا أنه من اختار

هـذه الحيـاة بـلا سـببٍ واضـحٍ؛ فشـخص مثلـه لا يـزال يفقتـد لصحبـة النـاس ويتـألم لموتهـم.. يشـتهي الطعـام ويتفقـد أفـراد عائلتـه مـن بعيـد، سـألته عـمَّا أوصلـه لهـذه المرحلـة.. كـرر قائـلًا بنفـس هدوئـه إن أوان العـودة قـد فـات.. أمسـكته مـن ياقـة جلبابـه لأول مـرة في حيـاتي، صحـتُ فيـه بصـوتٍ تـردد صـداه في الفـراغ حولنـا قائـلًا:

- يـا جـدع حـرام عليـك بقـى أنـا محتاجلـك جنبـي.. أنـا سـاعات باحـس إنـك ميـت زي الجثـث الـلي إنـت دافـن نفسـك بالحيـا في وسـطيهم!

أمسـك يـدي بشـدةٍ وأنزلهـا؛ لم أعتقـد أنـه لا يـزال محتفظًـا بهـذه القـوة حتـى هـذه السـن، قـال مُبتسـمًا:

- أنـا عمـري مـا هاسـيبك.. ولـو فيـه سـبب مخليني لسّـه عايـش فهـو أنـت!

قبَّلـت رأسـه مُعتـذرًا، عدَّلـت مـن وضـع جلبابـه وقبـل أن أطلـب السـماح منـه رنَّ هاتفـي؛ كان الرقـم غـير مُسـجل لـديَّ اندهشـت مـن اتصالـه في هـذا الموعـد المتأخـر، أجبـتُ مسـتفهمًا ليأتينـي الـرد مـن الجهـة الأخـرى صـادرًا مـن صـوتٍ أنثـوي وبلهجـةٍ شِـبه عربيـة قائـلًا:

- أستاذ يحيى، أنا دكتور إيفلين مرات أمجد..

أجبتها بهدوءٍ معتذرًا عن عدم حضوري العزاء.. أبدَت تفهمًا لموقفي ولوضعي الحالي، أخبرتني أنها أتت برقمي من جبران، أبلغتني بخوفٍ شديدٍ أنها آسفةٌ على ما حدث.. سألتها بقلقٍ عمَّا تعتذرُ.. أجابت بلهجةٍ مُقتضبةٍ:

- النسناس مات.

١٢

إيَاب

الإثنين 27 فبراير 2006

على غير المألوف؛ اجتمع خفر عطوة جالسين حول رزق الذي ارتشف رشفةً كبيرةً من كوب الشاي "الخمسينة"، تمهَّل في الشرب منتشيًا بنكهة الشاي الثقيل المُمتزجة برائحة الفحم الذي سُخِّن فوقه البرَّاد، مُستمتعًا بهالةٍ من الأهمية التي اكتسبها مؤخرًا بعد أن أصبح الشاهد الوحيد على عودة يحيى.. تلك الهالة التي ترجمتها نظرات الشغف والفضول في أعين الجالسين حوله، على الرغم من كونِه يحكي نفس الكلام بنفس الأسلوب ولنفس الأشخاص للمرة العاشرة تقريبًا.. اعتدل في جلسته على "الدكة" الخاصة بالخفر التي طالما جلس أسفلها كي يرص فحم النرجيلة التي يشربها الخفر،أكمل حديثه بلهجته الغريبة:

- أنا لمحت أستاذ يحيى خارج من التُربة زحف، خُفت أقرَّب منه في الأول، بس حسيته تايه، كان شكله أطول من الحقيقة، وعنيه كان فيها لمعان غريب، وأنا بلّبسه الجلابية اللي كانت معايا حسِّيت جسمه سُخن مع إن الجو كان تلج.

سأله أحد الخفر بلهفةٍ هل تبادل يحيى الحديث معه.. نظر له رزق بهدوءٍ وسحب رشفةً طويلةً حتى مسَّ التفل شفتيه وقال:

- سألته لو محتاج حاجة.. بص لي باستغراب زي ما يكون مش عارفني، ناديته باسمه عينيه اضيقّت وحسّيته ابتدا يفتكرني، وفجأة مسك دماغه جامد وكان هايقع من طوله فسندته، اتعكز عليّا ومشينا، كنت مرعوب وبترعش بس حسّيت إنه مش هيقدر يئذيني ولا حتى يئذي نفسه.. وفجأة مسك رقبتي وكان هايخنقني وقال كلام غريب مافهمتوش!

شهق الجميعُ في خوفٍ، على الرغم من أنهم سمعوا نفس القصة، وعلى الرغم من أن رزق يغيِّر في تفاصيلها كل مرةٍ عن غير قصدٍ منه؛ فيضيف حدثًا ويقتطع آخر، أردف قائلًا:

- أول ما بدأ يتكلم سألني عن الست فرحة الله يرحمها، ما رديتش عليه، بعد كده سألني عن أموات الطحاوية

واحـد واحـد، قولـت لـه إن الحـاج عطـوة وأسـتاذ ناجـي مسـتنيينه في الـدوَّار القديـم، وصَّلتـه لحـد هنـاك وسـيبته يدخـل لهـم، بعـد كـده كل الـلي في البيـت طلعـوا يجـروا ويصرخـوا!

قـال أحدهـم، والـذي كان موجـودًا مـع عطـوة يـوم إعـلان الوفـاة، طارحًـا سـؤاله عـلى الجميـع:

- بـس إزاي طلـع عايـش ويـوم الغسـل كان قاطـع النَّفـس! والدكتـور صاحبـه ده كشـف عليـه وأكَّـد لنـا إنـه ميـت؟

أضاف زميله الذي كان يتوق لمشاهدة المباراة معلقًا:

- والحانـوتي مـا لاحظـش إنـه فيـه الـروح لسّـه، ولا حتـى عـم سـلامة التربي!

بـدأ وعيهـم كلهـم يتفـق بطريقـةٍ غـير مبـاشرةٍ.. حتـى خـرج شـيخُ الخفـر الـذي كان جالسًـا وسـطهم بالاسـتنتاج الـذي كان دفعهـم إليـه كلام رزق دفعًـا:

- أسـتاذ يحيـى يـا إمـا ملبـوس يـا إمـا وَلي مـن أوليـاء اللـه الصالحـين!

قال أحدهم مصححًا:

- اسمه الشيخ يحيى..

ثم أردف مُفسرًا:

- أنـا شـوفته إمبـارح في زاويـة الشـيخ صالـح، هـو فيـه ملبـوس بيصـلِّي الفجـر؟!

***

خرجـت إيفلـين مـن بوابـة العقـار مُسرعـة، تلفتـت حولهـا حتـى لَمَحَتنـي ألـوِّح لهـا مـن نافـذة سـيارتي المتهالكـة، فتحـت البـاب وجلسـت دون تحيـة، كـررت اعتذارهـا حتـى مللتـه، شرحـتْ لي تفاصيـل التجربـة باسـتفاضةٍ، والنجـاح المؤقـت للتركيبتـين الـذي ظهـر عـلى النسـناس حـين تـم إنعاشُـه بنجـاحٍ صبـاح يـوم تنفيـذ التجربـة؛ الأمـر الـذي شـجَّع أمجـد لتطبيـق التجربـة عـليَّ.. عـلى الرغـم مـن عـدم موافقتهـا وتخوُّفهـا مـن حـدوث أعـراضٍ جانبيـةٍ فيـما بعـد. وقـد حـدث مـا كانـت تخشـاه؛ فبعـد فـترةٍ بـدأت وظائـفُ النسـناس الجسـدية في الاختـلال، وتدهـورت صحتـه سريعًـا، تراجعـت كفاءتـه الحركيـةُ وزاد معـدل النبـض لديـه وفقـد الكثـير من وزنـه في مـدةٍ قصيرةٍ، حتـى انهـار نظامـه كليًّـا مُعلنًـا انسـحابه مـن عـالم الأحيـاء.

حاولـتُ أن أخفـي الفـزع الـذي اخترقنـي كجيـشٍ قـوي يُهاجـم قلعـةً غـير حصينـة.. لم يكـن شـعوري بالهلـع مـن المـوت كالـذي كان يُـراودني قبـل التجربـة؛ ولكنـه كان خوفًـا مـن انتهـاء الأجـل وأنـا عـلى غـير اسـتعدادٍ دون أن أنجـز شـيئًا في حيـاتي، خاصـة حـين أعـادت لي التجربـة الأمـل.. حاولـتُ تغيـير الموضـوع فعزَّيتهـا في أمجـد مُعتـذرًا عـن التأخـير فتقبّلـت

عـذري لعلمهـا بظـروف حادثتـي، سـألتني عـن نتائـج التجربـة فأخبرتهـا باقتضـابٍ أنهـا كانـت جيـدة دون أن أخـوض في أي تفاصيـل مؤلمـة.. تفهَّمـت الأمـر ولم تلـح في الاستفسـار، قـدتُ هائمًـا في الشـوارع التـي نـام معظـم أهلهـا، أخبرتهـا بضحكـةٍ مفتعلـةٍ عـن رغبتـي في دعوتهـا لتنـاول أي مـشروب يُهـدئ مـن توتـر الموقـف.. وافقـت بعـد تفكـيرٍ. تعجَّبَـت مـن النشـاط والحركـة في حـي الحسـين حتـى هـذه السـاعة المتأخـرة؛ كانـت تعلـمُ أن القاهـرة لا تنـام، ولكنهـا لم تتصـور أن الوضـع في الحُسـين بهـذه الحيويـة.. أزحـتُ كـرسي مـن كـراسي مقهـى "الفيشاوي" لأُجلِسـها فوقـه بحركـةٍ لبقـةٍ.. اسـتنكرتها عكـس مـا توقعـت.. طلبـتُ بـرَّاد شـاي خَـرَز بالنعنـاع وطلبـت هـي عصـير ليمـون مثلـج. اقـترب أحـدُ الشـباب الذيـن يتاجـرون في التحـف "الخرتيـة" فألقـى عـليَّ تحيتـه بالعربيـة وقـال لإيفلـين بلباقـةٍ مصطنعـةٍ وبابتسـامةٍ جملتـه الافتتاحيـة الشـهيرة بلهجـةٍ رديئـةٍ:

- Egyptian handmade souvenir?.. It's the best!

ردَّت عليه إيفلين بعامية جيدةٍ:

- لو عارف أسامي التماثيل اللي بتبيعها هانفَّعك!

تجـاوز الشـاب دهشـته، وراح يـشرحُ لهـا اسـم وقصـة كل تمثـال؛ انتقـل مـن زوسر إلى خوفـو ومـن خوفـو إلى أحمُـس ومـن أحمُـس إلى حـورَس وأمـه إيزيـس.. بـدا عـلى إيفلـين معرفتهـا بـكل مـا قـال وثقافتهـا التاريخيـة التـي أعتقـد أنهـا تتجـاوز

ثقافتي، ابتاعت منه تمثالين بعد فِصالٍ طويلٍ في السعر، رحل وهو يلعن تلك "الخواجاية الأدارجية" وتركني وسط فاصلٍ من الضحك جعلني أتناسى ما مررتُ به.. سألتها وأنا أدفئ يديَّ بكوب الشاي متى تعلَّمَت كل هذا.. ردَّت مُبتسمة وهي تناولني إناء السُّكر أن أمجد لم يصطحبها لمثل هذه الأماكن من قبل؛ فجميع جولاتهما كانت مقتصرةً على الأماكن الباهظة والمراكز التجارية، ولكنها كانت تقرأ وتُشاهد الكثير عن مصر، وموقف "الخرتي" هذا رأته مُمَثلًا في مشهدٍ تلفزيوني من قبل.. أخذت منها السُّكر دون أن أستعمله، أخبرتها أنني لا أضع سُكر على المشروبات الساخنة؛ فقد ورثت هذه العادة من جدي رفعت.

تحدثنا كثيرًا، كنتُ متلهفًا لصحبة آدميةٍ لا تخشاني ولا تُحدثني عن تجربتي الأليمة، اشتقت لعقل يُخاطب عقلي فلا يتوجس مني كالأقربين ولا يُعاملني بعقليات القرويين التي تهابني.. كانت آية في الجمال الشكلي والعقلي، لم أشعر بدفءٍ كهذا منذ أيام الجامعة؛ حين كنتُ أهيم بمريم كالمغفل.

سألتني عن معنى كلمة "الصهبجية" التي كان يُدندنها عازف العود الجالس في بقعةٍ بارزةٍ من المقهى، فأخبرتها أنني أحب هذه الأغنية واهتممت في شبابي بمعرفة تاريخها؛ شرحتُ لها مُستفيضًا معاني كلماتها التي أبدعها صلاح جاهين

ولحَّنها سيد مكاوي، وطلبت من العازف أن يغني "الليلة الكبيرة" لأبرهنَ لها على عبقرية الثنائي جاهين ومكاوي، لم أشعر بنفسي وأنا أدندن معه بصوتٍ مزعجٍ لتضحك إيفلين ساخرةً مني.

مرَّ الوقتُ سريعًا؛ تحدَّثتْ معي عن طفولتها وعن قصتيْ الحب اللتين مرَّت بهما.. حكيتُ لها عن مريم التي تزوجَت ابن خالتها فور التخرج وتعمل الآن موظفةً بإحدى المصالح الحكومية؛ رأيتها مصادفةً بعد أن تغيرت كثيرًا عن صورتها الملائكية لتتحولَ إلى أم كأي أم مصرية لا هم لها إلا بيتها. بدأت الشمسُ في البزوغ فطلبتُ الحساب، اندهشتُ حين أخرَجَت ورقة مالية من حقيبة يدها، رفضتُ مقاسمة الحساب في حزمٍ. لم نتبادل الحديثَ طوال طريق العودة؛ كأننا اكتفينا من حاجتنا إلى الصحبة الآدمية، كانت ظروفنا الحالية متشابهة: فهي غريبة في بلدٍ غريبٍ عنها وأنا غريبٌ في موطني، وفي ذاتي أيضًا!

حَاوَلَت بث الطمأنينة في قلبي؛ فأخبرتني أنها ستقومُ بتشريح النسناس وتُحاول الوقوف على سبب فشل التجربة معه حتى نحاول تفاديها.. لم أرغب في تصديق الأمل الذي زرعته بداخلي، شكرتُها وطلبتُ منها الإسراع في ذلك.. سألتني إن كنت سأعودُ إلى طحا فأخبرتها أنني سأزور شكري ابن عمي أولًا.

***

ابتعتُ لشكري أصنافًا من الفاكهة، وتوجَّهت إلى غرفته في المصحة التي ما زلت أتذكر رقمها.. لم أجده على فراشه فسألتُ عنه إحدى الممرضات التي ميَّزت ملامحها من الزيارة الأولى.. قالت بقلقٍ إن الدكتور نجيب كان يُحاول الاتصال بي منذ أول أمس، ولكن يبدو أن موظف المستشفى الذي أخذ بياناتي قد دوَّن رقمي بالخطأ.. سألتها عن السبب الذي جعلهم يُحاولون الوصول إليَّ.. ردَّت بنبرةٍ خائفةٍ:

- إحنا عارفين إنك مش قايل لحدّ من أهله على موضوع الإدمان ده؛ فحفاظًا على سرية الحالة استنينا إنك تيجي تزوره بنفسك...

قاطعتها قائلًا بصوتٍ عالٍ ذبح الهدوء المسيطر على المستشفى:

- شكري ماله؟!

قالت بصوتٍ خفيضٍ:

- قطَّع شرايينه بالموس أول إمبارح.

***

نظر فرحات إلى الأرض دون أن تكفَّ قدماه عن الاهتزاز، في حين ظلت نرجس صامتةً لا تُبدي أي ردة فعلٍ مُكتفيةً بوقفةٍ غير مستقيمةٍ ونظرةٍ خاويةٍ، كان تأثير الحبس باديًا

عليها؛ بدايةً من شَعرها المنكوش ووجهها المنطفئ وعينيْها الذابلتيْن، مرورًا برائحتها المزرية وحالة ملابسها الرثة التي تمزَّق منها ما تمزَّق واتسخ منها ما اتسخ، وانتهاءً بصوتٍ خفيضٍ ردَّت به على دعوة عطوة لها بالجلوس مقابلةً لفرحات في صالون بيته بعد أن اتصل بناجي ليُخبره باكتمال الحضور.

أتى ناجي مُتعجلًا، أخرج مجموعةً من الأوراق ومررها على ثلاثتهم، وقال بلهجةٍ هادئةٍ وبألفاظٍ منتقاةٍ كأنه كان يتدربُ على هذا الخطاب لفترةٍ طويلةٍ:

- طبعًا ما حدّش فينا فاهم اللي حصل ليحيى، وكلنا ملاحظين تصرفاته الغريبة وكلام أهل البلد عنه؛ اللي يقول عليه وَلِي، واللي يقول بيقعد بالليل مع رزق المجذوب يتكلموا للصبح، واللي يقول إنه بينزل التُّرَب في عزِّ الليل، ده غير طبعًا مراته اللي طلبت منه الطلاق وقالت إنه معادش جوزها.. وواضح إن كلامها صح، يحيى مات واتدفن خلاص..

سأله فرحات بنبرةٍ مترددةٍ كيف يقول هذا على أخيه، وقد شهد بنفسه عودته.. رد عطوة بهدوءٍ:

- اللي عايش معانا ده شبه يحيى، بس مش تصرفات يحيى، يعني مثلًا من إمتى وهو بيحب يقعد في طحا؟.. ومن إمتى وهو بيحب الواد رزق؟.. ومن إمتى

وهـو بيحـب قعـدة الـتُّرَب وبيصـلي هنـاك؟.. أسـئلة كتـير مالهـاش غـير التفسـير الـلي كلنـا خايفـين نقولـه بصـوت عـالي.

قال فرحات بنفس التردد:

- طب والحل؟

وكأن ناجـي كان ينتظـر هـذا السـؤال فـردَّ بسرعـة كتلميـذٍ نجيـبٍ:

- مـا إحنـا متجمعـين إنهـاردة عشـان الحـل ده؛ دلوقتـي إحنا أقـرب أربعـة ليحيـى سـواء مـن حيـث صلـة الـدم أو مـن حيـث المعيشـة بحكـم وجـوده دلوقتـي في طحـا، أنـا كان ممكـن أعمـل كل حاجـة لوحـدي بـس عايزكـوا كلكـوا تسـتفيدوا..

بـدا الاهتـمام لأول مـرةٍ عـلى وجـه نرجـس واسـتفسرت عـن نـوع الفائـدة التـي قـد تنالهـا داخـل حبسـها الإجبـاري.. ردَّ عليهـا عطـوة مطمئنًـا أنـه سـيُنهي حبسَـها، وسـتحصل أيضًـا عـلى مبلـغٍ كبـيرٍ تبـدأ بـه حيـاةً جديـدةً، ولهـا مُطلـق الحريـة في مغـادرة طحـا، وإن أرادت الحيـاة في شَـقة الحسـين فـلا بـأس.. قالـت معترضـةً:

- هاقعد مع أستاذ ناجي إزاي في بيت لوحدنا؟

ردَّ عطوة ضاحكًا:

- بسيطة؛ نشيل لقب أستاذ من قبل اسمه.. ونخليهولك "سي ناجي".

أومأ ناجي موافقًا وقال لنرجس بحنانٍ:

- العُمر بيجري يا نرجس، وقطر الجواز قرَّب يفوتنا.. وإحنا أولى ببعض من الأغراب.

لم تبدِ نرجس موافقةً كما لم تُبدِ اعتراضًا واضحًا فعقَّب عطوة قائلًا إن السكوت علامة الرضا.. ثم نظر إلى فرحات مُردفًا:

- وإنت مش عايز تعالج حمزة برَّه مصر؟

ردَّ فرحات لا مُباليًا:

- نفس الكلام قولته ليا بعد البشمهندس أحمد ما مات، وحبيت تاخد أرض زيادة عن نصيبك.. ووعدك كان أمريكاني مالوش قيمة، دلوقتي حمزة كبر ومشكلته كبرت معاه، وعلاجه بقى أصعب.

تجاوز ناجي ذكرى أبيه، وأكَّد لفرحات أن علاج ابنه حمزة سيكون على ضمانته هذه المرة.. طلب منه عطوة أن يسأل عن مستشفيات خارج مصر لكي يذهب معه إلى البنك ويدفع له مقدم العلاج فيها. قال فرحات مُستفهمًا:

- وإيه بقى الحل السحري اللي ظهر فجأة لكل مشاكل الطحاوية؟!

رد عطوة بخبثٍ: "يحيى".. شرح ناجي مُفسرًا:

- حادثة يحيى اتوثقت عند الحكومة لمَّا رُحت أبطل شهادة وفاته وأروح السجل المدني أثبت إنه لسّه عايش، ممكن نعمل تقرير طبي نكتب فيه كل الإصابات اللي يحيى سبِّبها لنرجس بتاريخ يكون بعد حادثة الدفن، ده غير طلب مراته للطلاق..

أكمل عطوة وهو يشير بيده نحو الحاضرين:

- ومع شهادة أقرب الناس ليحيى تبقى كملت.

سألت نرجس:

- هي إيه دي اللي كملت؟

ردَّ ناجي بحسمٍ:

- قضية الحَجْر.

***

ساعِدٌ تم تكبيله داخل أصفادٍ لامعةٍ مُحكمةِ الغلق عند رأس فراشٍ ضيقٍ.. جسد أصبح نحيلًا كورقةٍ ذابلةٍ.. وظلي المنعكس على حائط الغرفة خافتة الإضاءة يراقب خطوط رسم القلب الخاصة بشكري؛ كانت تتحرك بإيقاعٍ منخفضٍ مستفزٍّ ولكنه منتظم.. جهاز تنفس صناعي يضخ الأكسجين لشكري، وقد تكاثفت الأبخرةُ على سطح القناع

الشـفاف المتصـل بوجـه ابـن عمـي.. الكثـير مـن الضـمادات المُحيطـة بسـاعده الأيـسر غيرالمُصفـد.. كيـس دم كبـير الحجـم يتصـل خرطومـه الرفيـع بذراعـه.

جـاءني الدكتـور نجيـب السـعدني ليُطمئننـي عـلى اسـتقرار حالـة شـكري واقـتراب نهايـة غيبوبتـه بفضـل رحمـة اللـه ثـم اسـتعدادهم الطبـي لأي حالـةٍ مماثلـةٍ قـد تحـدث داخـل أروقـة المصحـة، توسَّـل إليَّ ألا أخـبر أحـدًا بمحاولـة شـكري المتهـورة حفاظًـا عـلى سـمعة المـكان، كـما طلـب منـي ألا أتـردد في طلـب أي شيء قـد أحتاجـه أثنـاء بيـاتي معـه.. صافحتـه وعـاودت الجلـوس بجـوار الفـراشِ خائضًـا في شـطرٍ مـن ذكريـاتي مـع شـكري الطحـاوي قبـل أن يتحـول إلى هـذا المسـخ المسـتكين أمامـي..

سرحـتُ في أول مـرةٍ يـرى فيهـا القاهـرة بعـين المقيـم لا الزائـر؛ تلفـت حولـه مراقبًـا جميـع الأماكـن والوجـوه بانبهـارٍ واضـحٍ، حـاول حفـظ الطـرق والحـارات والأزقـة والاختصـارات المختلفـة، أبـدى امتنانـه لموافقتـي عـلى إقامتـه معـي أنـا وناجي في شـقة الحسـين، انبهـر مـن منظـر الدراويـش الهائمـين يحملـون البخـور ويطلبـون المـدد مـن ابـن بنـت النبـي، أخـبرني بحـماسٍ أنـه سـيُصلي كل فروضـه في مسـجد سـيدنا الحسـين لتحـل عليـه البركـة فضحكـت في سري قائـلًا: "كان غـيرك أشـطر". كان يحمـل حقيبـة ملابـس ثقيلـة مكتظـة بملابسـه وجـواب تعيـين في إحدى

المدارس الحكومية بشهادته الأزهرية من معهدٍ قريبٍ من طحا، استقرتْ فوق ذراعيه "مشنة" فلاحي لم أعرض عليه حملها؛ كانت مكتظةً بطعامٍ أشرفت فرحة بنفسها على إعداده؛ كانت فترة امتحانات ناجي في الثانوية العامة ولم نكن قد زرنا طحا مُنذ زمنٍ. بدأت أتلو عليه القواعد التي تعلَّمتها في وقتٍ طويلٍ؛ لتكون دستورًا له يُساعده على التأقلم سريعًا مع الحياة في العاصمة:

١. حاول التخلي عن لهجتك القروية، وملابسك كذلك، في أسرع وقتٍ ممكنٍ.. ولا تتلفت حولك كثيرًا.

٢. تجنَّب الذهاب إلى بعض الأماكن؛ كمحطات القطار يوم الخميس، ومجمع التحرير يوم الأحد، ومباريات الأهلي والزمالك، وأماكن تحرُّك المواكب الرئاسية.

٣. لا تركب سيارات الأجرة؛ فالحافلة ستنقلك إلى أي مكان دون التهام نصف راتبك في المشوار الواحد.

٤. إذا سألت عن عنوان مكانٍ معينٍ ثلاث مرات وتلقيت ثلاث إجابات مختلفة.. فجميعهم على خطأ.

٥. يجب أن تعتاد الزحام، وأن تذوب فيه تمامًا.

٦. لا تتعجب من سرعة خطوات "المصراوية" في السير؛ فهذه طبيعتهم التي ستشعرك كأنهم يهربون من شيء ما لا يعرفه أحد.

٧. لا تقع في حب أول فتاة تقابلك؛ فمعظمهن يتلهفن للزواج من المغفلين أمثالك.

كان شكري ذكيًّا بما يكفي لينفذ كل التعليمات المذكورة، وكان قرويًّا بما يكفي ليغفل القاعدة الأخيرة؛ جاءني بعد أسبوعين من امتهانه لتدريس اللغة العربية مصارحًا بمشاعره تجاه إحدى طالباته من ذوات العودِ النحيل "الفرنساوي" الذي لم يجد له مثيلًا في طحا، كان أكبر مني في السن ولكنه كان يُعاملني كمرشده في "البَنْدَر" بحكم خبرتي ودخولي الجامعة..

أدهشني إصراره على الزواج من هذه الطالبة دون غيرها، اقترحت عليه الانتظار والتكتم على رغبته إلى أن تنتهي محبوبته من الدراسة الثانوية؛ حتى لا يؤثر على تقدُّمها في التعليم، وحتى لا تسوء سمعته داخل المدرسة. ساعده حماس أهل العروس طمعًا في ثروته ورغبته المستعرة في الزواج على إنهاء شقته الجديدة بسرعة.. سَانَدتَه أمام العائلة في طحا؛ لم يكن وقوفي مع شكري حبًّا له قدر ما كان رغبةً في رحيله من شقة الحسين، ونكايةً في عطوة الذي خاب ظنه في خلفته باستثناء حسن الذي بدأ يدير تجارته آنذاك.. وقد كان.

تذكرتُ بداية معرفته بصاحب عمارته الجديدة واعتياده على جلسات "الحظ" التي كانت تُقام كل أسبوع فوق

سطح العقار، بدأ يفقد بريق عينيْه وإحمرار وجنتيْه، كما فقد بعضًا من وزنه وظهر عليه الإرهاقُ الدائم، لم أره كثيرًا بعدها كما انقطع عن أهله في طحا، لم أعرف متى بدأ تحديدًا إدمانه لذلك المسحوق الأبيض اللعين الذي دمَّر حياته كليًّا...

استفاق شكري من غيبوبته وبدأ يغمغمُ بكلماتٍ غير مفهومةٍ، حاولتُ تهدئته وضغطتُ على جرس الاستدعاء المثبت أعلى الفراش لتأتي إحدى الممرضات ناظرةً نحو الأرقام الموجودة الجهاز وطمأنتني على سلامة شكري. قرابة الفجر كان قد استرد وعيه تمامًا وبدأ ينوح بصوتٍ متهدجٍ قائلًا:

- محمد مات بسببي يا يحيى.. ده أنا كنت بعتبره عيل من عيالي!

واسيته بهدوءٍ محاولًا ألا أشعره بفاجعة ما اقترفه، قلت له إن تلك الحادثة كان مقدرًا وقوعها قبل أن يُولد الولد من الأساس، وأن عمره قد انتهى.. ثم استدركتُ متسائلًا:

- إنت عرفت إزاي إنه مات؟!

ردَّ ببصرٍ زائغٍ:

- أمه جت قالت لي اللي حصل، وجابت لي الموس معاها عشان أخلَّص نفسي وأخلَّصها.

أومـأتُ بـرأسي متأسـفًا؛ اسـتنتجت أنهـا أضمـرت كرههـا لـه أمـام العاملـين في المصحـة حـين أتتـه، ولم يفتشـها أحدهـم ظنًّـا منهـم أنهـا زارتـه لتطمـئن عليـه وتقـف بجـواره في محنتـه. أطلقـتُ لسـاني عليهـا بالسـباب.. قاطعنـي شـكري قائـلًا:

- حقهـا.. السـت ممكـن تسـتحمل أي خسـارة إلا الضنـا، ولـو جـت تـاني هاخـد منهـا المـوس وهاكـرر الـلي عملتـه برضـه!

حاولـتُ تهدئتـه دون أن أخـبره بوفـاة أخيـه حسـن وجدّتـه وبحادثتـي، ودَّعتـه دون أن أتمنـى لـه الشـفاء؛ فلـم أعلـم إن كان يتـألم بسـبب تعافيـه مـن الإدمـان أم بسـبب عقـدة الذنـب، أم بسـبب جـراح يـده!

قُـدت سـيارتي هائمًـا أقـاوم رغبـةً شـديدةً في النـوم، النـاس يسـعون عـلى رزقهـم وأنـا أسـعى نحـو سريـري الـذي اشـتقتُ إليـه، نجـوتُ بأعجوبـةٍ مـن الاصطـدام بسـيارة نقـل كبـيرة.. لا أعـرف كيـف يسـمحون لهـم بالسـير وسـط المدينـة دون الالتـزام بالطـرق الخارجيـة المرسـومة لهـم، سـمعت مؤخـرًا أن إحـدى هـذه السـيارات قامـت بدعـس النصـف السـفلي لطفـلٍ صغيـرٍ مـما اضطـر أهلـه لإجـراء عمليـة بـتر لقدميْـه...

لا أعلـم مـن أيـن ظهـر هـذا الكلـب الأسـود الـذي تفاديتـه بصعوبـة وسـط سـباب السـائقين مـن حـولي!

نظرتُ إلى هاتفي لأجد مكالمتيْن فائتتيْن من لطفي أبو الخير؛ صاحب دار النشر الذي كنتُ أريد العمل لديه.. مع رسالةٍ منه تُطالبني بمعاودة الاتصال به لأمرٍ ضروري، لن أتصل به ليُسمعني كلامه المحفوظ عن ركاكة أسلوبي الأدبي وضرورة وجود بصمةٍ أدبيةٍ تجعل مَنْ يقرأ كلماتي يعرف هوية كاتبها دون أن يرى اسمي. عُدت إلى المنزل خطر لي أن أستحم قبل النوم ولكن طاقتي لم تسعفني؛ لأنام بملابسي الداخلية قبل أن أكمل ارتداء ملابس البيت.

نمت كأهل الكهف دون أن أقلق من سباتي العميق لحظة؛ حتى برودة الجو لم تعد تمنع عن عيني النوم، استيقظت ليلًا على صوت هتافٍ مُزعجٍ، وضوضاء ناتجة عن الطَرْق العالي المستمر على باب البيت، هبطت السلم مُسرعًا دون أن أعي ما يحدث أو أحاول فهمه، ركضتُ نحو الباب ناسيًا أنني لا أرتدي سوى ملابسي الداخلية، أردت فقط أن أعرف طبيعة الكارثة التي حلّت أثناء نومي.. فتحت البابَ لأجد الكثيرين من أهل البلد ومن أبناء عائلتي، ينظرون لي باحترامٍ وهيبة بالغين على الرغم من منظري الهزلي ووجهي المنتفخ، احتل رزق بؤرة التجمُّع، أشار للناس كي يحملوني على أكتافهم، ثم رفع يديْه عاليًا وقال بصوتٍ عالٍ دون أن يفقدَ لهجته المختلة: "مدد يا شيخ يحيى مدد!" ليردد الباقون في صوتٍ واحدٍ:

- "مداااااد"

١٣

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ سَرَابًا

الجمعة 3 مارس 2006

بعد أيامٍ من الاعتكاف داخل مسكني، لا أفعل شيئًا سوى الدعاء بأن ينتهي هذا الكابوس المُقيم.. كان لا بد من الخروج لصلاةِ الجمعة. فكَّرت أن أمكثَ في البيت ولكن طَرَقات أهل طحا على بابي كانت كفيلةً بإلغاء هذه الفكرة؛ كانوا ينشدون المسير معي إلى الجامع، وكما توقعتُ لم أرَ رزق معهم؛ يبدو أن أحدًا سواي لم يعرف ديانته الحقيقية.. أو بمعنى أدق لم يهتم بالسؤال أصلًا، لا أظن أن هذه الأمور تحتلُّ حيزًا في وجدانه؛ فهو هائمٌ في ملكوته بعيدًا عن تفاصيل النسك والعبادات..

طلبتُ منهم بهدوء ألا يحملوني كما فعلوا يوم تنصيبي.. كما حاولتُ أن أبعدَ يدي اليمنى عن شفاهُم.. فأطاعوا. كانت الخُطبة عن الطاعة، أو بمعنى أصح طاعة أولي الأمر

مـن الحُـكَّام؛ فحاولـتُ الاسـتفادة مـن النصـوص المذكـورة بعيـدًا عـن تأويلهـا الـذي لم يـلاقِ قناعـة لـديَّ ولا حتـى لـدى الخطيـب الـذي طفـق يُـردد مـا كُتِـب أمامـه في ورقـةٍ لا يعلم مَـن كتبها إلا اللـه.. وعـلى العكـس كان معظـم المُصلـين؛ الذيـن كانـوا يأخذون كلام الخطيـب والتفسـيرات القائمـة عـلى اجتهـادٍ شـخصي كأنهـا نـصٌّ دينـي. شـتَّ عقـلي بعيـدًا عـن الخُطبة وعـن نظـرات الناس الهائبـة المُصوبـة تجاهـي، تمنيـتُ حينهـا أن تنشـق الأرضُ مـن تحتـي أو تحملنـي الريـاحُ بعيـدًا.. زاغ بـصري وتحوَّلـت الخطبـة في أذني إلى مجـرد غمغـماتٍ غـير مفهومـةٍ؛ سرحـتُ قليـلًا في إيفلـين وتقسـيمات جسـدها البديعـة... اسـتعذت باللـه سريعًـا لخـوضي في مثـل هـذه الخواطـر داخـل بيتـه، اسـتعدت حديثـي مـع رزق منـذ يومـين حـين اسـتدعيته ليأتينـي منفـردًا كي أسـأله عـن تبريـرٍ مناسـبٍ لفعلتـه التـي كانـت بمثابـة منحـةٍ ممـن لا يملـك لمـن لا يسـتحق أمـام مـن لا يفقهـون، عكَسَـت تصرفاتـه عقـلًا واعيًـا ليـس معتوهًـا بشـكلٍ تـام كـما يظـن الجميـع، نبَّهتـه أن مشـكلته الأساسـية في النطـق لا الإدراك.. لم يُعلـق عـلى النقطـة الأخـيرة وأخـبرني بلهجتـه الغريبـة أنـه لم يفكـر كثـيرًا فيـما اقـترف ولا يعـرف الدافـع الحقيقـي وراء تصرفاتـه؛ خاصـةً أنـه -بالفطـرة- لا يؤمـن بالأوليـاء، كنـتُ أعلـم أن مـا فعـل هـو السـبيل الوحيـد لـكي يتقبلنـي أهـل البلـد وسـطهم مـرةً أخـرى؛ حتـى يتناسـوا حادثتـي بالتدريـج ويُعاملـوني بشـكلٍ أقـرب للطبيعـي.. شـكرته عـلى نُبـل غايتـه في حمايتـي منهـم ولكـن

الوسيلة ستجعلني أحتل بؤرة اهتمامٍ لا أتحملها، وسأكونُ مُطَالبًا بالكذب على الناس طوال الوقت وادعاء ما ليس بيدي.. نصحني أن أكتفي بالصمت وأن أستغل مكانتي التي زرعها بداخلهم فيما ينفع.

أعددتُ له قدرًا من الطعام، اقترح عليَّ إقامة ضريحٍ خاص بي وصومعةٍ أعتكفُ بداخلها فضحكتُ ورفضتُ رفضًا قاطعًا؛ لأن في هذا التصرُّفِ مبالغةً قد تضعني في خانة الخارجين عن القانون.. عزمتُ على الاكتفاء بالصمت دون السعي لاكتساب مكانةٍ أعلى، ودون محاولة إنكار ادعائهم.

حاولتُ أن أدعو الله في السجدة الأخيرة كعادتي، لم أعرف ماذا أطلب منه.. كيف أطلب وأنا لا أعلم عِلتي من الأساس. كان سجاد الجامع فخمًا مُعبقًا برائحة مميزة للفرشِ الجديد.. تذكرت السجاد البالي في زاوية الشيخ صالح، والذي طالما التصقت رماله بجبهتي أثناء السجود.

قُضِيَت الصلاة، التفتُّ إلى الخلف بعد السلام مُتعجبًا في قرارة نفسي من ذلك العدد المهول الذي يُطالعني مُنتظرًا مني ما ليس بيدي، كيف لكل هؤلاء أن يسيروا وراء كلامٍ قاله شخصٌ معتوه؟!.. كيف يصنعون مني إلهًا دون أن ينالهم مني ما يفيد أو يُؤذي؟.. ككُفار الجاهلية يعبدون تمثالًا نحتوه بأيديهم، وإن كان من العجوة أكلوه بعد أن يصنعوا ما هو أكبر منه مُعتقدين أن بيده الحل والخلاص،

يتركـون مـا هـو حقيقـي ونافـع سـعيًا وراء خرافـةٍ وسرابٍ لا يملـك مـن أمرهـم ولا مـن أمـره شـيئًا!

سرتُ ببـطءٍ وسـط نظراتهـم، مـال عـليَّ أحدُهـم فجـأةً وقـال بحزمٍ:

- عم منصور بتاع الرُّخام عايزك ضروري يا مولانا..

نظرتُ له مستفهمًا، فقال بنفس اللهجة الجادة:

- ليك عنده أمانة لازم تاخدها بنفسك.. تعالَى لوحدك.

***

نجحـت إيفلـين في الحفـاظ عـلى هدوئهـا أثنـاء جلوسـها مقابلـةً لمكتـب وكيـل النيابـة الـذي كان حريصًـا عـلى التعامـل معهـا بشـكلٍ قانـوني صرفٍ بحُكـم جنسـيتها، اسـتجوبها بشـكلٍ مبـاشرٍ قائـلًا:

- بعـد حادثـة العربيـة الـلي جـوزك اتـوفى فيهـا يـا دكتـورة سـألنا حضرتـك إذا كنتـي حاسـة إن في الموضـوع شـبهةً جنائيـةً..

ردَّت إيفلـين بهـدوءٍ أنهـا لا تـزال عنـد رأيهـا: فلـم تسـمع من أمجـد يومًـا عـن وجـود عـداوةٍ أو خصومـةٍ بينـه وبـين أي أحـدٍ.. قاطعهـا وكيـلُ النيابـة قائـلًا إنـه حـين سـأل أهـل أمجـد كان لهـم رأي آخـر؛ لم يسـتبعدوا أن تكـون الحادثـة مُدَبـرة طمعًـا

في الاستيلاء على ثروته التي كوَّنها خارج مصر، علاوة على طبيعة مهنته التي تفرض عليه التعامل مع أشخاصٍ غير أسوياء نفسيًّا.. نظرتْ إيفلين أمامها دون أن ترد فأكمل الوكيلُ حديثه:

- بصراحةٍ أنا كنت مؤيد لرأي حضرتك في إن الحادثة قضاء وقدر.. لحدّ ما جالنا اتصالٌ من مجهولٍ خاف ييجي يُدلي بأقواله في تحقيقٍ رسمي.. قال إنه جاركوا وشاف من بلكونته عربية واقفة مستنية أمجد، أول ما اتحرك العربية دي اتحركت وراه.

وضع أمامها الورقة التي تم فيها تفريغُ المكالمة، والتي وصف فيها المُتَّصِل نوع السيارة ولونها بمنتهى الدقة، أخبرته أنها لا تقرأ العربية جيدًا. حاولت الحفاظ على هدوئِها واستفسرت عن السبب الذي دفعه لاتهامها دون غيرها.. أجاب بلهجةٍ جادةٍ أن بوليصة التأمين هي السبب؛ كونها المستفيدة الأساسية من وفاة أمجد.. ردَّت إيفلين بلهجةٍ جادةٍ أنها لن ترد إلا على اتهامٍ رسمي، وفي حضور المحامي الذي وَكَّلته.. قاطعها وكيلُ النيابة قائلًا بلهجةٍ خبيثةٍ:

- قصدك المحامي اللي جبران جابهولك.. مش جبران ده برضه كان التمرجي بتاع أمجد؟

ردَّت إيفلين بغضبٍ:

- تلميحك مرفوض.

- أقول لك أنا التلميح المقبول: الاتصال المجهول ده لوحده مش دليل كافي، ومش دليل أصلًا.. بس بعد الواقعة أهل جوزك اشتبهوا في إن الحادثة بفعل فاعل؛ بناءً على شكوكهم تجاهك وبناءً على المكالمة المجهولة..

أخرج ورقةً أخرى من وسط الملف الموضوع أمامه، وأكمل قائلًا:

- وعشان نتأكد طلبنا التقرير الفني من إدارة المرور؛ الخبير اكتشف إن سلك الفرامل بتاع العربية كان مقطوع قبل ما تتحرك، وطبعًا اللي قطعه حدّ مستفيد من الوفاة؛ استفادة تمنها عشرة مليون جنيه!

ردَّت إيفلين بنفس الهدوء مؤكدةً أنها لم تكن تعرفُ موضوع البوليصة قبل وفاة زوجها، طلبت منه أن يستجوبَ جبران لأنه كان الموكَّل بهذا الأمر من أمجد، قالت بتهكم أنها ليست مجنونةً كي تقتلَ زوجها الذي ستفلس بعد رحيله؛ لأنها لم تجد في مصر العمل المناسبَ تخصصها.. قال وكيلُ النيابة:

- بس على الورق إنتوا مش متجوزين.

شَرَحَت له إيفلين أن إجراءات الزواج في المجتمعات الغربية أسهل كثيرًا مما يتم في مصر؛ فأمجد تقدَّم لها بشكلٍ

مفاجئ في حفلٍ صغيرٍ وسط مجموعةٍ من الأصدقاء، وافقَت وتم الاحتفالُ واستكمالُ المراسم البسيطة، وبعد أيامٍ وقَّع كلاهما على مجموعةٍ من الأوراق لضمان حق كل طرف دون توثيق الزواج نفسه في أيٍّ من السفارتين المصرية أو الألمانية.. عقَّب وكيلُ النيابة أن هذا سبب أدْعَى لكي تقتله من أجل أمواله؛ فعَلاقتهما غريبةٌ ليست زواجًا تقليديًّا.. ردَّت إيفلين متعجبةً من طريقة تفكيره، قالت إن من فقدته كان زوجها وليس خليلها، وأن بقاءها معه أهم من أي مالٍ، أنهت حديثها محاولةً الحفاظ على رباطة جأشها:

- أمجد كان حب حياتي.

نظر وكيلُ النيابة في الورق أمامه، قال بلهجةٍ خبيثةٍ:

- أصل تحريات الشرطة مكتوب فيها إنك كنتي سهرانة في الحُسين لحدّ الفجر مع يحيى الصديق الأقرب لأمجد؛ "حُب حياتك"!

***

انتظرتُ حتى انفضَّ الجمْعُ وسألتُ أحدَ فلوله عن مكان "منصور" هذا؛ فوصفَ لي المكان وعرض عليَّ القدومَ بصحبتي، ولكن نظرةً رادعةً مني جعلته ينسحبُ. اتبعتُ وصفَه لأجدَ مسكنًا صغير الحجم على طرف البلد، كان البابُ مفتوحًا وعتبته منخفضةً عن الأرض حوالي مترين..

ولكنني حين دخلتُ شعرتُ بانتقالي إلى عالم آخر؛ كان الهواء مُفعمًا برائحةِ البخور، باردًا كأنه يصدرُ من مُكيف هواء خَفِي، تسرَّب إلى أذني صوت "نجاة الصغيرة" المُنبعث من مُسجلٍ قديمٍ، كما رأيت مخطوطاتٍ كثيرةً تُزيِّن جدران المكان أعتقد أن كاتبَها منصور نفسه الذي لم يرفع رأسَه نحوي وظلَّ مُنهمكًا في نحت قطعةٍ من الرخام الصلب.. كان عجوزًا نحيلًا أصلع الرأس يرتدي نظارةً سميكةً، ذكَّرتني هيئتُه إلى حدٍّ كبيرٍ بالراحل نجيب محفوظ.. قال بصوتٍ هادئٍ دون أن ينظرَ نحوي وهو يُشير إلى ركنٍ في صومعته رُصَّت فيه قطعُ الرخام المُستطيلة فوق بعضها:

- أمانتك هتلاقيها وسط الشغل ده.. طلَّعها وخدها.

لم أفهم قصده حتى اقتربت وبدأتُ أدقق النظر في القطع التي كانت ملفوفةً في ورق جرائد، حتى وجدت رخامةً تحمل اسمي.. عقَّب مُبتسمًا:

- امسكها باليمين بس يا يحيى، ربنا يجعلك من أهله.. ما تقلقش أنا عاملهالك من رُخامٍ خفيفٍ.

فزعتُ حين تخيلت أن هذه الرُّخامة ستثبت يومًا ما فوق قبري.. أشار لي بالجلوس على مقعدٍ خشبي بالٍ وقال:

- عرفت إنك طلعت عايش واتدفنت بالغلط وأنا في نصِّ الشغل، فكمِّلت الاسم والديباجة وسيبت تاريخ الوفاة

لتقديـر ربنـا. تعـرف إني مـا بحبّـش الأعـمال الناقصـة؟.. رُخامتـك دي تـاني عمـل ناقـص أعملـه في حيـاتي.

سـألته بفضـولٍ عـن العمـل الأول الـذي لم يُكملـه.. ردَّ بتلقائيـةٍ:

- رُخامتـي يـا ابنـي.. أنـت فاكـر إني هاسـيب نحَّـات غـيري يشـتغل عـلى قـبري!

أخـرج لفافـةً جلديـةً بصعوبـةٍ مـن درج مكتبـه وفـك اللفـة ليكشـفَ عـن قطعـة رخـام مُبهـرة المنظـر، طـرق عليهـا قائـلًا بفخـرٍ:

- دي حتـة "كريـم مارفيـل" مـش موجـودة في بلـدك كلهـا.. مـش سـايب مـكان لتاريـخ الوفـاة، يبقـوا ينحتـوه بقـى عـلى أي رخامـة صغـيرة ولا عنهـم مـا نحتـوه.

نهـض بصعوبـةٍ وأحـضر "سـبرتاية" وبـدأ في إعـداد القهـوة بمنتهـى التـأني.. لم يسـألني عـن كميـة السُّـكر التـي أفضِّلهـا ووضـع لكلينْـا نفـس المقـدار.. شـعرتُ أنـه يشـتاقُ إلى حديـث البـشر، قبـل أن يُكمـل كلامـه قاطعـه اقتحـامٌ مفاجـئٌ للبيـت بواسـطة شـخصٍ لم أعرفـه، بـدا لي أن كليْهـما يعـرف الآخـر، سـبَّه منصـور سـبةً لا تتـلاءم مـع سـنه ولا هيبتـه، ولكـن الرجـل قابـل السـبة بضحكـةٍ سـمجةٍ، عـدَّل مـن بدلتـه الرخيصـة التـي

اختلف لونها عن لون البنطلون، قال بعدما صافح منصور باحترام وصافحني بهيبةٍ مصطنعةٍ:

- عايزك في طلب مستعجل يا عم منصور.. محتاجين يافطة مستطيلة من أغلى نوع رخام عندك، لازم تخلَّصها قبل افتتاح المصنع.

سأله منصور مُتهكمًا:

- وطبعًا عايز نكتب عليها اسم المحافظ عشان هايفتتح المصنع؟!

لم يلحظ الرجلُ السخرية وأمَّن على حديثه قائلًا:

- هاتكتب الديباجة المُعتادة، وإن الافتتاح تم في عهد السيد الرئيس والسيد المحافظ والسيد رئيس المجلس المحلي.. بس أهم حاجة تنحت اسم الريِّس كويس وبخط كبير، عايزينه يفضل موجود على طول، ما يبوظش من خربشة العيال الصغيرة على الرخام.

ردَّ منصور ضاحكًا:

- يا ابني هو الريِّس نفسه ضامن يكمِّل في مكانه عشان أضمن لك يافطته تفضل مخلدة؟!

لم يرُد الرجل وترك مبلغًا من المال ملفوفًا في ورقةٍ فوق مكتب منصور، خرج يضربُ كفًّا بكفٍّ مُتحسرًا على عقل منصور "المغيب".. لم يعترض الأخير، وضع المالَ في

جيبه وغمغم قائلًا لنفسه: "ما حدِّش هايسلم من خربشة العيال". غرق في نوبة ضحك لم أرَ داعيًا لها، والتفت إليَّ متسائلًا بنفس اللهجة الرصينة عن شعوري تجاه "الهوجة" الحاصلة في البلد بسببي.. أجبته بصدقٍ أنني لا أريد سوى أن أعيش في حالي؛ فلا أنا مُختل عقليًّا ولا ملبوس بالجن ولا ولي من الصالحين، ولكن الناس مُصِرون على وضعي في أي قالب يُلائم معتقداتهم.. هزَّ رأسَه متفهمًا دون تعليقٍ وقال مُغيرًا الموضوع:

- أنا كنت نحَّات مشهور في القاهرة زمان، وكان عندي معرض خاص بأعمالي.. أيام ما كانت القاهرة قاهرة بجدّ، وكان الناس عندها ذوق حقيقي؛ كانت كل شِلة فيها النحَّات والعازف والشاعر..

سألته مبتسمًا:

- والمثقف؟

أجاب:

- كلنا كُنا مثقفين.. الطالب الجامعي وقتها كان له قيمة حقيقية.

أبديت حسرتي مُترحمًا على أيام المَلكية.. سألني بلهجةٍ صعبةٍ:

- هي الملكية خلصت؟!

ظننتُ أنه فقد الشعور بالزمن كدأب الشيوخ، كدتُ أعيد عليه التاريخ بداية من عام ١٩٥٢.. أشار لي بيده كي أتوقفَ؛ فهو يذكر كل ما حدث كأنه البارحة، أردف وهو يصب القهوة في فنجاني أولًا:

- أنا قصدي إن كل اللي حصل للملكية إنها اتنقلت من باشا لباشا جديد.. كمُسَمى خلصت، بس الإقطاعية لسّه عايشة لحدّ دلوقتي؛ مش الإقطاعية دي يعني احتكار الرزق لمجموعة قليلة؟!

أجبته بإيماءةٍ من رأسي، فأكمل حديثه قائلًا:

- آهه ده بقى سِلو بلدنا؛ أي حدّ عايز يحكم بيجيب صحابه ويعاملوا الشعب كأنهم فلاحين في عِزبة أبوهم.. بس زمان السرقة كانت بشياكة أكتر، زي ما تقول كده الحرامي كان مستحمي وبيسرق بالشوكة والسكينة.

ضحكت من تشبيهه، وسألته- بشكلٍ عابرٍ- عن رأيه في طريقة حُكم الجماعات الجهادية؛ ردَّ ساخطًا:

- ألعن وأضل سبيلا؛ دول كانوا السبب اللي جابني هنا.

تذوقت قهوته التي أيقظت جميع حواس تذوق الجمال بداخلي.. ارتشف بدوره رشفةً طويلةً، أشار إلى لوحةٍ ورقيةٍ مُعلقةٍ على الحائط أمامنا خطَّ عليها بيده اقتباسًا عن ابن

سينا: "بُلينا بقومٍ يظنون أن الله لم يهدِ سواهم".. وأكمل حديثه قائلًا:

- من حوالي تلاتين سنة.. خمسة منهم دخلوا عليَّ المعرض بتاعي كسروه فوق دماغي، قال إيه أنا كافر وبعمل أصنام، حسِّسوني إني تاجر آلهة والمشركين بييجوا يحجّوا في المعرض عندي!.. خسرت كل فلوسي وصاحبة العمارة اللي كنت مأجر فيها خافت منهم وطردتني؛ فرجعت طحا إيد ورا وإيد قدّام.

اندهشت أنه من أبناء طحا.. أومأ برأسهِ مؤكدًا، وأردف:

- كانت غلطتي من الأول إني بعت أرضي عشان أعرف أعيش في مصر.. بس الناس هنا استحملوني وساعدوني أبني البيت ده، واحد فيهم اقترح عليَّ شغلانة رخام المدافن ده.. اتفقت مع مَحْجَر رخام أنزل له كل كام شهر أجيب الكمية اللي هحتاجها، ولمَّا كبرْت وحركتي قلَّت شباب البلد بقوا بيجيبوا الرخام بدالي.. وأهي بتُرزق.

لم أكن أرغب في الإدلاء بأي حديثٍ، كنت أستمتعُ بمشاهدته والاستماع إليه.. سألته عن إمكانية عودته إلى القاهرة بنفس المهنة الحالية بعد أن صار مُحترفًا فيها.. قال وهو ينظرُ إلى أعلى:

- هـو العُمـر باقـي فيـه كام يـوم أجـرب فيهـم؟.. أنـا ماعنديـش رفاهيـة المحاولـة والفشـل يـا يحيـى. بعديـن النـاس في القاهـرة مـش مهتمـين بالدفـن زي الأريـاف.. هنـاك بيهتمـوا أكـتر بفشـخرة العـزا، وحتـى الـلي مهتـم بيطلـب يتدفـن في القريـة الـلي اتولـد فيهـا.. إنمـا النـاس هنـا بيقدسـوا المـوت، حتـى لـو بيعصـوا رب المـوت.

لم أفهـم جُملتـه الأخـيرة؛ فـشرح لي بعـض العـادات الخاطئـة البعيـدة عـن الديـن والتـي يُمارسـها أهـل الميـت بعـد رحيلـه.. بـدا الإنهـاكُ واضحًـا في عينيْـه فاسـتأذنتُ منـه كي أرحـل.. أصرَّ ألا أغـادر قبـل أن يُريني دفـترًا كبـيرًا فتحـه قائـلًا:

- أول مـا جيـت اشـتريت الدفـتر ده وكنـت باخـد فيـه بيانات كل ميـت بالتواريـخ، في الأول أهـل البلـد عشـان يشـجّعوني خلُّـوني أعمـل رُخـام لأهاليهـم الـلي ماتـوا بتواريـخ قديمـة، هاتلاقينـي عامـل جـزء خـاص لعيلتـك عشـان هُـما أصـل البلـد..

كانـت الأسـامي مكتوبـة في صـورة قائمـة طويلـة، ومـسرود أمامهـا مـكان الدفـن بالتحديـد وتاريخـه.. طالعـت أسـامي الطحاويـة سريعًـا، وكـما توقعـت؛ فلـم أكـن أعـرف معظمهـم.. شـعرت بغصَّـةٍ في حلقـي حـين لمحـتُ اسـم فرحـة مُسـتقرًّا بـين اسـم حسـن واسـمي... ولكـن مهـلًا!

عـدتُ بنظـري إلى منتصـف القائمـة حـين اسـتوقفني آخـر اسـم توقعـتُ وجـوده.. صحـتُ مُسـتهجنًا في منصـور وأنـا أنظـر إلى الدفـتر:

- المرحوم رفعت صادق الطحاوي؟!

١٤

دَعْنِي أَخْدَعْكَ..

الجُمعة 3 مارس 2006

لم أعرفْ ماذا أفعل بعد أن خرجتُ من بيت منصور مطعونًا بصدمتي، حملتُ قطعة الرخام المنحوت عليها اسمي بعد أن رفض بقاءها لديه؛ وكأنه يرغبُ في تذكيري أنني ما أزال موءودًا حتى وإن لامس النورُ وجهي ثانيةً. ذهبتُ إلى مسجد الشيخ صالح فوجدته نائمًا بمفرده على بساط الزاوية، خشيتُ أن أخرجه من قيلولته للحصول على إجابةٍ قد تُجهِّز على ما تبقَّى من حياتي. لم أجد ملاذًا سوى بيت العائلة؛ سأمكثُ داخل صندوق الصور الخاص بفرحة الذي أخفيتُ أمره عن أخي.. سأحيا بين ثنايا ذكرياتي يوم أن كان لي أحباء حقيقيون، بعيدًاعن طمع عطوة ومكر ناجي ومشاكل إيفلين وعقلي الذي استُهلك بين رَحَى الحياة..

"الكوارث كعربات القطار يجرُّ بعضُها بعضًا".. كانت هذه أول جملة تخطرُ على ذهني حين دخلت المنزل لأجد ناجي وعطوة جالسيْن في حجرة استقبال الضيوف ومعهما ضابط برتبةٍ صغيرةٍ يبدو عليه الحَرج.. أخبرني عطوة أن الضابط ذهب إليه حين أتى إلى البيت ولم يجدني، استنتجتُ أن ناجي أدخلهما البيت بمفتاحه.. كنتُ قد نسيتُ أن فرحة كتبتْ له نصيبًا مماثلًا لنصيبي في البيت.

تجاوزتُ دهشتي وقلتُ موجِّهًا حديثي إلى ناجي ضاحكًا:

- شفت منصور ابن المجنونة؟.. بيقول إن رفعت ميِّت بقاله أكتر من عشرين سنة!

نظر ناجي إلى الأرض دون ردٍّ، وقال عطوة بلهجةٍ هادئةٍ:

- اسمه جدك رفعت.. الله يرحمه ويحسن إليه.

لم أعرف ماذا أفعل، خرج فزعي من هول الفكرة في صورة اعتراضٍ صارخٍ؛ أمسكت بملابس عطوة، صحتُ فيه كما لم أفعلْ من قبل.. اعتذر ناجي للضابط عن تصرفي.. أصرَّ عطوة على رأيه حين أخبرني أن منصور ليس مُخطئًا وأن قبر جدي موجودٌ منذ زمنٍ بعيدٍ، وأنه جعل منصور يكتب اسم رفعت على الرخام المُثبت على شاهد القبر بعد وفاته بفترةٍ طويلةٍ تشجيعًا له، ولهذا السبب لم يُذكر اسمه ضمن ورثتي رغم أن الشرع يُتيح له نصيبًا في تركتي!

طلب مني ناجي تأجيل النقاش في هذا الموضوع فوافقتُ من باب المجاراة؛ لمعرفة سبب اقتحام ثلاثتهم لمسكني دون إذنٍ، وبعد رحيل الضابط سأعرفُ لماذا زعموا وفاته. صافحتهم ببرودٍ، وحين استفهمتُ عن سببِ الزيارةِ غير المرغوبِ فيها.. أجابني الضابطُ قائلًا:

- المفروض فيه أمر ضبط وإحضار لحضرتك، بس احترامًا للحاج عطوة جيت لوحدي.. ده غير إننا عارفين حساسية موقفك في طحا دلوقتي، وإن بقى ليك أنصار كتير ممكن يعملوا قلق مالوش لزوم.. فحبيت أرافقك للنيابة بشكل ودي.

سألته دون أن أفقد هدوئي عن التهمة الموجهة لي.. ردَّ بلهجةٍ حذرةٍ أن الأمر مجرد استجوابٍ بسيطٍ بخصوص مقتل الدكتور أمجد عمَّار.

لم يرد أحدنا؛ لجمت الدهشةُ أفواهنا، أطلقتُ سُبة بذيئةً علامةً على اعتراضي على فكرة "قتل" أمجد من الأساس.. فأشار لي ناجي مُحذرًا واعتذر للضابط الذي تعمَّد تجاهلي وطلب من ناجي أن يُحضر موكله الآن للمثول أمام وكيل النيابة المُكلف بالتحقيق. لم ألمه على مناداتي بضمير الغائب بعد ما تلفظتُ به، قلتُ لناجي قاصدًا الضابط بحديثي أنني سأصعدُ لتغيير ملابسي، فتحتُ خزانة ملابسي فوجدتُ عبثًا واضحًا بمحتوياتها؛ توجَّهت عيناي سريعًا نحو

أثمـن مـا فيهـا ليتحقـقَ أسـوأ كوابيـسي: فقـد اختفـى صنـدوقُ جـدتي فرحـة!

***

بعـد قرابـة السـاعة مـن الأسـئلة المعتـادة التـي لم تتطلـب تدخـل ناجـي، اعتـدل وكيـلُ النيابـة في مجلسـهِ وقـال بلهجـةٍ جـادةٍ:

- حضرتك كنت متغيب فين وقت حادثة أمجد؟

ابتسـم ناجـي.. وضحكـتُ بصـوتٍ عـالٍ دون أن أبـالي بنظراتـه المحـذرة، قلـت وسـط ضحـكاتي إن لـديَّ أغـرب حجـة غيـاب في التاريـخ: كنـتُ ميتًـا!.. ردَّ الوكيـلُ بخبـثٍ قائـلًا:

- أو كنت عامل نفسك ميت.

تدخَّل ناجي مشيرًا إليَّ بالصمت:

- مـوكلي اتـضرر نفسـيًّا وجسـديًّا مـن حادثـة الدفـن الخطـأ الـلي مثبتـة في الـورق الـلي قدمتـه لحضرتـك.. مُسـتحيل حـدّ يدّعـي المـوت كحجـة غيـاب، خصوصًـا إن كل الـلي حواليـه كانـوا متأكديـن إنـه ميـت فعـلًا، أنـا نفـسي عملـت إعـلان وفـاة وبـدأت في إجـراءات تسـليم التِركـة.

ألقـى وكيـلُ النيابـة بعـضَ الأسـئلة الروتينيـة، قبـل أن يُعـاود هجومَـه مُسـتفهمًا بمكـرٍ عـن علاقتـي بإيفلـين.. أخبرتـه بصـدقٍ

عـن الصداقـة الحديثـة التـي نشـأت بيننـا بحُكـم الظـروف الصعبـة التـي مـرَّ بهـا كلانـا؛ فقـد هجـرني جميـعُ مـن حـولي- حتـى زوجتـي التـي طلبـت منـي الطـلاق- وهـي منبـوذة مـن أهـل زوجهـا في بلـدٍ غريبـة عنهـا.. تحـدَّث وكيـلُ النيابـة مُحـاولًا تقليـد طريقتـي في الإجابـة عليـه كأنـه يُكمـل مـا أريـد قولـه:

- ووحيـدة.. وهاتـصرِف قريّـب بوليصـة تأمـين بقيمـة عـشرة مليـون جنيـه.

ردَّ ناجـي أن أمـلاك عائلـة الطحـاوي مـن الأمـلاك تتجـاوز هـذا الرقـم بكثـير.. قلـتُ بتلقائيـةٍ أننـي لا أهتـم بالأمـوال؛ خاصـةً بعـد حادثـة الدفـن الخطـأ التـي جعلتنـي لا أريـد مـن البـشر سـوى أن يتركـوني لحـالي.. سـألني:

- تفتكـر موضـوع البوليصـة ده لعبـة مـن إيفلـين وجـبران عشـان يسـتفيدوا مـن قتـل أمجـد؟

- أمجـد كان قايـل لي قبـل مـا يسـافر إنـه خايـف عـلى إيفلين لأنهـا مـا تعرفـش حـدّ في مـصر.. فمـش بعيـد يكـون عمـل كـده عشـان يحميها.

تجاهـل الوكيـل صـوت طَرَقـاتٍ عاليـةٍ عـلى البـاب واسـتمرَّ في اسـتجوابه لئـلا يفقـد لحظـة المواجهـة، قـال بصـوتٍ عـالٍ:

- طب ما يمكن إنتوا التلاتة متفقين على...

قاطعه اقتحام شخصيْن للمكتب عرفتهما بسهولةٍ دون أن أعرفَ السبب الذي جمعهما: أولهما كان لطفي أبو الخير صاحب دار النشر التي رفضت التعامل معي فيما سبق، والثاني كنتُ أعرفه من شاشات التلفزيون؛ كان معاذ عصفور المحامي المعروف بلسانه السليط، ذاع صيتُه بعد أن خاض أكثر من حربٍ مع شخصياتٍ شهيرةٍ، وبعد أن تصدَّى للكثير من قضايا الرأي العام كقضايا الفنانين والإعلاميين ورجال المال. قال معاذ بلهجةٍ معتذرةٍ:

- آسفين على طريقة الدخول يا محمود بيك.. بس أكيد حضرتك مش هاتقبل بالمهزلة اللي بتحصل دي. نظرتُ إلى لطفي مُستفهمًا فأومأ لي مُهدئًا وأخبرني همسًا أنه كان يُحاول الاتصال بي ليُخبرني.. أردف معاذ قائلًا:

- حضور أستاذ ناجي مع أخوه باطل.

بدا على وكيل النيابة الاهتمام فنظرتُ له نافيًا هذا الادعاء، وتدخَّل ناجي صائحًا بغضبٍ أنني موكله منذ سنوات، وأنه المسئول عن النظر في كل ما يخصه. قال لطفي بصوتٍ هادئ:

- ويا ترى هاتقف معاه برضه في القضية اللي جاية؟!

ثم وجَّه حديثه لي لينقذني أخيرًا من براثن الحيرة:

- أخوك المُبجل رافع عليك قضية حَجْر يا يحيى.

نظـرتُ إلى ناجـي مُسـتفهمًا عـن جديـة هـذا الحديـث فأجابنـي بصمـتٍ ألحقـه بطأطـأة رأس.. اسـتغل معـاذ الموقـف وقـال لوكيـلِ النيابـة بلهجـةٍ عمليـةٍ:

- واضـح إن كـده التوكيـل أصبـح باطـل، أسـتأذن حضرتـك لـو حابـب تحقـق مـع أسـتاذ يحيـى دلوقتـي هاحـضر معـاه التحقيـق بشـكل ودي، لـو لازم ورق يبقـى نأجـل التحقيـق.

لم أرد أن أضـع نفـسي في موقـف المتهـم، فقاطعتـه قائـلًا إن التحقيـق أوشـك عـلى الانتهـاء، وأن تغيـير المحامـي لـن يُغـير حرفًـا مـن أقـوالي.. سـأل وكيـل النيابـة معـاذ مُبتسـمًا:

- بـس إيـه سر اهتمامـك المفاجـئ بيحيـى الطحـاوي؟.. حسـب معلومـاتي هـو شـخص بسـيط، مـش مـن نوعيـة الزبايـن الـلي حضرتـك بتفضلهـا.

هزَّ لطفي رأسه نافيًا وقال:

- بسيط؟!أسـتاذ يحيـى أهـم كاتـب في دار النـشر بتاعتـي، وكـمان هايكـون الواجهـة القادمـة لقنـاة "الـروح" المملوكـة لرجـل الأعـمال سـامح أبـو خاطـر.

***

لم أمتلـك رفاهيـة رفـض العـرض المُقـدم مـن معـاذ، لم تكـن قـوة العـرض في مقابلـه المـادي ولا المعنـوي فقـط.. ولكـن في

توقيت طرحه؛ فقد انتظر حتى انهارت أساساتُ ثقتي في جميع مَن حولي.. اجتمعنا بعد انتهاء تحقيق النيابة معي، والذي صممتُ أن أحضره منفردًا. جلستُ مع معاذ ولطفي بأحد المقاهي الباهظة، أو كما يقولون "كافيه"، في المعادي، تبادلا العزف على نغمة "إذا هبَّت رياحُك فاغتنمها"؛ فحدَّثني أحدهما عن ضرورة استغلالي للحادثة قبل أن ينساها الناس، وأكّد آخر على أهمية ظهوري بالشكل الأنسب الذي ينتظره الجماهير التي ألَّهتني، تكلما عن أهمية الثروة بالنسبة لشخصٍ وحيدٍ مثلي، وكيف ستمكِّنني من ملء حاجتي للوَنَس، قضى معاذ على آخر خط دفاع لشعور الرفض بداخلي حين ذكر نماذج خدعت الناس بكامل إرادتهم الحرة؛ فهم يبحثون عمن يبيعُ لهم الوهم، أخبرني أن أسهل طريقة لحل مشاكل الناس أن أكونَ السبب فيها.. فإن لم أخدعهم احتقروني لصالِح غيري وألقوا بعقولهم تحت قدميْه كي يزيدهم جهلًا.

استشفَّ معاذ الموافقة من صمتي، فسلَّمني مبلغًا من المال وقال إنه مُقدم بسيط مقابل عملي كخبير "روحاني" في قناة الروح التلفزيونية، وأعطاني مهلة بضعة أشهر كي أعد نفسي لتلك التجربة، طلب مني أن أقرأ في مجال الروحانيات والخوارق وأن أدرس نفسية الناس، ووعدني أن المحطات التلفزيونية ستذكرني وأن الجرائد ستكتب عن حادثتي وتنشر شائعاتٍ جمَّةً بخصوص حقيقتي. تركني مع

لطفي متعلـلًا بانشـغاله، ظننـت أن لطفـي يريـد الاسـتفادة مـن اسـمي وشـعبيتي البسـيطة وينـشر روايتـي التـي رفضهـا فيـما سـبق، ولكـن اتضـح لي أنـه يطمـع فيـما هـو أخطـر؛ طلـب منـي إعـداد مسـودة كتـابٍ عـن حادثتـي، وسـيقوم بـدورِه بتكليـف أحـد العاملـين في الـدار بصياغتـه أدبيًّـا، طلـب منـي أن أخـبر النـاس أن عـودتي لم تكـن محـض صُدفـة.. أعطـاني رقـم أشـهر بائـع كتـب في سـور الأزبكيـة وطلـب منـي أن أذهـب إليـه بتوصيـةٍ منـه، وأن أسـتزيد مـن الكتـب التـي سـتنفعني وتجعلنـي أقـدِّم محتـوى مكتوبًـا ومرئيًّـا مبهـرًا للنـاس. أبـدى دهشـته مـن سرعـة موافقتـي عـلى كلا العرضـيْن كالمُخَـدَّر، لم أخـبره أن دهشـتي كانـت أعظـم!

***

أوشـكتْ شـمسُ هـذا اليـوم الطويـل عـلى الغـروب، ولكـن حماسًـا غـير مـبررٍ مـلأني بعـد لقـائي بذينـك الشـيطانيْن، حاولـت الاتصـال بخالـد عـلى رقمـه الـذي طلبتـه منـه يـوم أودعنـا شـكري المصحـة فلـم يـرد، هاتفـت صاحـب العقـار الـذي كان يُجالسـهما وطلبـت منـه عنـوان خالـد فأمـلاه عـليَّ، ونصحنـي أن أؤجـل زيـارتي لـه للصبـاح.

انطلقـتُ بسـيارتي نحـو سـور الأزبكيـة ناشـدًا بائـع الكتـب الـذي أوصـاني بـه لطفـي وأثنـاء قيـادتي اتصلـت بإيفلين وسـألتها عـن كتـب أمجـد في مجـال الطـب النفـسي.. ردَّت أنهـا تحتفـظ

بجميع الكتب والمراجع الخاصة به، طَلَبَت أن تكون زيارتي لها صباحًا حتى تتجنب كلام الناس.. ضحكتُ ساخرًا من الطبع المصري الذي اكتسبَته سريعًا بعد وفاة أمجد.. لم تُبادلني الضحك وأخبرتني بتجهمٍ أن أهل أمجد اتصلوا بها صباحًا لإخطارها بضرورة إخلاء العيادة من متعلقات أمجد الشخصية.. عرضتُ عليها مساعدتي فَقبَلَت العرض، وأخبرتني أنها وجدتْ شيئًا في العيادة قد يُثير اهتمامي! وضربتْ لي موعدًا في اليوم التالي لأنقلَ معها محتويات العيادة إلى شقتها؛ وآخذ منها ما أرغب من الكتب.. أدهشني ترحيبُها المُطلق بفكرة عملي في الكذب على الناس؛ كانت تراه عقابًا مُستحقًّا لهم بسبب جهلهم ووضعهم لي في مكانةٍ أكرهها. طلبتُ منها أن تبحث على الإنترنت عن اسم "سامح أبو خاطر" وتزوِّدني بكافة المعلومات عنه وعن نشاطاته التجارية.

كان سور الأزبكية عالمًا خاصًّا، تشعر أنه دولة داخل الدولة؛ فما بين بائعي كتبٍ نادرةٍ وقديمةٍ وبين شبابٍ مُتحمسين يجتذبونك نحو مكتباتهم الجديدة الواسعة محاولين إغراءك بأسماء كتبٍ جديدةٍ ومشهورةٍ، وبين أصحاب مطابعٍ يُجاهرون علنًا بتزوير الكتب الجديدة لبيعِها بسعرٍ أرخص، وبين شيوخٍ عُجُز يعرفون محتوى كل المطبوعات التي يُتاجرون فيها.. وقفتُ أبحثُ عن رجلي المنشود دون جدوى. سألت أحد الشباب عنه فأجابني أنه

محبوسٌ منذ شهرين، سألتُ آخر فردً بأنه قد قبض عليه منذ شهر.. علمت أنهم يُحاولون تضليلي وأنني يجب أن أصل إليه بنفسي.

"اتفضل اقعد يا أستاذ يحيى.. ده لطفي باشا أبو الخير بنفسه موصي عليك!".. هكذا بدأ الرجلُ تحيته بعد أن أعياني السبيل إلى متجره، استغرقني البحثُ عنه الكثير من الوقت والجهد والمال والأكثر من عبارات "وربنا أنا مش بوليس!".

كانت مكتبته- عكس توقعي- صغيرة مُتربة أقرب إلى الكشك الكبير، وبرغم هذا ظهرت هيبته واضحة على وجوه جميع من حوله، جذب مقعدًا خشبيًا مفككة أقدامه ومسحه بيده مرتين وأشار إليَّ كي أجلس عليه، ابتسم محييًا ليكشفَ عن أسنان صفراء تتوسطها سنٌّ ذهبيَّةٌ كبيرةٌ، طلب من صبي المقهى المجاور لمكتبته كوبين من الشاي الثقيل دون أن يمنحني فرصةً للاختيار أو الرفض، عرفت أن اسمه المستعار "أبو دنيا"، وأنني كان يجب أن أسأل عنه مُستخدمًا هذا الاسم إذا أردت وصولًا سريعًا لمكتبته.. قلتُ له بلهجةٍ عمليةٍ:

- أستاذ لطفي فهِّمك المطلوب منك ولا أشرح تاني؟
- مش حضرتك عايز كتب عن الجان والسحر والعياذ بالله؟

وصل صبي المقهى بكوبي الشاي سريعًا، كان منظرهما شديد القذارة مما جعلني أقرر عدم الشرب معه.. فاجأني أبو دنيا بالتقاطِ كوبيْ الشاي، وقد بدأ يرتشفُ منهما بمفرده واحدًا تلو الآخر دون أن يدعوني إلى تناول أحدهما، تجاوزتُ فظاظته وقلتُ مُحذرًا:

- كُتب أصلية يا أبو دنيا، بلاش كُتب مضروبة.

وضع كوب الشاي الأول الذي أنهاه سريعًا، واقترب مني مثيرًا اشمئزازي برائحة فمه البشعة، وقال بصوتٍ خفيضٍ:

- إنت مش قدّ الأصلي يا يحيى أفندي.

فتحت عينيَّ على آخرهما، وتناسيتُ أنني في منطقته ووسط رجاله، وضعتُ سبابتي أمام عينيْه قائلًا بلهجةٍ صارمةٍ:

- إنت ما عيشتش ربع اللي أنا عيشته ولا شُفت حاجة من اللي أنا شوفتها تحت، لمَّا تبقى تتدفن في التراب يومين وترجع قادر تقف على رجليك.. ساعتها ابقى اتكلم عن اللي أنا قده واللي أنا مش قده!

حاول إخفاء فزعه من حديثي ولكن قشعريرة بدنه ونحنحته قبل الردِّ أفشلا محاولته، استغللتُ تفوقي النسبي عليه وأردفتُ قائلًا بلهجةٍ آمرةٍ:

- وعايز كتب عن حوادث غريبة شبه حادثتي، وكتب عن فن الخداع السحري، ولو عندك حاجة عن راسبوتين يبقى حلو أوي.

لم أنتظر موافقته، انتزعت كوب الشاي الثاني من يده قبل أن يلمسَ حافته بشفتيْه، أنهيته كله على مرةٍ واحدةٍ محاولًا إخفاء الألم الذي أحدثتْه سخونته داخل جوفي.. أخرج ورقةً وقلمًا وكتب فيها قائمةً طويلةً من الكتب وأعطاها إلى أحد صبيانه آمرًا إياه بإحضار هذه الكتب من داخل المكتبة، وإنْ وجد عجزًا يعوضه من أي مكتبة مجاورة، كما أمره بتجميع الكتب داخل صندوقٍ كبيرٍ ووضعه في حقيبة سيارتي.. شكرته دون أن أفقد لهجتي الجادة، وأخبرته أن حسابه مع لطفي وليس معي، فوافق على مضض.

لاحظتُ أن سيارتي صارت باليةً حين أدركتُ أن لديَّ الكثير من مال العربون الذي يُمكن دفعه كمقدَّم لأقساط سيارة أحدث؛ سيارة تستطيع تحمُّل وزن صندوق الكتب الثقيل دون أي ضرر يلحق بمكونات "العفشة".. سيارة تُثير إعجاب إيفلين وفريق العمل الذي سيكون تحت إمرتي، سيارة تليق بالشخص الذي سأكونه أمام محبيني ومريديني. اتصلت بإيفلين لتُجيبني بقلقٍ أن المعلومات عن هذا "السامح" ليست كثيرة: فهو شاب في منتصف العقد الرابع من عمره، يمتلك مصنعًا هائلًا للأسمنت الذي ينوي

احتكار صناعته واستيراده قريبًا، يمتلكُ أكثر من قناةٍ رياضيةٍ واجتماعيةٍ من بينها قناة "الروح" التي تنتجُ برامج عن تفسير الأحلام وعلوم الفلك وخلافه من المصنفات الرخيصة رديئة الصناعة، وهناك شائعةٌ عن امتلاكه لدار "بصيص" التي يُديرها لطفي وجريدة أخرى تحمل نفس الاسم من الباطن.. قلقتُ كثيرًا حين أخبرتني أنها لم تجد له أي صورةٍ معاصرةٍ؛ فأحدث صورة مُلتقطة له كانت أثناء بداية عمله التجاري في بداية التسعينيات!

***

طال انتظاري أمام باب خالد، طرقتُ بابَه مرارًا وتكرارًا، ولكن صوت الأغاني كان أعلى من صوت استئذاني، بعد دقائق من الانتظار الغاضب هدأت الموسيقى فأعدتُ طرقاتي على باب خالد الذي ظهر بوجهٍ عابسٍ؛ لم يكن مرتديًا سوى ملابسهِ الداخلية التي كشفت عن زيادةٍ واضحةٍ في وزنه، حاول احتضاني ولكنني أبعدتُ ذراعيْه عني باشمئزازٍ مُستنكرًا رائحة الخمر التي تفوح منه؛ توقفت عن شربها بعد ما حدث لشكري، وتُبت عنها نهائيًا بعد الحادثة. وجدتُ على مائدته الكثير من الطعام وكأسيْن بهما بقايا خمر، كما لمحتُ ملابس أنثوية ملقاةً بإهمالٍ على الأرض في الطريق المؤدي إلى حجرة النوم.. قلتُ له ساخرًا:

- خمرة وحريم وطبق فاكهة كبير؟.. مش ناقصك غير جوز عبيد يهووا عليك وتبقى كافر رسمي!

ضحك في خجلٍ مصطنعٍ، استفسر باهتمامٍ عن حالة شكري الصحية.. اختصرتُ على نفسي الكثير من الحَكي وأشفقتُ عليه من سماع تفاصيل مؤلمةٍ قد تفسد حالته المزاجية؛ فأخبرته أنه في خير حال وسيخرج من المصحة قريبًا.. علم أنني أكذب فتركني أستمر في خداعه؛ كأننا عقدنا اتفاقًا صامتًا على هذا، سألته عن سبب زيادة الوزن وتوقفه عن الذهاب إلى جلسات "الحظ" لخدمة السكارى فأخبرني أنه عرف طريقًا جديدًا للمال.. نهضتُ دون إذنٍ أطالع مكتبته الكبيرة التي تحتل جزءًا كبيرًا من بهو شقته الصغيرة؛ أدركتُ أنه على درجةٍ عاليةٍ من الثقافة والاطلاع.. كانت المكتبةُ منظمةً برغم التراب المتكوم عليها؛ خصص فيها قسمًا للفلسفة، وآخر لعلم الاجتماع، وقسمًا أصغر للعلوم الطبيعية والميتافيزيقا.. لم ألمح كثيرًا من كتب الأدب العربي؛ فقط رواية واحدة تحمل اسم الكاتب "فؤاد الغرباوي".

أخبرني أنه سيتوجه إلى المطبخ لتحضير القهوة.. رافقته متسائلًا في قرارة نفسي عن المصدر الحقيقي للنعمة التي ظهرت آثارها عليه.. بدأ يحكي- كأنه قرأ أفكاري- ناظرًا إلى سطح القهوة أثناء غليانها:

- أنـا اكتشـفت إن أي حاجـة في مـصر ممكـن تخـسر إلا السـمسرة..

علَّقت ساخرًا:

- ودي اكتشفتها وأنت بتتسطل في أنهي قعدة؟

ضحك وأردف بجديةٍ:

- إنـت بتقـول فيهـا؟.. وغلاوتـك يـا أبـو يحيـى ده الـلي حصـل؛ كنـت قاعـد مـع رجـل أعـمال لسّـه راجـع مـن بـرَّه وبـادئ اسـتثمار في مـصر، الراجـل بعـد مـا اتسـلطن حـكى لنـا عـن مشـكلة عنـده مـع الجـمارك الـلي جايبـة منـه عيـال؛ خصوصًـا إنـه لسّـه جديـد عـلى الشـغل في مـصر، افتكـرت إن ابـن عمـي في الجـمارك كلِّمتـه طلـع مالـوش في الشـغل الشِّـمال.. بـسّ إداني معلومـة مهمـة بِعتهـا للراجـل..

صـبَّ القهـوة في فنجانـين، وأكمـل حديثـه أثنـاء خروجنـا مـن المطبـخ:

- قلـت للراجـل يعمـل جمعيـة خيريـة باسـم حـدّ بيثـق فيـه، ولتكـن المـدام بتاعتـه مثـلًا، ويبتـدي يجيـب بضاعتـه مـن بـرّه تحـت اسـم الجمعيـة وسـجلاتها، وبشـوية فلـوس صغيريـن اللعبـة بتمـشي مـع الموظفـين، وكلـه برعايـة مؤسسـات الدولـة.

قلت بجديةٍ إن بعد فترة قصيرة ستنتهي هذه النفحة التي أخذها من رجل الأعمال، وسيعود تابعًا لمزاجه.. ردَّ بلا مبالاةٍ:

- ما تخلص.. الفلوس معمولة عشان تتصرف.

ثم أردف ضاحكًا:

- بس تعرف يا طحاوي إن أول واحد اخترع فكرة الفلوس ده كانت دماغه عالية وسارحة منه لبعد البراميل؛ راح طبع ورق وفهِّم الناس إنه قادر يشتري الأكل والشرب والبشر.. لأ والمغفلين صدَّقوا إن سعادتهم في شوية الورق دول وبقوا يحاربوا بعض عليهم!

- طب واللي يجيب لك مصلحة فيها "شوية ورق" كويسين؟

- أنا عايز أفضل في الضِّل، صحيح الفلوس رجَّعتني أدوق متعة الحياة.. بس مش عايز أدوق عذابها ولا أتمرمغ في تراب التفكير!

وعدته بأن يظل مخفيًّا عن الأنظار، حكيت له بإيجازٍ عمَّا مررتُ به خلال الأيام المنصرمة، شرحت له بإيجازٍ الخطة التي رُسِمت لي لتحقيق أنسب استغلال لحادثتي.. وبعد تفكيرٍ لم يدم طويلًا سألني عن المطلوب منه.. كانت مهمته سهلة: عليه أن يجلب فريق عمل صغير السن على

قـدرٍ ملائـمٍ مـن التعليـم والتفكـير الإبداعـي؛ يقـوم بمطالعـة الكتـب التـي ابتعتهـا مـع اقـتراح كتـب أخـرى ومتابعـة بعـض الأفـلام الوثائقيـة ومقاطـع الفيديـو والبرامـج الأجنبيـة المُشـابهة لمـا سـنقدمه مـن محتـوى يهـدف للتلاعـب بعقـول النـاس، تحمَّـس حـين ذكـرتُ لـه الراتـب الـذي سـيتقاضاه كرئيـسٍ للفريـق، ووعـدني بجلـب الأشـخاص المطلوبـين بأبخـس الأثمـان.

تركتـه مـع وعـدٍ بلقـاءٍ قريـبٍ، عزفـتُ عـن التفكـير في أي شيء أثنـاء رحلـة عـودتي إلى طحـا، وَعَـدتُ نفـسي- كالعـادة- بحـمَّامٍ دافـئ يزيـحُ عـن كاهـلي إرهـاق اليـوم الطويـل، كنـت أعـرفُ جيـدًا أننـي لـن أسـتحمَّ إلا حـين الاسـتيقاظ كعـادتي، لم أرغـب في التفكـير أو تذكُّـر أيٍّ مـن أحـداث اليـوم.. ولكـن هاجسًـا في عقـلي ألـحَّ عـليَّ بالذهـاب إلى المقابـر بحثًـا عـن قـبر جـدي، وجدتـه أقـصى حـوش "آل الطحـاوي" كـما وُصِـف في دفـتر منصـور النحَّـات، عـلى نـور القمـر بـرز اسـم جـدي فـوق الرخامـة.. اسـوَدَّ العـالمُ أمامـي وطغـى ظـلام قلبـي عـلى الموجـودات مـن حـولي، ركعـتُ عـلى ركبتـيَّ أمـام اسـم جـدي المنحـوت مُسـتندًا بجبهتـي عـلى الرخامـة البـاردة التـي لم تشـعر بالنـار المُسـتعرة داخـلي، ارتجـفَ جسـدي حزينًـا خائفًـا دون أن تخـرج لي دمعـةٌ.. صرتُ ببسـاطةٍ عاريًـا في هـذه الحيـاة، إن جـاز التعبـير عنهـا بهـذا اللفـظ الظـالم لمـا أراه فيهـا، ليـت الطفولـة ترجـعُ يومًـا؛ كنـتُ أرتمـي في حضـن الكِبـار محتميًـا

مـن مخـاوفي.. لم أتوقـع أننـي سـأصيرُ يومًـا بـلا كبـارٍ، وسـأصبح أنـا أكـبر مخـاوفي!

خَفَـت نـورُ القمـر حـين حجبـه ظِـلٌّ طويـلٌ تكـوَّن أمامـي، حجبـت ملامحـه- التـي أعرفهـا تمامًـا- المكتـوب عـلى الرخامـة، نظـرتُ لصاحـب الظـل غـير مُصـدِّق، شـعرتُ أن عقـلي يعبـثُ بي ككُـرةٍ مـن المطـاط، ابتسـم رفعـت في هـدوءٍ وقـال بلهجتـهِ السـاخرةِ المعهـودة:

- إوعى تغمِّي قلبك وتصدَّقهم يا ابن أحمد الطحاوي!

١٥

دَعْنِي أَنْخَدِعْ!

الجمعة 3 نوفمبر 2006

أتميزني وسط زحام البشر المُلتفين حولي؟.. ليس من الطبيعي هذه المرة ألا تعرفني؛ فأنا الآن "الشيخ" يحيى الطحاوي مُقدم برنامج "الموءود"؛ البرنامج الأشهر على الساحة. قد يكون شَكلي تغيَّر بعضَ الشيء؛ بعد أن نبتت لحيتي الشائبة قليلًا لتُضفي عليَّ المزيد من وقار العلماء بناءً على اقتراح سامح أبو خاطر. لم أسلك أيًّا من تصرفات "المشايخ"؛ فلم أحمل السِّبحة ولم أردد الأذكار بين اللحظة والأخرى.. كنتُ أرى في الأمر حرمانيةً زائدةً عن احتمالي. مرَّت ثمانية شهور على تحالفي مع ذلك الشيطان، ودخول عالم الرأسمالية من الباب الكبير. بدأ عرضُ برنامجي منتصف شهر مايو المُنصرم؛ في البداية تباينتْ ردودُ أفعال الناس على المحتوى الذي لم يكن واضحًا، ولكن المشاهدين

حسَّـنوا منـه حـين رسـموا لنـا الطريـق لخداعهـم؛ في البدايـة كانـت تأتينـي الأسـئلةُ والمداخـلاتُ الهاتفيـةُ بخصـوص تجربتـي مـع الـوأد، فخصصـت ثـلاث حلقـات لهـذه التجربـة غافـلًا جـزء مـرضي النفـسي وتجربـة أمجـد؛ ذكـرت أننـي تعرضـتُ للعنـة مـن أحـد الجـان الـذي جعلنـي أبـدو ميتًـا في عيـون النـاس ومـا أنـا مـن الراحلـين، وأننـي وجـدتُ طاقـةً نورانيـةً تحـت الأرض أخبرتنـي أن اللعنـة لـن تمسـني بـضرٍّ لأن أجـلي لم يـأتِ بعـد، وأن القـبر قـد فُتِـح وحـده دون أن ألمسـه؛ فثمـة طاقـةٌ شـعرتُ بوجودهـا جعلـت منـي شـخصًا آخـر، أو بمعنـى أدق كيانًـا آخـر.. كذبـة تبـدو سـخيفةً، ولكـن الأسـخف أن هنـاك مـن صدَّقهـا!

اسـتهلكتني تلـك الحلقـاتُ الكثـير مـن الجهـد والحـركات التمثيليـة التـي درَّبنـي عليهـا أخصـائي تمثيـل أمريـكي أحـضره لي سـامح خصيصًـا، أخـبرني فيـما بعـد أن قصتـي حقَّقـت أعـلى نسـبة مشـاهدة في تاريـخ البرامـج التلفزيونيـة. لم تتأثـر نسـبة مشـاهدات البرنامـج- عكـس باقـي البرامـج- بحلول شـهر رمضان ومسلسـلاته التـي تخطـف المتابعـين. مـع الوقـت أدركـت قيمـة شـهور الإعـداد التـي قضيتهـا معتكفًـا مـع فريـق العمـل الـذي أعـدَّه خالـد، الـذي اكتشـفت فيـما بعـد أنـه مُصـاب بالحـرج الاجتماعـي، كنـا نسـهر طويـلًا عاكفـين عـلى القـراءة والبحـث في كافـة الأمـور التـي قـد نُمتَـحن فيهـا أثنـاء بـث البرنامـج عـلى الهـواء.. تطلَّبـت الكتـب التـي أتيـت بهـا مـن الأزبكيـة الكثـير مـن الوقـت والجهـد لقراءتهـا وتفسـيرها، كـما جـاء أعضـاءُ

الفريق ببعض الكتب "السحرية" الأخرى التي اعتقدوا أنها مهمة؛ فطالعنا كتبًا مثل: "اسم الله الأعظم" و"شموس الأنوار" و"سحر الكهان" و"الفتوح الربانية"، ونسخة لم نعلم مدى صحتها من "شمس المعارف الكبرى". ساعدتنا تلك الكتبُ والمخطوطاتُ وغيرها في مباحث مختلفةٍ على إدراك المدخل السليم لعقول الناس، وكيف نجعلهم يبتلعون الخرافة ويعتنقون في الخدع.

ارتفعت قيمتي المادية والمجتمعية؛ بدأ الناس يطلبون حضوري في المناسبات والعزائم المختلفة بمقابلٍ مادي لتحلَّ عليهم بركتي المزعومة، أصبحتُ شخصيةً عامةً مطلوب رأيها في كافة الأمور الدينية والدنيوية، يجب أن أبتسمَ دائمًا وأظهر ودودًا، طالتني حملاتُ هجومٍ مكثفةٌ ولكن أصواتها كانت خفيضةً، جاءتني مكالمةٌ وحيدةٌ من طليقتي مي لم أردَّ عليها لانشغالي في العمل، نجحت عَلاقات سامح أبو خاطر في وأد كل الأصوات المعارضة لما أفعل.. فيما عدا صحفية كهلة تُدعى "تهاني درويش" تُرسل خلفي الكثيرَ من الصحافيين الشباب لالتقاط أي غلطةٍ أرتكبها، ومن ثم تكبيرها وتحويلها إلى زلة.

مع الوقت اعتدنا استلهامَ محتوى الحلقة مما يشغل بال العامة؛ فذاك رجلٌ يؤمن بالأبراج يُوحي إلينا بتخصيص حلقةٍ عن الفلك، وتلك ربة بيت شاهدتْ حلمًا سخيفًا

تسعى لتفسيره، وفتاة تسأل عن الجاثوم الذي تشعر بلهيبِ أنفاسهِ ليلًا، وطالب يسأل عن كيفية تقوية الذاكرة من أجل امتحانات الثانوية.. إلى آخره من طلبات العوام الذين يبحثون عن العَرَض مُتناسين المَرَض. أدركتُ أنني حين وافقت على عرض سامح قد انطبقت عليَّ جملةُ العبقري عبد المنعم مدبولي حين قال: "كنتُ مغفلٌ". انتهيتُ من تصوير الحلقة قبل الأخيرة من الموسم؛ والتي كانت عن القرين.

حين انتهيت من التصوير قوبلت- كالعادة- بتصفيقٍ عاصفٍ من جميع العاملين في الأستوديو الواسع المُزين بالعديد من التحف القديمة مُفزعة المنظر؛ لم أعرف يومًا إن كان تصفيقُهم لنجاح ما نُقدمه مع الناس، أم مجرد خوفٍ مني وتجنُّبٍ لردود أفعالي التي تفزعهم حين لا يسير العمل كما ينبغي. لكن خالد وقف متجهمًا في زاويةٍ من "البلاتوه" دون أن يُصفق أو يقترب لالتقاط الصور التذكارية معي كالباقين. من سياسات البرنامج التي وضعتها مع خالد في البداية ألا نقوم بعمل أي خدع صريحة على الهواء أو ادِّعاء أية قدرات خارقة لتجنب قضايا الدجل؛ اكتفيتُ بعمل مثل هذه الخدع في صومعتي التي اتخذتها في قرية "طحا" تاركين الدعايا لأفواه الناس والشائعات المُتناقلة التي تُحيل أي موقف عادي إلى حدثٍ خارقٍ للطبيعة! توجَّهت سريعًا نحو غرفتي لتغيير الملابس، كانت- على رغم صغر حجمها-

أفخم غرفة في الأستوديو، لم أضع فيها إكسسوارات وتحفًا مماثلة لتلك القابعة في خلفية برنامجي؛ لم أشأ أن أصدق أكاذيبي التي أبيعها للناس، دخل الفرَّاش بعد استئذانٍ ونحنحةٍ واضعًا كوب اليَنسون أمامي بيدٍ مُرتعشةٍ، حيَّاني بلقبي الجديد "مولانا"، مال على أذني هامسًا لأومئ له برأسي، تردَّد في الخروج من الغرفة حتى أعطيته ورقةً من فئة المائة جنيه شقَّت البسمة على وجهه ونثرت الدعاء على لسانِه. ما أعظم أن يؤمن بك الأتباع؛ وقتها تكونُ أموالك مجرد نفحة رضا يُمكن الاستغناء عنها...

اقتحم خالد غرفتي دون استئذانٍ، صب جام غضبه عليَّ مُعلنًا استقالته من البرنامج، حاولتُ تهدئته ففشلت، كان سخطه على محتوى برنامج "الموءود" يتزايدُ يومًا بعد يومٍ؛ بدأ بسلسلةٍ من الاعتراضات على الحلقة التالية لحلقات حادثة وفاتي، وتزايد مع حديثي عن تفسير الأحلام وأمور الفلك، وتعاظم بعد حلقة اليوم.. لم أستطع فهم اعتراضه على ما أعددناه واتفقنا عليه معًا.. نظرتُ إليه مليًّا؛ حاولت تفرُّس سبب اعتراضه، طلبت منه بلهجةٍ خانعةٍ أن يجلس لأحاول إرضاءه.. جلس نصف جلسةٍ على المقعد المقابل لمقعدي المستقر أمام مرآة التسريحة، منتظرًا مني أن أبدأ الحديث.. تعمَّدت استفزازه قائلًا:

- مالك اليومين دول يا خالد.. تحب أقوم أرقيك؟

- إنت هاتبيع لي بضاعتي يا يحيى، ده إحنا دافنينه سوا!

حاولت تهدئته وامتصاص غضبه؛ فضحكتُ متسائلًا عمَّا إذا كان يعرفُ القصة التي زُعِم أن هذا المثل الشعبي قد جاء منها.. لم يرُد فأكملت حديثي ساردًا أصل المثل كما حُكِي لي:

- بيقول لك زمان كان فيه إتنين صحاب بيسافروا بالحمار بتاعهم من بلد للتانية، كانوا بيحبوه وبيعتمدوا عليه في كل حاجة وسموه "أبو الصبر".. مرة وهما مسافرين الحُمار وقع مات منهم؛ فدفنوه زي ما يكون صاحبهم بالظبط وقعدوا جنب قبره يعيَّطوا، وكل ما حدّ يسألهم يقولوا له: "أبو الصبر مات.. اللي كان بيهوِّن علينا السفر ويشيل حمولنا مات!" الناس افتكروهم بيتكلموا على وَلي عنده كرامات وبدأوا يعيَّطوا معاهم ويطلبوا البركة من "الشيخ" أبو الصبر. بنوا خيمة حوالين القبر، شوية والخيمة بقت أوضة والأوضة بقت مقام.. وفي مرَّة اختلفوا وهمَّا بيقسِّموا فلوس صندوق النذور اللي في المقام؛ فواحد منهم قال لصاحبه هاشتكيك للشيخ أبو الصبر...

قاطعني خالد قائلًا بفهمٍ:

- فطبعًا التاني قال له: "أبو الصبر مين؟.. ده إحنا دافنينه سوا!".. بس ماخدتش بالك يا طحاوي إن في حكايتك الناس طلعت في الآخر ماشيه ورا حُمار!

ضحكتُ ضحكةً مفتعلةً وابتلعتُ الإهانة مطمئنًا إياه أننا لن نصدق كذبنا، ولن نأكلَ في نفس المكان الذي نُخرج فيه فضلاتنا، طلبت منه الاستمرار معي حتى الحلقة القادمة التي ستكون آخر حلقة في الموسم سنين؛ هدم أساسات الوعي لدى الناس، وضربهم في آه.. أخبرني أن ما نفعله بمثابة مَوْضِعِ اللَبِنَة الذي يتمم للنظام الحاكم هيكل الأمية والجهل الذي يشيده منذ زمنٍ، واختتم حديثه بلهجةٍ عمليةٍ قلما أسمعها منه قائلًا إنه خرج عن اعتزاله الدنيا وعن باقي مبادئه بسبب المال ليس إلَّا.. كان تلميحُه واضحًا فأجبته أنني لن أستطيعَ أن أزيده من المال؛ فهو يقبضُ أضعاف طاقم العمل كله ويكاد راتبه يقترب من راتبي، ولكن إسرافه في الإنفاق على ملذاته التي أدمنها يخل بتلِّ الأموال التي يتقاضاها.. صرخ فيَّ أنه ليس مدمنًا؛ فلا هو يحك أنفه ولا يتهرَّش أمامي!

نهض غاضبًا معلنًا انتهاء الحوار، اتصلت على الفور بجبران الذي صار سائقي الخاص وأحد أهم مساعديني، طلبت منه مراقبة خالد وإرسال سائق سيارتي الأخرى كي يُقلني من الأستوديو. نظرت إلى صورتي مع خالد وطاقم

العمل الأساسي أيام الإعداد لهذا البرنامج؛ كم تغير شكله وازداد وزنًا على وزنه، كما زاد لمعانُ بشرته السمراء التي كانت خافتةً باهتةً فيما مضى. كدتُ أغادر الأستوديو قبل أن أصطدم بمعاذ عصفور الذي حمد الله أنه لحق بي قبل أن أغادر، عاتبني سريعًا على تجاهل اتصالاته، أخبرني أن قضية الحَجْر المرفوعة ضدي سيتم النظر فيها بعد غدٍ ويجب أن أجلس معه غدًا للاتفاق على صياغة المرافعة المُثلى للرد على حجج أهلي الكثيرة، أخبرته بحزمٍ أنني في غنى عن مرافعته.. وليَقضِ اللهُ أمرًا كان مفعولًا؛ فأنا لن أحضر الجلسة من الأساس!

***

فور وصول خالد إلى مقر جريدة "شمس مصر" استقبلته تهاني درويش رئيسة التحرير بنفسِها، أدخلته مكتبها وسط زحامٍ من الصحافيين الشباب الذين يُدركون-بحكم عملهم- أهمية خالد كونه ذراعَ يحيى الطحاوي الأيمن وأهمية انضمامه إلى معسكرهم في تحقيق مسعى رئيستهم في تقصِّي حقيقة الموءود.. اندهش خالد من الشهرة التي ذاق طعمها لأول مرةٍ في هذا المكان؛ فدائمًا ما ينصرف الناس عنه لصالح نجم العرض الأول: يحيى.

طلبت تهاني من سكرتيرها الشخصي إحضار أي مشروبٍ يطلبه خالد، وأن يجلب لها جهاز التسجيل الخاص بإجراء

الحـوارات الصحفيـة.. التقـط خالـد قلـمًا وورقـةً مـن فـوق مكتـب رئيسـة التحريـر، كتـب رقـمًا منـاولًا الورقـة إلى تهـاني التـي اندهشـت حـين عرفـت ثمـن رأس يحيـى الطحـاوي، وبعـد تفكـيرٍ قصـيرٍ أبـدت موافقتهـا ليعدهـا خالـد بتسـليم رأس حليفـه السـابق عـلى طبـقٍ مـاسِي.

وكأن تهـاني كانـت تنتظـرُ هـذه اللحظـة بفـارغ الصـبر؛ فأخرجـتْ ورقـةً ملخصـةً فيهـا أهـم الحـوادث التـي وقعـت عقـب ظهـور يحيـى عـلى السـاحة: بدايـة مـن خـبرٍ صغـيرٍ عـن حادثـة دفنـه بصـورةٍ خاطئـةٍ، مـرورًا بإعلانـاتٍ ترويجيـةٍ لكتابـه وبرنامجـه التلفزيـوني الـذي يعـرف فيـه معلومـات عـن المتصلـين دون أن يتحدثـوا مـع فريـق الإعـداد، وانتهـاءً بالـكلام المنثـور عـن قدراتـه غـير العاديـة التـي يظهرهـا داخـل صومعتـه في طحـا، وكيـف جعلـت النـاس يظنـون أنـه ولي صالـح.. وعدهـا بإخبارهـا الحقيقـة وراء أغـرب الشـائعات التـي طـاردت يحيـى، شـغَّلت المُسـجِّل ونظـرت في الورقـة التـي أمامهـا وقالـت:

- عـلاج شـاب مـن مَـسِّ الجِـن، عمـل أحجبـة محبـة، فرقـة الكـورة الـلي كسـبت النهـائي بعـد زيارتـه للنـادي، اسـتعادة صنـدوق النـذور المـسروق مـن مسـجد قريتـه، إعطـاء دور بطولـة للفنانـة نانـا الحفنـاوي برغـم إن المخـرج كان رافضهـا وشـايفها أكـبر مـن الـدور بعـشر سـنين.. إزاي عمـل كل ده؟!

اعتدل خالد في جلسته وبدأ يسترسلُ في حديثه قائلًا:

- بالنسبة للبرنامج.. فالإنتاج كان موفر لنا موظفين بيشتغلوا في شركات المحمول بياخدوا الأرقام ويجيبوا لنا بيانات أصحابها قبل ما يحيى يكلمهم، والخط اللي مش متسجل على الكنترول ما بيدخلوش على الهوا من أساسه.. تفسير الأحلام والأبراج بيكون اجتهاد وذكاء شخصي من يحيى؛ كده كده فيه حقايق ثابتة في حياة كل واحد وصفات مشتركة لكل الناس.. بيلعب عليها لحدّ المتصل ما يفضح أي جزء من شخصيته، ما تنسيش إن في الشهور اللي فاتت يحيى بقى عنده مخزون ثقافي كبير في مجالات زي الفراسة وعلم النفس وتفسير الأحلام، ده غير ذكائه الشخصي وتأثير التجربة اللي مرّ بيها عليه.

أشارت إليه أن يستمرَّ في الحديث، فأردف قائلًا:

- موضوع المَسّ ده كان مجرد شاب فقير مصابٍ بالصَّرع، حدّ من فريق الإعداد عرض عليه تحمل إنتاج البرنامج لتكلفة العلاج كاملة مقابل إن أول ما تيجي له النوبة يكلم الطحاوي ويتقابلوا في الصومعة ولمّا النوبة تخلص يخرج هو وأهله يدعوا ليحيى ويحكوا لكل الناس عن اللي حصل، الناس هناك مؤمنة بيحيى فوق ما تتخيلي، فإيمانهم بيخليهم يصدّقوا كل حاجة.

وما حدّش طلب من يحيى أحجبة محبة غير شاب اسمه جورج، بس أقنعه إن البنت اللي عينه عليها مش هاتسعده في حياته.

- مسيحي راح لدجَّال مسلم؟!
- الجهل مالوش دين.
- واقتنع؟
- ما بتشوفيش الطحاوي في صومعته بيكون عامل إزاي؛ غول بعيد عنك، أنا نفسي ساعات بأصدقه.. بس موضوع الفنانة ده بقى اتحلّ من فوق؛ يحيى كلم سامح أبو خاطر وقال له إن الموضوع ده هايفرق معاه وهايشهره في وَسَط مهم، وفجأة المخرج اتغير ونانا بقت البطلة!.. وفيه حاجات بقى لسّه ما فهمتش عملها إزاي.

لم تخبره أنها ستحذف الجزء الذي تحدَّث فيه عن سامح أبي خاطر.. وسألته باهتمامٍ:

- زي موضوع فريق الكورة؟

هزَّ رأسه نافيًا وقال بحيرةٍ صادقةٍ:

- ده ممكن يكون حظ.. بس أنا قصدي على الحادثة اللي شهرته من الأساس؛ لما الدكتور وكل الناس قالوا إنه ميِّت ودفنوه.. إزاي رجع تاني؟!

***

دخلتُ جريدة "شمس مصر" وسط دهشةٍ ورهبةٍ من جميع العاملين بها، لم يجرؤ أحدٌ على اعتراض طريقي، فكَّر السكرتير في النهوض كي يسبقني إلى مكتب تهاني محذرًا، ولكن إشارةً واحدةً من إصبعي منعته وجعلته يُؤْثر السلامة.. اقتحمتُ غرفة المكتب والتقطت أذناي جملة خالد "كل الناس قالوا إنه ميت ودفنوه.. إزاي رجع تاني؟!".. لم يكن خائفًا من "الشيخ الطحاوي" بقدر فزعه من رؤيته في هذا الموقف من قِبَل "صديقه" يحيى.. نهض مناديًا باسمي فأشرتُ إليه بأن يصمتَ ويجلسَ، كذلك أشرت لتهاني أن تفعل، جذبت أقرب مقعدٍ وجلست معهما قائلًا:

- عايزة تعرفي رجعت إزاي يا مدام تهاني؟!

قالت تهاني مُعترضة:

- آنسة من فضلك.

نظرتُ إليها من أعلى إلى أسفل وضحكتُ قائلًا:

- حلو ده.. نسيب السر اللي محيِّر سبعين مليون نَسَمة ونشوف الهانم ما اتجوزتش ليه!

سألني خالد عن سرِّ عودتي بتحدٍّ واضحٍ مُتناسيًا موقفه الضعيف المُتخاذل.. جذبتُ جهاز التسجيل من يد تهاني عَنوةً، اعترضتْ على فعلتي ولكنها تجنَّبَت لمسي.. وضعتُ

المسجل في جيبي بمنتهى الهدوء، قلتُ بعد أن اتسعت عيناي ونظرتُ إلى خالد:

- جاي أنقذك من نفس مصيري اللي حوَّلني للشيء اللي قدَّامك..

بدت الحيرةُ على كليهما، أكملتُ حديثي بعد أن أدركتُ أنني قد ظفرت بكامل الاهتمام:

- جِن كافر مطرود من عشيرته؛ أقنع قريني إنه يخليني أبان ميت للناس وأنا واعي للي بيحصل ومش قادر أغيَّره.. لعنني بأقذر لعنةٍ ممكن حدّ يتلعنها، ولولا رحمة ربنا مكانش زماني وسطكوا.

ضحك خالد قائلًا إنني قلتُ نفس الحديث الكاذب في البرنامج، قال لي: "إلعب غيرها يا شيخ".. رددتُ بجديةٍ دون أن أرمش:

- أنا مش جاي ألعب، وكنت بحاول أفهِّمك قبل ما تسيبني وتمشي...

نهضتُ من مكاني، لمحتُ تهاني تتراجع في مجلسها خائفةً، أمسكتُ بكتفيْ خالد قائلًا بجدية:

- أنا عايز ألحقك؛ نفس الجن بيحاول يقنع قرينك إنه يكرر نفس اللعنة عليك، وتقريبًا قرينك وافق!

ضحك خالد وردد كلامًا من نوعية أنه لن يشتري الوهم، وأن بضاعتي صارت خاسرةً.. لم أرد. استغلَّت تهاني صمتي وعلا صوتُها مُنادية العاملين بجريدتها الواقفين خارج غرفة المكتب مُترددين بالدخول.. لم أبدِ أي ردة فعل.. هددتني إن لم أرد لها جهازها وأرحل فستطلب لي الشرطة فابتسمت لها بهدوءٍ.. نظرتُ إلى خالد الذي لم ينبس حرفًا منذ دقائق، تصبَّب عرقًا مُمسكًا موضع قلبه يُحاول الاستنجاد من شدة الألم فخرجت صرخاتُه فحيحًا، ظل هكذا حتى انقطع نفسُه.. وسقط على الأرض في الحال.

١٦

كُلُّ حُلَفَائِكَ..

الأحد 5 نوفمبر 2006

نظرتُ لساعة يدي الباهظة منتظرًا إيفلين في المطعم الذي اعتدنا اللقاء فيه من آنٍ إلى آخر، كم تطورت عَلاقتنا سريعًا بعد العمل معًا، ساعدتني معنويًّا وعلميًّا في تكوين شخصيتي الجديدة التي أُخفيها الآن خلف نظارةٍ سوداء أطالع من خلفها الجالسين داخل المكان؛ كان عددهم غير كثيرٍ بحكم التوقيت الذي جاوز الظهر قليلًا، كما لعب غلو المكان عاملًا مُساعدًا في خلوه. في بداية شهرتي كان اللقاء يتم في أماكن عادية؛ فلا نستطيعُ إتمام جُملةٍ واحدةٍ دون مقاطعة المتطفلين الذين يطلبون مني البركة أو التقاط الصور التذكارية أو استشارة في أيٍّ من مشاكلهم البغيضة.. تلك التي تُشبه رائحة أنفاسهم وعَرَقهم المكتوم حين تداهمني أثناء تقبيلهم لي بلا داعٍ. أثار تقبيل الرجال

وعناقهم الطويل لبعضهم البعض اندهاش إيف في بداية تعرُّفها على طبائع المصريين حين أقبلت أول مرةٍ بصحبة زوجها السابق.

لمحتها خلال واجهة المطعم الزجاجية تُحاسب سائق السيارة الأجرة وتُجادله في قيمة التعريفة؛ أعتقد أنها ورثت هذه العادة من أمجد الذي كان يكره أن يطلب الناس أكثر من حقهم. طلبتُ من النادل قائمة الطعام، نظر كلٌّ منا في خاصته.. بدأتُ مؤخرًا أنظر إلى الرقم المقابل للصنف قبل معرفة مكوناته؛ فإذا كان السعر كبيرًا لفت انتباهي إلى الخانة المقابلة. لم تفتح إيف القائمة الموضوعة أمامها من الأساس، طلبتُ لكلينا نفس الوجبة، سألتها عن الأكلات في بيئتها الأم فجاءتني إجابتُها مُقتضبةً؛ لم أعرف إن كان لجهلها بالمطبخ الألماني، أم لقلة مأكولاته وضعف جودتها. حاولتُ ثانيةً إبعاد دفة الحديث عما تنشد فلم أفلح.. عاجلتني بحديثٍ غاضبٍ قائلةً بصوتٍ حاولتْ خفضه إنها تتعجَّب من عدم مبالاتي وفتوري التام تجاه قضية الحَجْر؛ التي سينطق الحُكم النهائي فيها بعد قليلٍ، سألتني عن السبب الحقيقي وراء عدم حضوري الجلسة في المحكمة، لم تنتظرْ إجابتي؛ اتهمتني بالسلبية والتقاعس.. لم أحاول الدفاع عن نفسي.. أخبرتني أنني أدمنتُ الشعور بدور الضحية التي لا تُريد التمرد على الظلم الواقع عليها؛ ليظل حجة تُبرر بها جميع إخفاقات الحياة.

نظرتُ مباشرةً إلى عينيْها وقلتُ مُبتسمًا:

- تعرفي إنك لما بتكشَّري عليّ بتكوني حلوة؟

أشاحت بوجهها في الجهة الأخرى دون أن ترد، فقلتُ مُبررًا:

- مش هاروح أقف قدام عيلتي في المحاكم، وبالذات ناجي؛ مهما عمل هايفضل أخويا.. بعدين عارفة الصحافة لو شمِّت خبر زي ده ممكن يحصل إيه؟

استمرَّ تجاهلها، فأردفتُ قائلًا إن الفضيحة ستصل إلى شاشات التلفزيون؛ سينتهز المتربصون بي من المنافسين الفرصة لعمل حلقاتٍ كاملةٍ عن القضية مُستضيفين أقاربي في برامجهم.. سألتني عمَّا سأفعل إن خسرتُ القضية وخسرت معها كل أموالي.. قلتُ لها بهدوءٍ:

- معاذ عصفور قال لي إنه- على سبيل الاحتياط- قدر يستغل ثغرة في حصر ممتلكاتي، وجاب لي شيك بتاريخ قديم عشان أكتبه باسم أي حدّ بأثق فيه يقدر يرجعه لي بعد القضية لو خسرت كل حاجة.

سألت إيف بقلقٍ عن اسم المستفيد من الشيك.. فأجبتُها مُبتسمًا أنه مكتوبٌ باسمها.. حاولت إخفاء ابتسامتها الخجولة، تساءلت بلهجتِها المكسرة:

- للدرجة دي وثقت فيّا؟

- للدرجة دي حبيتك.. حبيتك عشان إنتي الأنثى الوحيدة اللي ما بكونش مصطنع معاها؛ ما بفكّرش في كلام أضحكك بيه، ولَّا بأحكي مواقف من خيالي تبيّن لك رجولتي.. ما بحاولش أكون حدّ تاني.

ضَحكتُ في خجلٍ قائلًا:

- أقول لك على سرٍّ؟.. أنا عُمري ما شفطت كرشي وأنا معاكي!

ضحكت ضحكة طويلة بادلتها بأخرى، كانت على علمٍ بحبي لها منذ اليوم الذي جعلتها تُرافقني إلى طحا؛ حاول بعضُ النسوة مضايقتها بنظراتهن وكلماتهن الجارحة التي قيَّمت إيف من ملابسها الضيقة وشَعرها الأحمر فاتح اللون الذي يلمع كخيوط الشمس وقت الشفق. اصطحبتها إلى المنزل غير عابئ بنظرات البعض، تجنَّبت دعوات قريباتي كي أزورَهن، كما حذرتُ إيف من التعامل مع إحداهن بشكلٍ مباشرٍ؛ فقد تعلَّمت من زواجي الأول قيامهن ببعض الأعمال والأحجبة السحرية التي يعكفون على دسِّها في الطعام أو الشراب المُقدم أو بين ثنيات الملابس والأثاث، أدخلتها غرفة النوم التي ورثتها عن أبي، وأطلعتها على أعظم ممتلكاتي: صندوق العطور الذي أحتفظ به منذ وفاة أبي وأمي، أحتفظ داخله بزجاجاتِ العطر التي كان يستعملها كل أحبائي الراحلين فأستنشقها حين أشتاق إليهم.

سألتني إيف عن نتائج التركيبة التي وضعتها لخالد في مشروبه أثناء وجوده في الأستوديو، أخبرتها أن مفعول التركيبة بدأ في الميعاد الذي كنتُ أرغبُ فيه تمامًا.. فحملتُ خالد مُسرعًا بمعاونة السكرتير داخل سيارتي مُقْنعًا تهاني أنني سأتوجه به إلى أقرب مستشفى، تعمَّدت أن أصطحبها معنا في السيارة. أخبرتُ إيفو أن حسابها لوقت بداية عمل التركيبة الثانية كان دقيقًا إلى حدٍّ كبيرٍ؛ فحين أدركتُ أن لحظة الإنعاش اقتربت.. توقفت على جانبِ الطريق، أمسكتُ برأس خالد الساكن تمامًا، لم أعبأ بصرخاتِ تهاني الآمرة بأن أسرع نحو المستشفى.. تلوتُ عليه بعض الكلمات المنمقة المختلطة ببعض آياتٍ من القرآن، أعدتُ كلماتي عليه ونوَّعت في نبرة صوتي وأدائي، ازداد الجوُّ سخونةً وتصبَّبت جبهتي عرقًا بعد أن تعمَّدت إطفاء مكيف هواء السيارة وإغلاق الشبابيك.. بدأت التركيبة الثانية تُظهِر كراماتها على خالد الذي ارتجف رجفةً أعرف أعراضَها جيدًا مذ أن راودتني تحت الأرض.. استجاب خالد للتركيبة وعاد مفزوعًا لاهث الأنفاس. صرخت تهاني كاشفةً عن أسنانٍ صفراء وبَدَأتْ تستعيذُ بالله مما رأتْ، طلبت مني العفو على افترائها في حقي.. أشفقتُ عليها، ولكن وجب عليَّ أن أتقن دور الشرير الذي أحببته؛ قلتُ بلهجةٍ رصينةٍ مُهدئًا من روْعها إنه لم يمت في الحقيقة؛ فلَعْنته أعمت بصيرتنا عن حياته كي يواجه مصيرًا

مُشابهًا لما واجَهته، لعنتُ اسمًا من أسامي زعماء الجان أمامها حتى أُطعمها كذبتي.

ضَحكَت إيف، حاولت الأكل بشهيةٍ متناسيةً القضية التي ننتظر معرفة الحُكم فيها؛ وعدني معاذ أن يتصل بي فور النطق به.. أخبَرَتني بقلقٍ أن بحثها عن علاج من آثار التركيبة لا يزال جاريًا.. قلتُ لها إنني أثقُ في نجاحها تمام الثقة؛ وإلا ما أعطيتُ التركيبة لخالد مُعرِّضًا حياته للخطر، فكرتُ قليلًا ثم سألتها عن أحلى بلد زارتها في حياتها.. أجابتني أن الهند كانت الأجمل، سألتني نفس السؤال.. خجلتُ من إخبارها أنني لم أغادر مصر طوال عمري؛ فأجبتُها مراوغًا:

- أحلى مكان زرته؟.. عينيكي طبعًا.

ضحكت قائلةً إنني تعلَّمتُ المُجاملات والتملُّق على كِبر.. لم أردّ، فكرتُ قليلًا ثم قلتُ مُفاجئًا:

- أنا بقالي فترة بفكر أهاجر برَّه مصر، وبدأتُ إجراءات لكده فعلًا؛ عايز أبدأ حياة جديدة مع ناس ما تعرفنيش ولا تعرف حكايتي.. تحبي تهربي معايا؟

***

اعتاد معاذ العمل تحت أسوأ الظروف والخروج منتصرًا من أضيق الثغرات بأضعف حجج التي-غالبًا- لا يُصدقها طفل، ولكن القانون لا يعترف إلا بالمستندات التي قد تدعم

أو تهدمُ منطق القضية.. كانت تلك المرة الأولى التي يرفضُ فيها الموكل الحضور أو حتى مساعدة الدفاع على تقديم البراهين اللازمة لإبطال الادعاء. وقف ناجي في فخرٍ طفولي كالتلميذ الذي أفحم أستاذه؛ تذكَّر لحظة تقدُّمه للتدريب والعمل في مكتب معاذ وسط مئات غيره من الطامحين في وظيفةٍ مع واحدٍ من أشهر محامي مصر، طالما رأى ناجي في معاذ عصفور إلهامًا لما يُريد أن يكونه؛ فعصفور لُفِظَ من سلك القضاء ليعود إلى منظمة العدالة أقوى مما كان؛ مرتديًا روب المحاماة.. تمر الأيام ويتألق في زيِّه الجديد، يذيع صيته فيخشاه الجميع متجنِّبين بذاءة لسانه الطعَّان الذي يتلفظ بألعن الألفاظ، وعقله المنتبه للكثير من ثغرات القانون.

كانت غرفةُ الجلسة السرية بسيطةً قليلة الأثاث.. ووقف أمام القاضي كلٌّ من ناجي وعطوة ونرجس في جهة، ومعاذ عصفور مع أحد مساعديه في جهةٍ أخرى، كان مصير القضية واضحًا في عيون جميع الواقفين، لدرجة أن ساعي المحكمة أدرك وهو يضع القهوة الخاصة بالقاضي أن الكفة ستميل نحو الطحاوية حين رأى نظراتهم، وقارنها بالقلق البادي على مساعد معاذ الذي كان يقضم أظافر يده. تقدَّم ناجي بالمذكرة الوارد بها كل ما يُقوِّي ادعاءه بعدم أهلية يحيى للتصرُّف في ممتلكاته؛ بدايةً من شهادته بحُكم كونه أخ المُدَّعى عليه والأجدر بالتصرف في أملاكه، مرورًا بشهادة كل من عطوة الذي حضر ليؤكد شهادته شفهيًّا، وشهادة

فرحات الذي رفض المجيء مُكتفيًا بالتوقيع على ما كتبه ناجي، وشهادة نرجس مُرفقًا معها تقريرًا طبيًّا للإصابات التي أحدثها يحيى بجسدها مثبتةً بتاريخ بعد حادثة الدفن، وبعض شهادات أهل القرية الذين أقرُّوا بأنهم يستمدون البركة ويلتمسون الفرج من يحيى أثناء مكوثه في صومعته، إضافة إلى بعض حلقات برنامجه التي يقرُّ فيها بنفسه بالواقعة المؤلمة التي حدثت له وكيف أثَّرت عليه وعلى نظرته للأمور الدنيوية.. طعن عصفور في كل الشهادات لأن أصحابها منتفعون من الحَجْر وخاصة ناجي، واضعًا خبر اقتراب غلو سعر الأرض أمام عين القاضي.. ولكن ناجي الطحاوي حسم القضية سريعًا واضعًا اسمه وسط محاميي الصف الأول في مصر؛ فأخرج شهادةً مكتوبةً بخط يد الضابط الذي أقرَّ فيها أنه حين أتى المنزل وجد يحيى يسأل عن جده الذي تُوفي منذ زمنٍ بعيدٍ مُتحدثًا عنه بصيغة الأحياء!

طلب ناجي الإذن لدخول الصحافية تهاني درويش التي أخبرته بأن لديها ما تُدلي به في القضية، فوجئ بدخول تهاني بصحبة فرحات وبعض من الأقارب ليحيى وأهل طحا في منظرٍ أثار غضب القاضي.. أصرَّ على طردهم لولا أن مساعد معاذ عصفور أكَّد له متوسلًا أن وجودهم سيُحول مجرى القضية.. شهد جميعُهم برجاحة عقل يحيى الذي لم يسأل أحدهم مالًا ولم يأخذ إن عُرِض عليه، بكى فرحات

مُذكرًا عطوة وناجي من جزاء شاهد الزور عند ربه، لاعنًا المرض والعَوَز الذي أحوجه إلى القدوم على مثل هذه الفعلة، ترحَّم على المهندس أحمد رفعت الطحاوي الذي كاد أن يظلم أولاده لصالح أخيه؛ وكأن الزمنَ يُعيد نفسه ويختبره من جديدٍ.. فرفض هذه المرة الفشل في الاختبار، أخبر القاضي أن العُمر لم يعد فيه وقتٌ للاستغفار والتكفير عن ذنبٍ بهذا الحجم. بحركةٍ خفية وضعت تهاني ورقةً صغيرة الحجم في يد نرجس في ظل دهشة الأخيرة.. عادت الحياةُ إلى معاذ الذي استغلَّ الموقف وسأل القاضي سعة الصدر لسماع المزيد من الشهادات.. طلب ناجي من تهاني مُترجيًا أن تسرد على القاضي ما توصَّلت إليه من خلال تحقيقاتها الصحفية المستمرة عن يحيى؛ فردَّت بصدقٍ أنها وجدت في يحيى قدراتٍ تفوق البشر، وأنها تختلفُ مع طريقته في العمل ولكنها تؤمن مطلقًا بأنه شخصٌ على قدرٍ كافٍ من رجاحة العقل والكفاءة المُطلقة لإدارة أملاكه، لم تذكر تفاصيل الموقف الأخير الذي جمعها به ولكنها لمحت إليه تلميحًا لم يستوعبه خيالُ القاضي.

جاءت الضربةُ الأخيرةُ حين احترق معسكر ناجي بخيانةٍ من نرجس؛ التي بكت معترفةً أن يحيى ضربها لسببٍ وجيه تتمنى أن يسامحها الله عليه، وأن الضرب تم قبل حادثة دفنه عكس المذكور في التقرير الطبي. فتح ناجي أزرار بدلته وعدَّل قليلًا من وضع رابطة عنقه لأسفل.. جفَّ

ريـقُ عطـوة ولم يجـد مـا يقولـه.. أصرَّ ناجـي عـلى ادعائـه الـوارد في مُذكرتـه الورقيـة مُحكمـة الصياغـة.

طلـب القـاضي مـن الجميـع الخـروجَ، وقـد بـدا عليـه الضجـرُ مـن الطريقـة التـي انتهـت إليهـا الأحـداثُ؛ فقـد أخـذت وسـتأخذ الكثـير مـن وقتـه، فهنـاك تـلٌّ مـن القضيـة التـي نظـر فيهـا قبـل هـذه، وتـلٌّ مماثـلٌ بعدهـا تحتـل أرقامـه "رول" الجلسـة. انتهـى القـاضي مـن النظـر في مسـتجدات القضيـة سريعًـا، واسـتدعى ناجـي وعصفـور عـلى انفـرادٍ، أعلـن عليهـما مـا آل إليـه قـرارُه وارتـاح إليـه ضمـيرُه في تحقيـق العدالـة: فقـد حكمـت المحكمـة- بعـد الاطـلاع عـلى الأوراق وسـماع الشـهادات ومـا إلى ذلـك مـن ديباجـة النطـق بالحكـم- ببطـلان دعـوى الحَجْـر المُقامـة مـن ناجـي الطحـاوي عـلى أخيـه يحيـى الطحـاوي، وتكليـف الأول بأتعـاب المحامـاة.

***

أمـرتُ جـبران أن يسـتقل سـيارة أجـرة تُعيـده إلى منزلـه بعـد أن ابتـاع لي زجاجـة ميـاه معدنيـة وبعضًـا مـن الحبـوب المُسـكنة لتقـاومَ آلام ظهـري التـي حلَّـت بي بعـد الحادثـة ولم أعتـدْ عليهـا بعـدُ، كـما لم أعتـد ضعـف بـصري الـذي صعَّـب عـليَّ القيـادة ليـلًا. توجَّهـتُ إلى ترعـة القريـة حيـث أقـضي أمسـياتي مؤخـرًا؛ تجنُّبًـا لصحبـة النـاس، ومـلاذًا يحمينـي مـن الهـلاوس المتعلقـة بظهـور جـدي رفعـت- الـذي بـدأتُ أعـترفُ

برحيله- في محيط المقابر. وجدتُ ملاذي المزعوم في صفحة المياه الصافية؛ ألقي فيها الحصى وأشاهد اختفاءها تاركةً خلفها موجاتٍ اهتزازيةً يقل ترددها في ثوانٍ حتى يختفي، ليعود سطح الماء أملس كما كان. شعرتُ بحركةٍ من خلفي، لم أعبأ بها كما اعتدتُ مؤخرًا ألا أهاب ولا أبالي لأي خطرٍ بشري مُحتملٍ؛ فقد تولَّدت عندي هالةٌ من الرهبة التي تقيني شرَّ هؤلاء.. ألقيتُ الحجر في الماء لأسمعَ صوت رفعت الذي افتقدته يقول:

- طول عمرك غشيم وبترميها غلط؛ ميِّل إيدك على جنب وارميها بعرض الترعة؛ بحيث تمشي أكبر مسافة مُمكنة في الهوا.. عشان الزلطة تدخل المية وتطلع كذا مرة.

نظرتُ إليه دون أن أردَّ، حاولتُ التفكير في شيءٍ آخر يصرفني عن تلك الحالة الذهانية التي تُطاردني؛ سرحتُ في أحداث اليوم حين جاءني اتصالُ معاذ عصفور المنبهر بما حدث داخل قاعة المحكمة.. أظن أنه قريبًا سيُصبح من دراويشي وسيكف عن امتصاص خُمس ثروتي أتعابًا له. قلتها له ولخالد من قبله: "أهم شيء هو إيمان من حولِك بك.. فإذا آمنوا أصبحوا خاتمًا في إصبعك تحركه كيفما تشاء، وصاروا مُريديك وطوع كلمتك ورهن أقل حركة تصدر عنك".

حدَّثني عصفور عن الانقلاب المفاجئ في مجريات القضية قبل النطق بالحكم بلحظاتٍ، تعجَّب من عدم قدوم خالد للشهادة ضدي كما ادَّعى ناجي، استفسر عن محتوى الورقة التي ناولتْها تهاني لنرجس؛ والتي كانت سببًا في قلب موازين الأمور من داخل مُعسكر الطحاوية.. أخبرته أنني أرسلتُ لنرجس جملةً واحدةً بخط يدي الذي تعرفُه جيدًا منذ أن كنتُ أمحو أميتها: "ما فيش مصراوي بيتجوِّز فلاحة"، وأن خالد طلب مني الفراق النهائي بعد أن صار يخشاني بحق. أخبرني ببهجةٍ طفوليةٍ أن هذه أغرب قضية مرَّت عليه في تاريخه.. جعلته يُقسم على ألا ينشر أي تفصيلة منها للصحافة كما طلبتُ من تهاني، فاستجاب بصدقٍ دون تفكيرٍ، وصف منظر ناجي وعطوة بعد الحُكم بالمثل الشعبي: "اتلم المتعوس على خايب الرجا"...

- هاتفضل عامل نفسك مش شايفني وعامي عينك عن الحقيقة؟!

نظرتُ إلى رفعت، مُترجيًا أن يختفي من أمامي؛ فلترتحْ روحُه في مسكنها عند ربِّها، ويكفّ عن زيارتي قاطعًا علاقته بعقلي الباطن المتوقف عند وفاته التي أنكرتها صغيرًا كما يُقر ناجي وعطوة وتؤكد جميع الدلائل كلامهما. صرخ فيَّ أنه حقيقي وليس محض وهم، نظر إلى السماء في حيرةٍ، ثم سألني بعصبيةٍ بعد برهةٍ من التفكير:

- أنا عُمري ضربتك أو مديت إيدي عليك؟

هـزتُ رأسي نافيًا دون أن أنظـر إليـه، فقـال بنفـسٍ لهجتـه الغاضبـة بعـد أن صفعنـي صفعـةً مؤلمـةً سرت بهـا الرجفـةُ في أعصـاب وجهـي كلهـا:

- طب أديني ضربتك!

أتى بصنـدوق فرحـة الـذي لم ألحـظ مـن البدايـة أنـه كان يحملـه، جلـس بجـواري ليواجـه الترعـة، ثـم وضـع الصنـدوق بيننـا مائـلًا بجسـده في الاتجـاه المقابـل لي، لم يبـالِ بدهشـتي، لكـزني في كتفـي مُكملًا حديثـه في غضـبٍ:

- أنـا رحـت البيـت خدتـه يـوم مـا منصـور الزفـت ده قـال لـك إني ميـت؛ كان يـوم جمعـة سـاعة صـلاة وإنـت كنـت سـايب بـاب المطبـخ مفتـوح.. كنـت حاسـس إنهـم هيقولوا لـك قريّـب إني ميـت وإنـك هتبطَّـل تـزورني، خوفـت أنـسى ملامحـك أنـت والغاليـين.

أخـرج الصـورة التـي تجمعـه بزوجتـه وأولاده، تدحرجـت دمعـةٌ مـن عينـي رغـمًا عـن إرادتي حـين رأيـت فرحـة وأبي.. أسـتطيع منـذ صغـري أن أميِّـز صـورة الحـي مـن الميـت؛ أدرك أن تغـيرًا ملحوظًـا يطـرأ عـلى ملامـح البـشر بعـد وفاتهـم، لا أسـتطيع أن أذكـره تحديـدًا، فالملامـحُ كـما هـي.. لكـن التغـيُّر موجـود. أشـار رفعـت إلى أبي الملاصـق لعمتـي حـين كانـا

صغيريْـن، ونبَّهنـي إلى الطفـل ابـن العـاشرة الـذي كان يحملـه عـلى كتفـه قائـلًا بحـزمٍ:

- مـش ملاحـظ في الصـورة دي إن أبـوك وعمتـك واقفـين عـلى رجليهـم برغـم إنهـم أصغـر مـن العيـل الـلي أنـا شـايله ده؟!

لم أسـتطع تجـاوز شـكي في وجـود رفعـت بجـواري مـن الأسـاس، ولكـن أجبتـه:

- أكيـد ده عطـوة؛ هـو طـول عمـره مُتعِـب.. أكيـد كان طفـل متدلـع يعني!

هزَّ رأسه نافيًا:

- عمـك عطـوة مكانـش في الصـورة دي؛ هـو الـلي كان بيجرّب الكامـيرا وبيصوَّرنـا؛ كانـت جديـدة وغاليـة وكنـت شـاريها بتمـن إيـراد الأرض كلـه..

سـألته باهتـمامٍ عـن هويـة الطفـل الـذي يحملـه فأجـاب وهـو ينظـر إلى الميـاه:

- ده عمك سرور الطحاوي الله يرحمه؛ ابني البكري!

كانـت هـذه أول مـرةٍ أرى دمـوع رفعـت مترقرقـةً داخـل عينيْـه؛ قـصَّ عـليَّ حكايـة سرور مـع المـرض الـذي وُلِـد بـه؛ كان ضحيـة زواج أقـارب، خـرج إلى العـالم بنصـف سـفلي مشـلول.. كـما كان مُعتـلا بإعاقـةٍ في مخـارج الحـروف، ولكنـه كان طيبًـا

مُتسامحًا يُحاول الاجتهاد في تعلُّم القراءة والكتابة برغم عجزه.. لم تكن فرحة قبل وجوده كجدتي التي أعرفها وأعشقها؛ كانت على قدرٍ من الكبرياء والشعور بقيمة الذات.. لم تكن حريصةً على مساعدة الفقراء والسعي إليهم.

غيَّر سرور في أبيه كما بدَّل حال أمه؛ فأدخل قبسًا من رحمةٍ على قلبه؛ جعل منه عمدة أفضل وحاكمًا أكثر عدلًا، أصرَّ فيما بعد على تغيير اسمه من "رضا" إلى "سرور" لأنه أدخل السرور عليهم.. نما سرور وكبرت مشاكله معه؛ فأصبحت تأتيه نوباتُ صرع فَسَّرها البعضُ على أنها مَسّ شيطاني، لدرجة أن رفعت أخفاه عن الحياة وعزله في غرفته، لم يُخبر أيًّا من أحفاده أن لهم عمًّا بهذا الاسم.. ظل سرُّه مكتومًا عن الجميع حتى خرجت إحدى نوباته عن المألوف وكاد أن يقتل أخته الصغيرة حين تشبث في رقبتها قاطعًا النَّفس عنها دون إفلات.. لم يدرِ رفعت ماذا يفعل، ولم يشعر بنفسه إلا حين تدخل بتهورٍ ضاربًا سرور على رأسه الضعيف بعنفٍ لم يُدرك مداه إلا حين قُطِع النفس عن أكبر أبنائه.

أدرك رفعت أن لا مفر له من فعلته، واستغل عطوة ذلك ليُحقق طمعه في منصب العمدة الذي طالما حلم به.. فاقترح على رفعت أن يتم إعلان وفاة كليْهما في حادث سيارة؛ حتى تبدو ميتة سرور طبيعيةً، ولا يتساءل أحدٌ عن سبب خروجه وحيدًا، فلا تضيع سمعة الطحاوية

حين يعرف الناس أن كبيرهم قتل ولده!.. وافق رفعت بعد تفكيرٍ وبعد وعدٍ كاذبٍ من عطوة بأن يرعى العائلة من بعده وخاصة أمه وأخته وأخيه الذي رفض إخبار أبنائه بوفاة رفعت، مكتفيًا بقطع زياراتهم عن بيت العائلة حتى مات بعدها بفترةٍ..

ومن يومها ورفعت يقطن بعيدًا عن الحياة في طحا داخل مسجد الشيخ صالح، لا يخرج إلا ليلًا كي لا يراه أحدٌ، استمرَّ الوضعُ هكذا لفترةٍ طويلةٍ من الزمن وقلَّ خوفُه من الظهور بعد أن نسي الجميعُ شكل العُمدة رفعت في هيئته المهيبة السابقة.. فحتى وإن شوهد مُصادفة أثناء صلاة من الصلوات ظنه أهل البلد فرَّاش المسجد أو معاون الشيخ صالح الذي يرى بعينيْه. أخبرني أن ناجي عرف كل شيء بعد مدةٍ قصيرةٍ من حادثة وفاة أبويْه دون أن يُبدي الكثير من الحزن أو يُضمره.. خمَّن رفعت أن أخي لم يُخبرني لأنه ظن أنني أتعمد تجنُّب الحديث عن كل ما يتعلق بالوفيات.

كانت قصته غريبةً لم أستوعب معظم أحداثها، ولكن طريقة حكيه وبكائه جعلتني أرغب في التصديق، حاولت وضعه في فخٍّ بسيطٍ كي أعرف إن كان مسخًا من صنعي أم أنه موجودٌ حقًّا، فسألته عن رأيه فيما حدث بقضية الحَجْر فهزَّ رأسه ببساطةٍ أنه لا يعرف أن هناك قضيةً من الأساس.. طلبتُ منه طلبي المُعتاد بأن يظهر ويعود ليوقف فساد عطوة وناجي.. رفض مستخدمًا نفس أسبابه

المعتادة.. أخبرته بغضبي الشديد من هذا الردِّ المحفوظ، وأنني أحتاجه ليقفَ معي ضدهم.. ابتسم حين أدرك أنني عدتُ للاعتراف بوجوده.. ربَّت على كتفي قائلًا:

- طبعًا لازم تاخد حقك، بس أخد الحق محتاج صنايعي.. وأنت لا مؤاخذة غشيم. التار عامل زي طاجن البامية؛ لازم يستوي براحته ويبات ويتسخن كذا مرة عشان تحس بطعمه. وموضوع الحجْر ده...

قاطعته بشرودٍ:

- أنا فعلًا عايز آخد حقي بس مش من موضوع الحجر ده؛ أنا سهل أعمل فلوس قد اللي هما عايزين ياخدوها دي ميت مرة.. وكفاية منظرهم المُهزق في المحكمة، بس أنا شاكك في حاجة أكبر..

بدت الحيرةُ عليه فأردفتُ قائلًا:

- أمجد مات بطريقة مش مفهومة، وأنا اتدفنت غلط برغم كل الاحتياطات، وطلعت بعدها بشكل مش فاهمه، ولولا ستر ربنا أكتر من مرة كان زماني ميت، وتقديس الناس ليّا.. مش معقول كل اللي بيحصل لي ده نحس أو صُدف بتجرّ بعضها!.. حاسس إن فيه حدّ راسم وبيخطط لكل حاجة من ساعة الوأد لحدّ دلوقتي.

لمزيد من الكتب الحصرية
زوروا موقع عصير الكتب
www.bookjuices.com

fb.com/groups/Book.juice

ننتظر رأيك ومناقشتك للكتاب
على جروب عصير الكتب
facebook.com/groups/Book.juice/

١٧

الحَلَقَةُ الأَخِيرَةُ

«فأسُ إبراهيم»

الجمعة 10 نوفمبر 2006

"استعدوا.. عشر دقائق ونبدأ بث الحلقة".. هكذا أعلنها مخرجُ البرنامج الذي كان دوره كالموظف الذي يُنفِّذ ما يُمْلَى عليه سواء مني أو من سامح أبو خاطر. أثار حضوري في السويعات القليلة قبل التصوير جدلًا واسعًا؛ فأنا مُختفٍ عن الجميع منذ أربعة أيام دون تحضيرٍ لكل تفاصيل الحلقة كالمعتاد، كما ساعد خلافي مع خالد- الذي استقال من عمله معي- على تثبيت دعائم الشائعات التي تنبَّأت بعدم وجود حلقة أخيرة للبرنامج.. لدرجة أن سامح أوقف الإعلانات الترويجية للحلقة ومهَّد للكثير من الحجج التي سيتلوها على الرعاة بعد أن يئس من ردِّي على مكالماته الهاتفية.

استرجعتُ ما حدث بعد جلستي مع رفعت التي أسررتُ إليه فيها بشكوكي؛ فهناك يدٌ كبرى تعبثُ بحياتي لتُحيلها جحيمًا، لم يُصدق مخاوفي وذكر أن هذه وساوس تُطارد أي شخصٍ يبلغُ قمة النجاح، حتى وإن كان نجاحًا زائفًا قائمًا على "تلبيس العِمم". شعرتُ فجأة بوجعٍ شديدٍ يعتصرُ قلبي، تركت رفعت وسط الكثير من التساؤلات والقلق، تذكرت النسناس الذي تناول نفس تركيبتي ولاقى حتفه منذ مدةٍ، استرجعتُ في كلام إيف عن مقاومة جسدي لآثار التركيبة التي ستطول عن مقاومة النسناس لفترةٍ قد تسمح لها بالبحث عن علاجٍ مناسبٍ. يبدو أن الآثار قد بدأت مداهمة قلبي مثلما أنبأتني إيف متوجسةً من مصير من سيصبح زوجها المستقبلي.

توجَّهت إلى الحسين، ترجَّلت من سيارتي دون أن أركنها تاركًا لشرطة المرور مهمة إماطة أذاها عن الطريق. جلستُ في محيطِ جامع الحسين الواسع وسط الدراويش والمجاذيب الذين يُطلِق عليهم عامةُ الناس "المبروكين"، شعرتُ بنسمة هواء خريفيةٍ وأزكمت أنفي رائحةُ البخور فبعثتا في نفسي طمأنينةً مؤقتةً.. افترشتُ الأرض تمامًا مثلهم لأنام دون أن أطلب المدد من الحُسين؛ فبعيدًا عن الاختلاف الفقهي على حرمانية طلب المدد من غير الله وتأويله إلى الشرك.. فأنا أعلمُ أن الحُسين لم يُدفن في مصر من الأساس، وأن المَقام المُقام له هنا مدفنٌ شرفي ليس أكثر.

لأول مرةٍ في حياتي أشعرُ بالخوف من الحياة؛ حياة من ينتظر الموتَ، يتجسدُ أمامه عدٌّ تنازليٌّ لعُمره؛ فيشعر بقيمة كل ثانية تتناقصُ من هذا العدَّاد، يتمنى أن يعود به الزمنُ إلى المهد. هل ستُقبَل توبتي أم أنها تأخرت كتوبة فرعون لحظة الغرق؟!.. لا يهم كم من الماء سأشرب؛ فحلقي سيظلُّ جافًّا تُسيطر عليه الغُصَّة، أشعرُ أنني أتآكلُ من الداخل، لا شك أن هذا التآكُل سيظهر عليَّ سريعًا. ترحمتُ على السابقين وأطلالهم مُتذكرًا كل تفاصيل معيشتهم التي لم يُدركوا زوالها، الآن فقط أستوعب عبارة "لو دامت لغيرك ما وصلت إليك" تمامًا.. استرجعتُ كل لحظات الاقتراب من الموت التي تعرضتُ لها؛ تجسَّدت أمامي حادثة فقدان والديَّ، ومنظر جثة حسن المنتفخة، وسكون فرحة ووجهها المُسفِر المُستبشر، وتجربة الوأد كاملة، كما تخيلت جسد أمجد الذي لم أشهده إلا حيًّا يُرزق؛ فتخيلته مسخًا اختلط دمه بعظامهِ بحديد سيارته.. لا يهم بأي صورةٍ مات، فجميعهم الآن عظامٌ ممتزجةٌ بالتراب بعد أن تحلل لحمهم، كلهم أرواحٌ هائمةٌ في ملكوتٍ لا يعلم منتهاه إلا خالقه. أدركت أن كل يوم باقٍ في عمري سيأتيني على هيئة البلاء؛ فهذا يومٌ ينتقص من عمري، وتلك خطوةٌ أخطوها بعيدًا عن الدنيا مُقتربًا من المحطة الأخيرة.

اتخذتُ قرارًا بعدم إكمال البرنامج والاعتكاف في محيط الجامع حتى يأتيني أجلي الذي اقترب أكثر من أي وقتٍ

مـضى، حاولـت النـوم متجاهـلًا وجعـي النفـسي وألمي المحسـوس الـذي ينقـرُ قلبـي مُعلنًـا اقـتراب قطـار المـوت مـن محطتـه الأخـيرة.

لم أدرك كـم مـن الوقـت مـرَّ عـليَّ في هـذه الحالـة السـاكنة، أراقـبُ جميـع مَـن حـولي؛ يتطوحـون ذاكريـن اللـه.. يهيجهـم البخـور فيجعلهـم سـكارى تحـت تأثـير نشـواهم. فقدتُ شـهيتي تمامًـا وازداد طـولُ لحيتـي، ولكـن الجانـب المُـشرق أن أوجـاع قلبـي بـدأت تقـل عكـس مـا توقعـت.. كـما أننـي اكتشـفتُ نقطـة ضعفـي تجـاه الأطفـال الذيـن حُرِمـت مـن إنجابهـم؛ حين رأيتهـم يلعبـون مـن حـولي.. اصطـدم بي مـرةً أحـدُ الصبيـة الـذي أتى للصـلاة في الحُسـين مـع والـده؛ اعتـذر لي الطفـل فدعـوتُ لـه اللـه، سـألته عـن اسـمه ليُجيبنـي أن اسـمه "جابـر صـلاح".. كـرَّرت لـه دعـوتي بالبركـة في عمـره وصحتـه.

تصادقـتُ- دون حديـثٍ كثـيرٍ- مـع شـخصٍ يُدعى"عَـلْي مَبخْـرة"؛ الـذي يـدورُ عـلى محـلات الحسـين بمبخرتـه ذاكـرًا اللـه متوسـلًا، ومتسـولًا المـال مـن عبـاده.. أعـرفُ وجهـه منـذ زمـنٍ وأُدرك أن أصحـاب المحـلات يتباركـون بـه ويتجنبـون دعواتـه عـلى مـن ينهـره منهـم. لاحـظ أننـي لا آكلُ ولا أتسـول للحصـول عـلى طعامـي فـراح يُحـضر لي معـه قـدرًا مـن الطعـام يُسـاعدني عـلى البقـاء حيًّـا.

لم أدرك أن شروق شمس الخميس قد حان إلا حين شعرتُ باهتزاز هاتفي الذي كان يئنُّ من عدم شحنه.. لمحتُ الوقت والتاريخ أعلى شاشة الهاتف، كدتُ ألا أرد كما كنت أفعل خلال الثلاثة أيام الماضية ولكن المتصل كان إيف، اتصَلَت بعد أن أرسلت عدة رسائل مُلخصها وجوب ظهوري سريعًا.. أجبتُ عليها لتُخبرني أنها كانت معتكفةً في معملها ولم تنم منذ يومين لتجد حلًّا لمشكلتي الآخذة في التفاقم، وتظن أنها قد وجدت العلاج المنشود!

اقتحمت عقلي خاطرةٌ غريبةٌ حين أدركتُ أن خطر الموت سيبتعد عني قليلًا، اتسعت عيناي بفهمٍ، بعد أن أنار حديثها جزءًا من عقلي جعلني أرغب في العودة السريعة إلى الحياة التي هربتُ منها.

انقطع الاتصالُ لخلو بطارية الهاتف من آخر شحناتها الكهربية؛ كأنها جندي استراح من المعركة بعد أن أدَّى واجبه الوطني. تحسَّست جيبي لأتذكر أنني قد نسيت حافظة أموالي الجلدية داخل السيارة التي تقبع الآن في إدارة المرور بعد أن أزالها الونش. حاولتُ أن أتذكر عنوان جبران؛ أخبرني ذات مرةٍ أنه يقطن في إحدى الحارات المتفرعة من شارع المُعِز لدين الله الفاطمي الذي لا يبعدُ كثيرًا عن جامع الحُسين.. وبعد الكثير من الجهد والقليل من الأسئلة وصلت إلى بيته.. طرقتُ البابَ كثيرًا؛ فجبران كان عاطلًا

عـن عملـه لاختفـائي، فـلا شيء يُـبرر اسـتيقاظه في هـذا الوقـت المبكـر. فتـح أخـيرًا بجفـونٍ مُنتفخـةٍ، ومـا لبـث أن رآني حتـى أصابـه الفـزعُ الشـديدُ، أدركـت أن مظهـري الـرثَّ أفزعـه، أزحتـهُ مـن أمامـي دون اسـتئذانٍ مُقتحـمًا شـقته، أمرتـه بسرعـةٍ ارتـداء ملابسـه، وطفـتُ في شـقته بحثًـا عـن شـاحنٍ يُلائـم هاتفـي، طلبـتُ مـن جـبران قـدرًا مـن المـال الـذي كنـتُ أغدقـه عليـه، ينبغـي أن أتصـل بمعـاذ عصفـور ليسـاعدني عـلى التأكُّـد مـن بعـض شـكوكي، كـما يجـب أن أسرع بالذهـاب إلى إيفلـين.. تجاهلـتُ مُحـاولات جـبران لتهدئتـي، طلـب منـي أن أجلـس لالتقـاطِ أنفـاسي حتـى يُحـضر لي مـا أشربـه.. لم أعبـأ بحديثـه، أكملـتُ عمليـة بحثـي عـن الشـاحن التـي تمَّـت مقاطعتهـا حـين لمحـت مـا هـو أهـم منـه بكثـير.

***

أصرَّ سـائقُ السـيارة الأجـرة أنـه يعـرفُ وجهـي جيـدًا.. لم أخـبره هويتـي، وصفـتُ لـه مَسْـكَن إيفلـين، وطلبـت منـه بحـزمٍ التـزام الصمـت حتـى نصـلَ إلى وجهتنـا المنشـودة، كـما أخرجـت هاتفـي الـذي لم ينـل القـدر الكبـير مـن الشـحن لتعجـلي الوقـت.. اتصلـت بمعـاذ عصفـور الـذي ردَّ مـن ثـاني محاولـة اتصـالٍ بصـوتٍ ناعـسٍ، بـادرني بالشـكر عـلى التزامـي الزمنـي بدفـع أتعابـه في قضيـة الحجْـر، أخبرتـه أن مبلغًـا مماثـلًا سـيدخلُ في حسـابه البنـكي إذا أتـاني ببعـض المعلومـات قبـل

حلول الظهر.. لمحتُ الدهشة البادية على السائق حين سمع ما طلبت من مُعاذ الإتيان به، حاول إخفاءها كي لا أنهره ثانية. وعدني معاذ بتسخير فريق عمل مكتبه الذي يأتمر بأمره من أجل الحصول على إجاباتٍ دقيقةٍ ومُفصلةٍ لكلِّ أسئلتي.

***

"استعدوا.. خمس دقائق ونبدأ بث الحلقة".. أعلنها هذه المرة مُساعد المخرج بعد أن تركه رئيسُه ليتأكد بنفسه من الإضاءة المُسلطة على وجهي، في بداية عملي بالبرنامج كانت تُزعجني هذه الإضاءة حتى تعلَّمت تجاهلها تمامًا كما اعتدتُ التعامل مع صوت المخرج المزعج الذي ينتقلُ عبر سماعة الأذن مُقاطعًا اندماجي على الهواء.. اقترحتُ على سامح أن تكون الحلقاتُ مُسجلةً ولكنه رفض ذلك حتى لا يظن الناس أن المكالمات مُفبركة وأن الحلقة تم التحضيرُ وعمل "مونتاج" لها. أصاب فريق العمل كله القلق من عدم التحضير لموضوع هذه الحلقة، أوجسوا خيفةً من صمتي وعدم تبرير اختفائي حتى اللحظات الأخيرة من الإعداد للبثِّ المباشر؛ خاصةً لسامح الذي تجاهلتُ مكالماته، لم يكن أمامه حلٌّ آخر سوى الانتظار حتى تنتهي الحلقة كي لا يضطر إلى إعادة مال الرعاية للمُعلِنين.. مال عليَّ ساعي الأستوديو ليُخبرني أن أستاذ لطفي صاحب دار النشر أرسل

مساعده ليسلِّمني نسخةً من الكتاب الذي "ألَّفته" والذي يحمل اسم "العودة من الموتِ إلى الموت" فور صدوره من المطبعة.. طلبتُ منه أن يستلم النسخة بدلًا مني ويضعها في غرفتي بالأستوديو.

تركتُ متخصص التجميل "الماكير" يعبثُ في وجهي كيفما شاء، كان حريصًا على عدم مُضايقتي خوفًا من غضبي عليه وافتعال شجار معه؛ مثلما فعلتُ مع الحلَّاق الذي شذَّب ذقني، ومتخصص الأزياء "الستايلست" منذ قليلٍ حين أصرَّ على تنفيذ تعليمات المُخرج بإلباسي بدلةً رسميةً كي أظهر بنفس الشكلِ الذي كنتُ عليه طوال الموسم.. الأمرُ الذي انتهى بتنفيذي لرغبتي في الظهور بالملابس التي أتيتُ بها من بيتي؛ كانت عبارةً عن معطفٍ كُحلي تحته قميصٌ لبني اللون أسفلهما بنطلون من الجينز أسود وحذاء رياضي. تركتُ فرشاته تُداعب وجنتيَّ مُحاولة تجنب شَعر لحيتي.

استرجعتُ ما حدث بعد أن تناولتُ العلاج الذي زعمت إيفلين أنه سيشفيني، جلستُ معها مُعربًا عن افتقادي لها ولصُحبتها، سألتني عن الحلقة الأخيرة؛ فأجبتها أنني سأقلبُ فيها الطاولة على الجميع.. سألتني عن أحوال ناجي بعد القضية.. أجبتُها أنني لا أعرف عنه شيئًا. قاطع حديثنا الحميمي اتصالٌ من مُعاذ الذي أخبرني بنجاح فريق عمله

في تنفيذ كل طلباتي، فتوجَّهت على إثر مكالمته إلى أكثر من مكانٍ..

***

اعتذر سائقُ سيارتي الاحتياطية عن تأخره للقيام ببعض أعمال الصيانة.. نهرته عن الكذب وأخبرته أنني لن أغضبَ إذا اعترفَ أنه يستخدمها في مشاوير خاصة به لتحسين دخله.. شكرني داعيًا الله أن يُسدد خطاي. سألني عن جبران فأجبته أنه يُنهي مهمةً خاصةً لصالحي، وصفتُ له وجهتنا القادمة وقد أدركَ من لهجتي أنني لا أرغبُ في المزيد من النقاش.. قابلتُ مساعد معاذ عصفور الذي عرَّفني بنفسه ذاكرًا بصوتٍ خفيضٍ وبلهجةِ فخرٍ أنه من حضر قضية الحجْر مع مُعاذ.. أعطاني ظرفًا ورقيًّا سميكًا، وأخبرني أن كل ما طلبته تم إنجازُه على أكمل ما يكون.

انتقيتُ ورقةً من داخل الظرف والتي كُتِب فيها العنوانُ الجديدُ لعائلة أمجد.. كان قريبًا سهل الوصول إليه؛ فيلا صغيرة في إحدى المُجمعات السكنية الحديثة على الطريق الصحراوي، رحَّب الأستاذ عمّار بي لأنني "من ريحة الغالي" وكذلك فعلت زوجته وابنته التي أخبرتني أنها لم تفوِّت حلقةً من الموسم كله، بعد تناول الشاي وبعض المخبوزات التي أتت معه.. سألني أبو أمجد في بعض الأمور المتعلقة بمحتوى البرنامج، كما طلبت أخت أمجد رأيي في

عريس تقدَّم إليها منذ أسبوعٍ؛ قلتُ لها أنْ تتبعَ قلبَها وتُصلي لاستخارة مولاها.. اعتذرتُ على قدومي دون ميعادٍ سابقٍ وعلى تأخر عزائي لهم في فقيدِهم لشهورٍ، لخَّصت لهم ما مرَّ بي بعد الحادثة من تجنُّب الأقربين وطمَّعهم فيما أملك، تجنَّبت ذكر أن أمجد كان سببًا رئيسيًّا لكلِّ ما واجهته فيما بعد، تكلمت عن إيف ولمحت لوجود بيننا ما هو أكثر من صداقةٍ.. حذَّروني منها وأخبرتني أم أمجد أنها كانت بمثابة البومة التي نحست العائلة، وأن أمجد كان يشتكي منها في أواخر أيامه كونها فاترةً معه تُعامله بخبثٍ شديدٍ، وتصميمها على تأجيل حَملها بتناول الحبوب المانعة لحدوثه.. كما تعجَّبت أم أمجد من موضوع بوليصة التأمين التي لم يعرف عنها أحدٌ سوى جبران.. دافعتُ عن إيف قائلًا إنها أخبرتني بنيَّتها في إعطاء أبي أمجد نسبةً من البوليصة تعويضًا لأسرتهِ عمن فقدوه، وأسفًا على عدم إنجابِها صغيرًا يحمل لقبَ العائلة.

لم يُعلق أحدُهم وأشاحت الأم بوجهِها بعيدًا كي لا أرى دموعَها، اقتربتُ منها وربتت على يدها مُواسيًا، ثم أخبرتُها أن وفاة أمجد لم تكن مجرد صدفةٍ، اتسعت أعينُهم وأكَّد الأب على كلامي قائلًا إنه أدلى في التحقيقات بنفس القول دون اهتمامٍ أو تصديقٍ من الشرطة، وتلا عليَّ مواصفات السيارة التي أخبر عنها المُتصل المجهول، والتي قُيدت في التحقيقات أنها كانت تُراقب سيارة ابنه حين خرج من

بيته قبل الحادثة بدقائق؛ كانت المواصفاتُ مألوفةً بالنسبةِ لي، ولكنني لم أعبأ كثيرًا باستنتاجهِ الذي تعارضَ مع ما أعلمه. تجاهلتُ دهشتَهم وهواجسَهم، وقصصتُ عليهم بعضًا مما يجولُ في خاطري.. اتسعت أعينُهم فزعًا وتكذيبًا حين انتهيتُ من سرد استنتاجي بخصوصِ القاتل المسئول عن تدبير الحادثة!

***

اتصلتُ بإيف أثناء توجُّهي إلى الجامعة، أخبرتها أنني سأنفذ فكرة الهجرة بعيدًا عن مصر والمشاكل التي تُطاردني فيها.. ترددتُ في الموافقة على مرافقتي ثم وافقتُ بعد إلحاحٍ ووعدٍ بأن نزورَ أهلها ونقيمَ زفافنا في بيت عائلتها، قالت بقلقٍ إن الضابط المسئول عن التحقيق في قضية أمجد يتصل بها من وقتٍ للآخر ليتأكد من وجودِها في القاهرة لأن التحقيق لم يُغلق بعد؛ فتخاف أن تثيرَ الشكوك بسفرها، كما أخبرتني أن إقامتها داخل مصر ستنتهي قريبًا، طمأنتها أنني سأجد حلًّا، وأن كل المطلوب منها أن تبحثَ عن صورةٍ شخصيةٍ لها تُعطيها لسائقي الخاص الذي سأرسله إليها بعد أن أبلغ وجهتي.

أوقف السيارة الحارسُ الواقفُ على بوابة كلية الطب، حين أنزلت زجاج سيارتي رحَّب بي وأخبرني أنه من أشد المعجبين ببرنامجي.. طلبتُ منه الإسراع في إدخالي لأن اليوم

الخميس وموعد خروج الموظفين قد اقترب.. سألني عن سبب الزيارةِ فأجبته أنني أتيت لرؤية صديق، وحين تأكَّد من الاسم سمح لنا بالمرور.. أمرتُ السائقَ أن يتركني ليذهبَ إلى عنوان إيفلين ليأتيني بصورتها الورقية.

لمحتُ الطلبة يخرجون من مدرج المحاضرات، سألت أحدهم عن المحاضر فأجابوني بالاسم الذي أتيتُ لأجله، سمعتهم يشكرون في أسلوبه المُتميز أثناء إلقاء المحاضرة لدرجة أنهم يُحصِّلون معظم المعلومات أثناء جلوسهم أمامه.. وأن أسئلته في الاختبارات تعتمدُ على الفهم أكثر من التلقين؛ عكس دكاترة كثر لا يهتمون بربط الدراسة بالواقع..

لمحته من خارج المُدرج يُغلق مكبر الصوت مُجيبًا أسئلة الطلبة بابتسامةٍ ودودةٍ، جمع أوراقه داخل حقيبته الجلدية متوجهًا إلى مكتبه الذي يقع في نفس الطابق بنهاية الرواق كما أخبرني مُعاذ عصفور نقلًا عن أحد مساعديه. طرقتُ المكتب بهدوء؛ لم يبدُ أنه تعرَّف عليَّ من الأساس، سألته إن كان يتابع التلفزيون فاعتذر لانشغاله أغلب الوقت في عمله كمدرسٍ جامعي وكطبيبٍ في عيادته الخاصة، لدرجة أنه يغفل أهل بيته في الكثير من الأحيان. قلتُ ضاحكًا:

- ده طبعًا غير الشغلانة التالتة معاليك..

بدا الاندهاشُ على وجهه فقلتُ وأنا أنظرُ إلى الشهادة الجامعيةِ المُعلقة خلف مكتبه والمكتوبة بالإنجليزية:

- مـين كان يصـدّق إن دكتـور أنـس صالـح عـز الديـن.. الطبيـب والأكاديمـي المرمـوق.. يطلـع زعيـم أكـبر عصابـة نَبْـش قبـور في البلـد؟!

بـدا الفـزعُ عليـه ونـادى عـلى سـاعي مكتبـه ليقـوم بطـردي، اقتربـت منـه بحركـةٍ سريعـةٍ، قلـتُ لـه محـذرًا:

- أنـا مـش عايـز أئذيـك في شـغلك ولا في بيتـك يـا أبـو داليـا.. هاسـألك سـؤالين وأمشي!

***

شـارعٌ يقـودُ إلى حـارةٍ، وحـارةٌ تقـودُ إلى زقـاقٍ، وزقـاقٌ يقـودُ إلى زنقـةٍ، وزنقـةٌ تقـود إلى أخـرى، حتـى انتهـى بي المطـاف أمـام بيـتٍ مُتهالـكٍ مـن دوريـن.. كان العنـوان كـما وصـف لي معـاذ عصفـور بالضبـط، تأكـدت مـن صحتـه حـين دخلـت البيـت لينقـض عـليَّ في الحـال رجـلان ضخـما الجثـة، سـألني أحدهـما:

- مين جاي معاك؟!

- أنـا لوحـدي، معـاذ عصفـور المحامـي هـو الـلي وصـف لي العنـوان وقـال لي إنـه سـايب للبهلـوان خـبر.

أفسـحا لي الطريـق، شـعرتُ باشـمئزازٍ مـن منظـر مُحـدثي الـذي كان مُشـعرًا كغوريـلا، ورائحتـه كالخِـراف. كان المـكانُ مـن الداخـل مُختلفًـا تمامًـا عـن ظاهـره؛ فقـد كان أنيقًـا واسـعًا

خاليًا من الأثاث، تراصت أجهزة الكمبيوتر بداخله بعضها إلى جوار بعض في نفس نظام شركات الاتصالات، شعرت ببرودة الجو ملاحظًا كثرة مكيفات الهواء. لم أحتج إلى الكثير من الذكاء لأدركَ أن ذلك "البهلوان" هو صاحب هذا المكان الذي يُطيعه الجميع مُخلصين.. صافحته وأخبرته أن المبلغ الذي طلبه تم تحويلُه إلى حسابه البنكي، وأن مبلغًا مماثلًا سوف يصله بعد أن ينهى عمله، تعجَّب من قدوم شخصية عامة مثلي منفردًا دون أن أصطحب أحدًا من "رجالتي"، سأل عن المطلوب منه بالتفصيل فأجبته بصوتٍ خفيضٍ:

- أنا ناوي أسافر مع حدّ عزيز عليَّا بعد بكرة، مُعاذ حجز لي تذكرتين الطيران، وباسبوري سليم.. المشكلة في الشخص اللي هايسافر معايا، فعايزين نعمل له باسبور زي ما يكون أصلي بالظبط.

غمز لي، وقال بنفس لهجة الخبث:

- حدّ عزيز عليك برضه؟ يا سيدي يا سيدي..

نظرت له لائمًا دون أن أرد عليه، أخرجت من جيبي صورةً ورقيةً.. اعتذر عن تلميحاته، أومأ برأسهِ علامةً على الفهم قائلًا إن الصورة تبدو قديمةً، طلبت منه أن يتلاعب بها على برنامجphoto shop ليجعلها تبدو أحدث من زمن التقاطها.. وعدني بإتمام ما أريد بمنتهى الإتقان في أقل من يوم، سألني باهتمامٍ:

- تحب نعمل للشخصية دي باسبور باسم معين؟!

أجبته بعد تفكيرٍ لم يدم طويلًا:

- اعمله باسم نور.. نور يوسف.

***

"نص دقيقة على البث المباشر".. لم أتعلم بعد تجنُّب الإضاءة الحمراء المنبعثة من الكاميرا؛ أرتبك حين ينتقل الضوء من كاميرا إلى أخرى مُعلنًا وجوب تحرُّكي لأوجِّه بصري مقابلًا له. لحسن حظي أن المكتب الذي أستند على حافته يُداري اهتزاز قدميَّ اللتيْن لم أستطع التحكم فيهما.. فوجئتُ باقتحام خالد الأستوديو مشيرًا لي بقلق، لم أفهم من إشاراته سوى أن هناك أمرًا جللًا، ضم يده في شكل قبضةٍ فاردًا خنصره وإبهامه كأن يده هاتفٌ محمولٌ.. بدأ العد التنازلي من رقم خمسة، أخرجت هاتفي مسرعًا ونظرتُ إليه لأتفاجأ بأكثر من عشر مكالماتٍ فائتةٍ من رقم عَطوة ونصفها من رقم خالد.. لم أفهم ماذا يحدثُ وأشرتُ إلى خالد بهدوءٍ أن يصبر حتى أول فاصل...

- ستاند باي يا أساتذة.. هوا.

بدأ المصورون والمساعدون يتحركون في صمتٍ، تحركت الكاميرا العالية المسلطة على وجهي من السقف نزولًا ببطء حتى واجَهَتني، أثناء نزولها تذكرتُ جيدًا نصائح

مُعاذ التي تلاها عليَّ هاتفيًّا حين أخبرته بما أنوي أن أفعل؛ حذرني من العبث مع من هم مثل سامح أبي خاطر، وحين يئس من عدولي عن قراري طلب مني ألا أخبر أحدًا بما سيقول، أوصاني بالرمزية وفي حديثي الذي يجب أن يكون عامًّا مُبهمًا قدر الإمكان؛ تجنبًا لأية مساءلةٍ قانونية:

- إنهاردة الحلقة العشرين والأخيرة من برنامج الموءود.. بصراحة أول ما بدأت ما كنتش متوقع إن الموسم يكمِّل لحدّ الرقم ده.. وبصراحة أكتر ما كنتش حابب فكرة البرنامج في البداية. بس الموضوع طلع مش وحش أوي كده؛ كفاية إن الغشاوة راحت من عنيَّا بعد ما كنت فاكر إن كل اللي حصل لي الفترة اللي فاتت مجرد سوء حظ..

انتقل البثُّ من كاميرا إلى أخرى فاضطررتُ إلى التحرك قليلًا بمقعدي الدوار قائلًا:

- أنا عارف إني باين قدّامكوا عايش، بس أنا ميّت من زمان، مش من يوم ما اتدفنت بالغلط زيّ ما حكيت لكوا قبل كده، ولا حتى من يوم ما أبويا وأمي ماتوا قدّام عينيّا في حادثة مشئومة.. أنا ميّت من يوم ما فقدت الإيمان، فقدت إيماني في نفسي وفي كل حاجة حواليّا، كفرت بالناس وبالخير وبأي معنى كويس.

انتقل الضوء من كاميرا إلى أخرى فزفرتُ حانقًا وأنا أستديرُ ببطءٍ:

- إحنا مش محضّرين حلقة زيّ كل مرّة عشان أنا تعبت من كتر ما باكدب عليكوا.. والمشكلة إنكوا عارفين إني باكدب، بسّ مستحليين الكدب اللي مصبّركوا على العيشة؛ الكدب اللي بيخلق لكوا حلّ لمشاكلكوا اللي مش عايزين تحلّوها، اللي بيوعدكوا إن بكره جاي أحسن، وهو عمره ما هايكون أحسن طول ما فيه ناس زيّي وزيّكوا!

أبدى المخرج اعتراضه على حديثي، وأخبرني بضرورة الخروج لفاصلٍ إعلاني، توقعت أن يتمرد مُبكرًا عن هذا، صرخ في أذني:

- إيه اللي بتهببه ده يا يحيى.. إنت هاتخرب بيتنا!

لمحت خالد ينظر إليَّ مُحفزًا لأكمل خطابي فقلتُ مُحدثًا الكاميرا الموجهة نحوي:

- أنا بيتي كده كده مخروب، سيبني بقى أخربه بإيدي.

عدت لأكمل حديثي مع المشاهدين:

- لمّا بافتكر معظم أعذار غيابي عن الدراسة أو الشغل بلاقيها "حالة وفاة".. يا سادة أنا حياتي كلها بتدور في فلك جملة "أحببْ مَن شئتَ فإنك مُفارقه"! ويوم

مـا فارقـت وقلـت هرتـاح خـلاص.. رجعـت لقيـت الـلي طمعانـين فيّـا، والـلي مسـتنيين منـي الـلي مـش عنـدي.. بالعـربي كـده: جلعـوني فانجعلـت. اللحظـة الـلي زيّ دي مـا بتحصلـش غـير مـرة في العمـر، عـارف إني ممكـن أنـدم عـلى الـلي هايحصـل قـدّام.. بـس عمـري مـا هانـدم عـلى الـلي قلتـه.

اهتـز هاتـفُ المخـرج، نظـر إلى المُتصـل فلـم يجـد رقـمًا، وجـد عبـارة: Private number ، أدرك أن المتصـل شـخصٌ ذو حيثيـةٍ يطلـب قطـع البـث، أجـاب بصـوتٍ مرتعـشٍ ليجـد صوت سـامح أبي خاطـر الـذي عرَّفـه بنفسـه قبـل أن يقـول آمـرًا:

- اقطع البث يا بني!

ردَّ المخرج بحزمٍ:

- حضرتـك الراجـل مـا قالـش حاجـة غلـط، سياسـة البرنامـج إنـه يتكلـم عـن تجربتـه مـع الدفـن.. وأظـن مافيـش نهايـة أحسـن مـن كـده، ده غـير...

- لو عايز تفضل عايش اقطع الهوا عنه.

- حاضر يا سامح باشا.. أنا آسف.

أغلـق سـامح الخـط في وجـه المخـرج قبـل أن يكمـل جملتـه، تحـدَّث إليَّ آسـفًا في مكـبر الصـوت أمامـه:

- عشر ثواني وهاقطع عليك يا يحيى.

ألقيت السماعة من أذني، وأكملت حديثي قائلًا:

- وزير الإعلام النازي قال: "أعطني إعلامًا بلا ضمير، أعطيك شعبًا بلا وعي".. ما تصدقوش أي إعلامي لمجرد إن كلامه على مزاجكوا، حللوا كل كلمة بتتقال لكوا بالعقل والمنطق.. حتى لو عليها مليون دليل!.. أشوفكوا على خير.

نزعتُ مُكبر الصوت المُثبت في قميصي، نهضت وسط تصفيق نصف الحاضرين، النصف الآخر كان يحمل همّ لقمة عيشه التي انقطعت بسبب فعلتي، شقَّ خالد صفوف المُلتفين حولي بين مؤيدٍ ومهاجمٍ، ومال على أذني قائلًا:

- عايزك ضروري..

قاطعته مُبتسمًا بهدوءٍ:

- فيه مبلغ محترم عشانك اتحول لحساب دكتور نجيب السعدني، واشترطت عليه ماتصرفش منه مليم غير لمّا يتأكد بنفسه إنك خفيت من الإدمان.. حجزت لك في المصحة جنب حبيبك شكري، سلِّم لي عليه وقول له إن فيه مبلغ تاني باسمه، شدّ حيلك يا بطل.

هزَّ رأسه شاكرًا ووعدني همسًا بالعلاج. تذكر سبب قدومه وقال بلهجةٍ جادةٍ:

- أنا خليت الساعي يلم كل حاجة تخصك في أوضة الأستوديو وينزِّلها عربيتك.. رجالة سامح جايين الأستوديو دلوقتي عايزينك.

خرج المخرج من غرفة التحكم وطلب مني الرحيل من الباب الخلفي للأستوديو؛ حيث حرَّك الساعي سيارتي بعد أن وضع بداخلها كافة متعلقاتي، وأنه سيتصدى لرجال سامح مع باقي العاملين في الأستوديو ليعطلوهم عن اللحاق بي.. أيَّد الجميع اقتراحه حتى المختلفين منهم معي بخصوص ما قلته في البرنامج، اعتذرت لهم شاكرًا شجاعتهم وطلبت منهم أن يتركوني أحل مشاكلي بنفسي، قاطعني خالد قائلًا بحزم:

- مش وقته.. لازم نروح طحا بسرعة!

هززتُ رأسي مُستفسرًا، فقال بأسفٍ:

- أخوك ناجي.. تعيش إنت.

١٨

العَوْدَةُ مِنَ المَوْتِ إِلَى المَوْتِ

السَّبت 11 نوفمبر 2006

نظر عطوةُ إلى ساعة الجيب العتيقة خاصته؛ فعرف أن يوم الجُمعة قد انقضى وأن الساعات الأولى من يوم السبت قد جاءت مُحَملة بالكثير من الشؤم، قطع غرفته جيئة وذهابًا، خاف أن يظهر أمام أهله بهذه الحالة فيفقد هيبته، تحدَّث إلى نفسه بصوتٍ عالٍ لاعنًا حظ الطحاوية الذين اقترب اسمهم من الفناء، كان الصراخُ داخله أعلى كثيرًا من صراخ الحريم بالأسفل.. ظلَّ مُنتظرًا يحيى آملًا في أن يفعل شيئًا حيال وفاة ناجي المُفاجئة؛ أليس هو الطبيب المداوي الذي يتبارك به الجميع؟.. وأليس الأقربون أولى بكراماته التي يجود بها على الآخرين!.. فليُنقذ نسل العائلة الذي أوشك على الانقراض. علم عطوة بوصول ابن أخيه يحيى حين سمع صوت سيارته المُسرعة التي أوقفها

بصوت فرامل مزعجٍ وخرج منها راكضًا نحو بيت العائلة. نزل عطوة فوق سلالم بيته متوجهًا نحو غرفةٍ أرضيةٍ وُضِع بداخلها جُثمان ناجي المُسجَّي، استقرَّ حوله الكثير من أهله وأصحابه، استشعر يحيى نحيب النسوة صادقًا صارخًا بمحبة أخيه.. قارنها بالصرخات المُفتعلة التي سمعها يوم مماته المزعوم؛ فأدرك أن فكرة المقارنة ظالمة له.

تبادل نظراتٍ صامتةً مع عطوة، ركع بجوار جسد ناجي دافئًا وجهه بين كتف أخيه ورقبته وراح يهتزُّ باكيًا.. نظر خالد إلى الأرض بأسى وسأل عطوة عن سبب الوفاة.. بدا على يحيى الانتباه لما سيقول عمه.. لم يجد عطوة ما يقول؛ غمغم بعباراتٍ غير ملتحمةٍ، كالحديث عن إرهاق العمل، وعن حالة الحزن التي انتابته بعد آخر قضية التي تبعتها قطيعةٌ تامةٌ مع أخيه، وعن تأنيبِ الضمير الذي التهمه التهامًا بعد الخروج خاسرًا من قاعة المحكمة.. لم يفهم خالد معظم كلام عطوة ولكنه استنتج أن يحيى خاصمه قبل الوفاة.

ذكر عطوة الكثيرَ من الكلام المُعترِض على القدر والقضاء؛ فتحدث عن شباب ابن أخيه الذي خُطِف مبكرًا، وعن عدم وجود سببٍ واضحٍ للوفاة المفاجِئة التي حدثت في مكتب ناجي الخاص.. فجأةً لمعت عينا خالد وقد التقط

الخيط الذي كان يُحاولُ عطوة الإلقاء به ليحيى مُحرَجًا من ردة فعله؛ فقال ليحيى:

- مش ممكن ناجي يكون حصل له نفس اللي حصل لك، وحصل لي في مكتب الصحفية.

لم يبدُ الفهمُ على يحيى.. فقال عطوة بسرعةٍ مُستعيدًا كلمات يحيى من برنامج "الموءود":

- الغشاوة يا يحيى؛ الغشاوة اللي الجنّ وضعها على عيون البشر عشان يدفنوا أقرب الناس ليهم، وهو عايش وبيصرخ من جوّاه عشان يلحقوه.. مش ده كلامك؟!

أمَّن جميع الواقفين على كلام عطوة، حتى النسوة توقفن عن النحيب اللائي ترقَّبن رد يحيى على عمه، ترجَّاه الجميع أن يفعل شيئًا.. أشار عطوة لهم كي يصمتوا ثم ربَّت على كتف يحيى مُشجعًا:

- إلحق أخوك يا ابن الطحاوية.. إحييه!

حضن يحيى جسد أخيه مُستعيذًا بالله حين أذاقه عطوة نفس كلماته التي كان يُلقنها لأتباعه، بكى كما لم يفعل من قبل.. التهمته الحسراتُ من الداخل. طلب منه خالد الهدوء وأن يُحاول أن يتلو على أخيه ما تلاه من قبل

عليه، اقترح عليه تكرار نفس التجربة.. وجَّه يحيى حديثه لعمه قائلًا:

- مش جبتوا دكتور كشف عليه؟!

طأطأ عطوة رأسه مُجيبًا بالإثبات، وكاد يُقبِّل يديْ يحيى كي يحاولَ ممارسة قدراته غير العادية لإعادة أخيه إلى الحياة.. أعلنها يحيى بهدوءٍ مخاطبًا جميع الموجودين بالغرفة:

- البقاء لله يا جماعة.

رفض الناس قوْل يحيى على أخيه، لعنه بعضُهم وصمت البعضُ الآخر خائفين من غضبه، اعترف أنه لا يملك من أمره شيئًا وأن ما حدث معه لم يكن إلا صدفة.. كذَّبه خالد وقال إنه رأى بعينيه ما يمكنه أن يفعل.. صرخ فيهم أن الرسول مات ولده أمامه ولم يملك له إلا الدعاء والشفاعة، فمن هو ليُؤخر أجل أخيه إذا جاء؟!.. وصل نفس المُغسِل الذي تعهَّد بجثمان يحيى من قبل.. صافح يحيى باحترامٍ شديدٍ وخوفٍ جللٍ. شعر المُغسِّل برفض بعض الحاضرين لوجوده نكرانًا منهم لفكرة موت ناجي، ورفضًا لتكرار نفس الخطأ الذي اقترفوه من قبل مع أخيه باعتباره ميتًا. نظر المغسل إلى يحيى وكاد أن يطلب منه نفس طلبهم؛ ولكن نظرة ناهية من يحيى وأدت الحديث في مهده.. أمرهم يحيى بلهجةٍ حاسمةٍ:

- ذيعوا على ناجي في الجامع وقولوا إن دفنته وعزاه بكرة.. كفاية تعذيب لروحه، إكرام الميت دفنه.

لمح في أقصى الغرفة سكرتير مكتب أخيه، فجذبه من ذراعه خارجَيْن من الغرفة حتى وصلا إلى بهو دوَّار عطوة، ربَّت على كتفه وقال له بلهجةٍ منكسرةٍ:

- ناجي قال لك حاجة قبل ما يموت؟!

بدا على السكرتير الذُّعر، وقال ليحيى بصوتٍ متهدجٍ:

- طلب مني أكلِّم حضرتك وهو بيطلَّع في الروح، بس تليفونك كان مقفول.. أكيد كان عايز منك تسامحه.

بدت الحسرةُ على يحيى، حاول أن يُداري دمعةً فلتت من عينيْه، سأله بقلقٍ:

- أكَل أو شرِب حاجة قبل ما يموت.. ولا وقع فجأة؟!

ردَّ السكرتير متذكرًا:

- المكتب كان فاضي وهو كان بيشتغل على قضايا قديمة زيّ كل جمعة.. دَخَلت له المكتب بكوباية شاي، لمّا طلعت لقيت زبونة طالبة تقابل أستاذ ناجي الله يرحمه.. أول ما سمع اسمها اتنفض وقال لي أدخَّلها بسرعة.

سأله يحيى بلهفةٍ:

- شكلها إيه الست دي؟

- كانت بتتكلم عربي مكسّر وشكلها غريب؛ زي ما تكون خواجاية كده.. وبعد ما مشيت بدقايق الراجل وقع من طوله!

- كان اسمها دكتورة إيفلين؟!

أجاب السكرتير بعد ثوانٍ من التفكير:

- بالظبط كده يا مولانا.

***

تركتُ العزاء حين سمعت أذان المغرب، توجَّهت إلى مدخل طحا حيث كانت تنتظرني إيفلين التي أضاف لها اللون الأسود جمالًا فوق جمالها، لم يُعكِّره إلا حالة الاضطراب التي بدت عليها، حاسبتُ سائق الأجرة الذي أتى بها وساعدني على نقلِ حقائِبها داخل سيارتي، فتحتُ لها باب السيارة الأمامي، ربَّتُّ على يدها وذكَّرتها أنها من طلبت المجيء..

كم أكره القيادة ليلًا.. خاصةً حين يكون الطريقُ وعرًا ومُتربًا كمعظم الطرق التي تؤدي إلى المقابر، وحين تجلسُ إلى جوارك أنثى لا تكف عن النحيب، وحين لا يتوانى هاتفك

المحمول عن إصدار ذلك الصوت المزعج.. تفتح "تابلوه" السيارة بحثًا عنه لتُخرسه فلا تجد إلا كتابًا يحمل اسمك...

مهلًا.. أشعر أنني قد رويت هذا الجزء من قبل؛ حين بدأتُ الحكي أثناء محاولتي لفتح باب حوش المقابرالذي استجاب بعد عناء. كان خاليًا كما اتفقت مع سلامة اللحاد الذي لم يُحاول أن يفهم؛ ترك لي فأسًا صغيرةً خفيفة الوزن. توجَّهت نحو شاهد القبر القابع في ركنٍ قصيٍّ من الحوش، والذي يحمل اسم رفعت الطحاوي.. ركعت على ركبتي واستخدمت حَدّ الفأس لأكشط طبقة الأسمنت المُحيطة بالرخامة الحاملة لاسمه والتي نحتها منصور منذ زمنٍ، ثبتُّ طرف الفأس كأنه عتلة خلف الرخامة المُلتصقة وبدأت أنتزعها بحرصٍ كي لا تتحطم، كانت مُثبتة جيدًا فتطلبت مني الكثيرَ من الجُهد لإخراجها سليمةً. قالت لي إيفلين وسط دموعٍ جافةٍ إننا يجب أن نرحل الآن، لم أعبأ بقولها.. وحين كرَّرت طلبها بلهجةٍ أكثر قلقًا أشرتُ لها ضامًا أصابعي حول بعضها وأنا أحرِّك يدي بشكلٍ رأسي كي تصبر؛ معللًا أن ما خططنا له يجب أن يتم على أكمل وجه.

نهضتُ من أمام القبر متوجِّهًا نحو آخر، لمحتُ شيكارة الأسمنت التي حرص رزق دومًا على عدم نفاد ما بداخلها لتنغلق تُرب العائلة كما يجب.. أخبرني اليوم بعد دفنة ناجي أن الشكارة أصبحت خاويةً، وقال مُبتسمًا لن نحتاج

لـشراء أخـرى لفـترةٍ طويلـةٍ!.. لم أفهـم معظـم حديثـهِ كعـادتي. يبـدو أنـه نـسي أن يتخلـص منهـا وتركهـا مُلقـاة بجـوار قـبر أخـي، نظـرتُ إلى شـاهد قـبره الخـالي مـن أي دليـلٍ عـلى وجـود ناجـي بداخلـه، أخـبرني عطـوة صباحًـا أنـه طلـب مـن منصـور قطعـة رخـامٍ منحـوتٍ عليهـا اسـمه، لم أخـبره أننـي لـن أراهـا لأننـي سـأكونُ قـد سـافرت...

أطلقـت إيـف صرخـةً مدويـةً بعـد أن التصقـت بي في فـزعٍ، أقسـمت أنهـا سـمعت صوتًـا غريبًـا، سـألتني إن كنـتُ قـد سـمعته مثلهـا.. أخبرتهـا أن مـا تسـمعه هـو محـض هواجـس لأن هـذه أولى زياراتهـا للمقابـر، قبَّلـتُ رأسَـها مُربتًـا عـلى كتفهـا.. أخبرتهـا أن رحيلنـا قـد اقـترب؛ وأن لحظـة الحسـاب قـد بـدأت. ضربـتُ الأسـمنت المحيـط بمدخـل مقـبرة أخـي، ضربتـين بالفـأس كانتـا كفيلتـيْن لتحطيـم القفـل، دخلـت إلى المدفـن حتـى بلغـت كتـف ناجـي، حملتـه برفـقٍ خارجًـا لإيفلـين التـي فزعـت مـن المنظـر، أرحـت ظهـرَه عـلى شـاهد القـبر، وقفـتُ لألتقـط أنفـاسي بعـد هـذا المجهـود الكبـير، نزعـت الكفـن عـن نصفـه العلـوي، وصفعتـه عـلى وجهـه!

فتـح عينيْـه بصعوبـةٍ، لم يُحـرك سـاكنًا كـما كان حـالي حـين أخـذتُ نفـس التركيبـة منـذ شـهور.. لم أُرِد منـه سـوى وعيـه، نظـرتُ لـه بحنـقٍ وقلـتُ لـه غاضبًـا بلهجـةٍ أشـبه بالفحيـح:

- ينفع اللي عملته فيَّا ده يا ابن والدي؟!

لم أجد إجابةً عن سؤالي سوى الصمت، طلبتْ مني إيف الإسراع، لم أعبأ بها، نظرتُ إلى وجهه الساكن وعينيْه المُتسعتين عن آخرهما، وضحكتُ بهستيريا قائلًا:

- مش هاترد طبعًا.. طول عمرك بتعرف تدافع عن الباطل وتحوِّل الغلط صح، المرة دي أنا سلبتك الحق ده؛ عشان أنا متأكد إنك هتعرف تبرِّأ نفسك قدَّامي!

أكملتُ حديثي مُبتسمًا بخبثٍ:

- بس إيه رأيك في تمثيلي؟.. مُحترف مش كده؟!

قلَّدتُ ما فعلته منذ ساعاتٍ، وقلتُ بلهجةٍ مفتعلةٍ ساخرًا:

- البقاء لله يا جماعة.. إكرام الميت دفنه.. مش هاقدر أعمل له حاجة.. ما يعرفوش إنك لازم تتحاسب هنا الأول، قبل ما تتحاسب فوق.

لم أعبأ بعينيْه اللتين لم تكفا عن التحرُّك من محجريْهما، ولا من منظر إيفلين التي أوشكت على أن تفقد وعيهَا وقلتُ بجديةٍ:

- بس بصراحة خطتك كانت حلوة، واتلعبت صح جدًّا.. لولا شوية غلطات صغيرة؛ أولهم موافقتك السريعة على فكرة التجربة، واللي كان أي أخ ممكن يقلق فيها على أخوه أو حتى يتشاءم من إنه يتوصم بالموت،

تانيهم جار أمجد اللي شاف عربيتك ووصفها في مكالمة مجهولة للبوليس.. وطبعًا أنا ماكنتش مهتم أعرف مواصفات العربية، ولا حتى أهل أمجد عمرهم ما كانوا هايخمّنوا إن إنت اللي عطَّلت الفرامل وقتلت ابنهم.

ثم أشرت إلى إيف التي كانت مشدوهةً لا تُصدق منظر ناجي المُلقى أمامها ملفوفًا في كفنه لا يبرز منه إلا رأسه الساكن:

- وتالتهم الست دي؛ الوحيدة اللي وقفت جنبي في الوقت اللي أهلي باعوني فيه، وفي عزّ ما كل الناس كانت خايفة مني؛ هي اللي لاحظت عربيتك وربطتها بالمواصفات اللي اتقالت لها في المحضر. كل دي كانت أجزاء صغيرة من صورة أكبر بكتير، كل تصرفاتك فيها ما لهاش مُبرر واحد؛ صحيح لولا ستر ربنا اللي نجَّاني لمّا بعت لي نبَّاش كان زمانك وارث أرضي ومتجوّز مراتي، بس أكيد ده مكانش غرضك الرئيسي من إني أتدفن.

أشرت لإيف التي أخرجتْ من حقيبة يدها ملفًّا ورقيًّا ملفوفًا، ركعتُ على ركبتي حتى تقابل وجهينا.. فتحتُ الملف مُمسكًا برأس ناجي لأوجه عينيه نحوه بعنفٍ:

- بص كده يا ابن أمي وأبويا، ده ملف عليه اسمك لقيته بالصدفة وسط ملفات المرضى لما رُحت أنضف

عيادة أمجد مع إيف، وسبحان الله اتشخّصت بنفس المرض اللي كان عندي: النيكروفوبيا!

مكتوب في الملف إن أمجد عرض عليك التجربة قبل ما يعرضها عليَّ.. بسّ إنت كعادتك كنت جبان؛ زيّ يوم الحادثة بالظبط: فضلت مرمي في حضني وسبتني أعيش مع الكارثة لوحدي. وطبعًا إنت اعتمدت على إن أمجد مُلزم يحافظ على أسرار الحالات اللي عنده، وقرَّرت تجرَّب فيَّا العلاج؛ يعني لمَّا فتحت عليَّ الكفن في المُستوصف عشان تخلِّيني عارف أتنفس.. ما كانش حبًّا فيَّا.. إنت بس كنت عايزني أكمِّل التجربة للآخر وتشوف إيه ممكن يحصل لي لحدّ ما أتدفن، وأكيد كنت هاتفتح التربة بأيّ حجّة بعدها بكام يوم تشوف جثتي اتحَرَّكِت جوَّه النعش ولا لأ.. لو اتحرَّكِت يبقى أنا فضلت عايش بعد الدفن والتجربة نجحت وتقدر تجرَّب التركيبة براحتك، ولو كنت فضلت ساكن تحت الأرض تبقى روحي طلعت قبل خضّة القبر والتركيبة فيها حاجة غلط من الأساس.

ظلَّ يفتح ويُغلق جفنيْه بنظرةٍ غير مُصدقةٍ، لأول مرةٍ في حياتي أشعرُ أنني أفهم لغة العيون، فهمتُ أنه يُحاول أن يُبرئ نفسه، أن يقول الكثيرَ مما يدفعُ عنه أذاي، قلتُ له مُبتسمًا:

- نفس النظرة اللي شوفتها في عينك يوم ما دخلت عليكوا بيت العيلة وإنتوا بتقسّموا تركتي، بسّ المرة دي مش هاتقدر تجري تجيب لي دكتور عشان تشوف التركيبة هاتفضل معيّشاني لحدّ إمتى.. وأكيد هيّ دي نفس النظرة اللي كانت على وشك لمّا خسرت قضية الحَجْر. أنا بقى قرَّرت لأول مرة في حياتي أكون أنا الفِعل؛ فبعتّ لك إيف المكتب تحطّ لك التركيبة من غير ما تاخد بالك؛ قلت أخليك تجرَّبها بنفسك وتشوف كل آثارها، مش بسّ عليك وكمان على اللي حواليك.

أخبرتني إيف بلهجةٍ جامدةٍ أن موعد الطيارة سيفوتنا، فقلتُ خاتمًا حديثي:

- حاول تتعود يا ريِّس مع وضعك الجديد؛ مع ناس خايفين منك، ومع أهل طمعانين فيك ماعندهمش مانع يحجروا على كل اللي حيلتك لمّا يكتشفوا إنهم مش هيورثوا منك مليم. أنا طلعت أجدع منك وقرّرت أسيبك تورث كل حاجة كانت ليّا؛ عشان بسّ تشوف الحياة بعنيّا، وتعيش نفس القرف اللي أنا عيشته، ولو سامح اتصل بيك عشان تعمل إنت الموسم التاني وافق عشان فلوسه كتير.. أنا خلاص شبعت فلوس وقررت أسافر أبدأ من جديد.

لمحتُ الفزع في عينيْه أثناء مُغادرتي من بوابة الحوش، فقلتُ له مُستدركًا:

- ما تقلقش أنا مش وسخ زيّك ومش هاسيبك مرمي تحت الأرض وسط عضم الأموات.. رزق هيجيلك كمان شوية معاه التركيبة التانية اللي هاتفُكّ جسمك، والعلاج اللي بيعالج آثار التركيبتين؛ وآهه بالمرة تلحق تاخد العزا بتاعك بنفسك.. عيش بقى يا ابن الطحاوي.

***

توجَّهتُ مُسرعًا إلى بيت العائلة لأغتسلَ وأغيّر ملابسي التي تكوَّم الترابُ عليها، وصل سائقُ سيارتي البديلة بسيارة أجرة كما طلبتُ منه، استفسرعن سبب غيابي عن عزاء أخي.. أخبرته أن سفريةً طارئةً منعتني، وعدني بالتوجُّه إلى المطار في أقل من نصف ساعة من طريقٍ مُختصرٍ. لم أصدقه إلا حين نفَّذ ما وعد به، ساعدته الشوارع الخالية والمقاهي الممتلئة، أوقف السيارة حين وصلنا إلى بوابة المطار، ساعدني على إنزال الحقائب، تركتُ له السيارة يعمل عليها حتى أعودَ من سفري وأستردها، سألني عن ميعاد عودتي، فهززتُ كتفيَّ وأشرتُ إلى السماء حيث العليم الوحيد بأوان رجوعي.. سألني عن السيارة الفارهة التي كان يقودها جبران.. قلتُ له إنني بعتها، لم أخبره أنني أعطيت أموالها لفرحات الطحاوي؛ حتى يحوِّل بيت العائلة القديم

إلى مدرسةٍ مجانيةٍ لأطفال طحا. عرفتُ بعدها بفترةٍ طويلةٍ أن فرحات سمَّى المدرسة: "فرحة".

عند مدخل المطار طلبتْ مني إيف الإسراع للانتهاء من إجراءات السفر التي قد تستغرقُ وقتًا.. أخبرتُها أنني أريدُ التقاط أنفاسي قليلًا بما أننا قد وصلنا باكرًا عن ميعاد الطائرة.. ابتعدتُ عنها مُستئذنًا لأقوم بمكالمةٍ هاتفيةٍ لصديقي الذي يعمل هنا ليُنجز لنا كافة الأوراق أثناء انتظارنا في استراحة المطار.. نظرتُ إلى ساعة يدي أثناء الجلوس: كانت الساعة الثامنة والربع مساءً، لم يكن حولنا الكثير من الصحبة.. كانت الحركةُ في المطار غريبةً؛ فمعظم الحراس واقفون أمام جهاز تلفزيون في إحدى الغرف الجانبية، لمحتُ بطرفِ عيني مُسافرًا يجلسُ قريبًا منا ويُحاول التقاط إشارات راديو محمول، لم أفهم ما الحدث الجلل الذي يُحاول الجميع متابعته، كما لم أحاول أن أفعل.. نثرَت إيف شَعرها على كتفي حين أراحت رأسَها فوقه محتضنةً ذراعي، هَمَسَت بعبارة حُب لم أعتد سماعها منها، تحدَّثت عن إعدادها لكافة تفاصيل زواجنا في ألمانيا، أخبرتني الكثيرَ عن طقوس الزواج لديهم.. هززتُ رأسي سارحًا فيما هو أهم؛ كم أرغبُ أن ينتهي هذا اليوم وأغادر مصر.

مـدَّت يدَهـا في حقيبـة يدهـا.. اندهشـتُ حـين اكتشـفتُ أنها أحـضرت كتـابي- الـذي لم أكتبـه- مـن السـيارة معهـا، نظرتُ إلى غِلافـه السَّـميك وعبـارة "العـودة مـن المـوتِ إلى المـوت" التـي تتوسـطه، طالعـتُ اسـمي المكتـوبَ بخـطٍّ أصغـر مُسـتنكرًا هزليـة الموقـف؛ لم أعلـم مـا الـذي أثـار إعجـاب إيـف في كتـابٍ لم أكتبـه ولا أعـرف محتـواه مـن الأسـاس. أشـادت إيـف بجـودةِ الـورق الداخـلي للكتـاب، فتحتـه وحاوَلـت جاهـدةً القـراءة، طلبـتْ منـي أن أقـرأ لهـا منـه حتـى يـأتي صديقـي الذي سـيُنهي الإجـراءات؛ فتحـتُ أول صفحـةٍ في الكتـاب التـي كُتِـب فيهـا إهـداء لـكل أمـوات عائلتـي بالاسـم؛ يبـدو أن لطفـي يعـرف مـا يفعلـه جيـدًا.. فقـد أحـضر مـن اجتهـد وبحـث ليعـرفَ عنـي ويكتـبَ بلسـاني بشـكلٍ مقبـولٍ، بـدأتُ بالمقدمـةِ القصـيرةِ المُدونـة في الصفحـات الأولى، وقـرأتُ ببـطءٍ عـلى إيـف قائـلًا:

"مـؤلمٌ هـو ذاك المـوت؛ أن ترحـل بغتـةً، يتوقـف جسـدك كماكينـةٍ انقطعـت عنهـا الكهربـاء إلى الأبـد، تسـمع أحبابـك يصيحـون فيـك لتبقـى.. وكأن عودتـك خيـارٌ تتخـذه بكامـل إرادتـك. أن تذهـبَ في رحلـةٍ لا تأجيـل لهـا ولا عـودة منهـا، لا تعلـم مُنتهاهـا ولا تملـك لهـا زادًا كافيًـا مـن العمل الصالـح، يتردد في ذهنـك سـؤالٌ مفـزعٌ لا مفـرَّ منـه: "فيـمَ أفنيـت عمـرك؟".. ولكـن الأكـثر فزعًـا أنـك لا تملـك إجابـةً شـافيةً عليـه!"

تعجَّبتُ من اللهجة الدينية التي اكتست بها المقدمة، فأسرعتُ القراءة بعيني أبحثُ عن نهايتها، طلبتْ مني إيف التمهُّل في غمغماتي فقلتُ لها إن المكتوب لا يتسق مع محتوى الكتاب المزعوم، قلبت صفحاتِه سريعًا بنظرةٍ عابرةٍ استشففتُ منها أن المحتوى لا يختلف كثيرًا عما كنا نقدمه في البرنامج، حتى وصلتُ إلى الخاتمة التي سُطِرَ فيها: "لا يستغرق الأمرُ طويلًا.. فخلال بضع ثوانٍ تحدث النهاية؛ كمُحارب عظيم يُجهِز على منافسه بأسرع الطرق الممكنة.. فيزداد نشاطُ المخ بشكلٍ مفاجئٍ ليتوقفَ بعدها بلحظاتٍ، وتنخفض حرارة جسدك تدريجيًّا، تبدأ خلايا جسدك بالموت بسبب انقطاع النَّفَس وبعدها يبدأ التآكلُ من الداخل، وبعد سويعاتٍ تتيبَّس عضلاتك ويتخشَّب جسدك، و..."

لم أستطع إكمال تلك الخاتمة المُفزعة التي لمحتُ نهايتها التي تتحدث عن كافة الحالات التي يمرُّ بها الجسد بعد الموت. حاولتُ تغيير الموضوع؛ فأخبرت إيفلين أنني بحثتُ عن معنى اسمها فوجدته: "الحياة".. ردَّت بابتسامةٍ أن أمها أخبرتها ذات مرة أنه يعني "الطائر الصغير"، قلتُ مازحًا إن جزءًا من اسمها "إيفِل" أي الشيطان، لتجيبَ ضاحكةً أنني اقتطعت الجزء الخاطئ من الاسم؛ فإن تدليلها "إيف" يعني حواء.. ضايقتُها حين قلت إن لها حظًّا من جميع هذه المعاني!

لمحتُ ضابطين يدلفان إلى صالة الانتظار مُسرعيْن.. سألتُ إيفلين إن كانوا قد علَّموها في بلادها أننا سُذَّج.. لم تفهم سؤالي وأعربت عن قلقها حين توجَّه الضابطان نحونا. سألني أحدُهما عن هويتي فأجبته مُبتسمًا بهدوءٍ؛ بعد أن أخرجتُ كافة أوراقي.. طلب الضابط الآخر من إيف جواز سفرها فنظرت لي خائفةً حتى أخرج الجواز المزوَّر، تجاهلتُها ونظرتُ للضابط سائلًا عن السبب فأجابني بحزمٍ:

- فيه بلاغ إن دكتورة إيفلين حرَّضت على قتل جوزها دكتور أمجد عمَّار، وإنها بتحاول دلوقتي تهرب برّه مصر.

لم ترُد إيفلين، فأجبتُ الضابط بنفسٍ هدوئي:

- الدكتورة إيفلين جايه تودَّعني لأني مسافر، مش هاتهرب ولا حاجة.

نظر الضابطُ إلى إيفلين قائلًا بلهجةٍ جادةٍ:

- بعد إذن حضرتك اتفضّلي معانا مش عايزين نعمل قلق في المكان.

سألتْ إن كان جديد قد جدَّ في قضية أمجد فقال الضابط بهدوء:

- أستاذ جبران سمير مساعد جوزك الله يرحمه اعترف خلاص إنك حرَّضتيه على جريمة القتل.

طلبت مني إيفلين أن أردَّ على الضابط وأخبره بالحقيقة التي أدركها كالشمس، فأجبته صادقًا:

- كلامك صحّ يا أفندم..

نظرتْ لي إيفلين مصدومةً.. تجاهلتُ همساتِها، وأكملتُ حديثي مُبتسمًا:

- أنا أصلًا اللي بعت لكم جبران يبلَّغ عن الهانم.

تجاهلتُ صدمة إيفلين طالبًا من الضابط أن يسمح لي كي أنفردَ بها لدقائق قبل أن يصطحبها معه، وافق على مضضٍ.. قبل أن تثور في وجهي قلتُ لها مُبتسمًا:

- مش ملاحظة إن الصُّدَف اللي وقَّعت ناجي كانت كتير زيادة عن الواقع؛ يعني بالصدفة ألاقي ملف باسمه في عيادة أمجد؛ اللي كان دايمًا بيشكرني على حمايتي لأخويا، وبالصدفة برضه تيجي مكالمة "مجهولة" توصف عربيته بالمللي مع إن الحادثة حصلت في عِزّ الليل.. وأول ما أقول لك إني شاكك في ناجي وإني عايزك تروحي له مكتبه ما حاولتيش تدافعي عنه، وما اترددتيش لحظة في إنك تحاولي تسِمّيه بالتركيبة الشؤم بتاعتك.. واضح إنك خبرة في الموضوع ده؛ من أول ما حطّيتي لي حاجة في الأكل تخلّيني أحسّ بوجع في قلبي عشان أقتنع إن نهايتي قرّبت.. وشوفي حكمة ربنا: أول

مـا بعـدت عنـك الوجـع راح وبعدهـا بـكام يـوم تقوليـلي إنـك اكتشـفتي العـلاج!.. كنتـي عايـزاني ماشـوفش غـيرك لمّـا لقيتـي إني تذكرتـك الوحيـدة للهـروب؟

حاولَـت أن تـردّ فلـم يخـرج منهـا سـوى كلمـة "ناجـي".. ألزمتهـا الصمـت مُقاطعًـا حديثهـا بإشـارةٍ حازمـةٍ مـن يـدي، وأردفـتُ قائـلًا:

- ناجـي طـمَّاع وكلـب فلـوس وفيـه كل العِـبَر.. بـس مـش قاتـل؛ هـو بغبائـه سـهِّل لـك مهمتـك ولبِّـس نفسـه في دم أمجـد لمّـا رفـع قضيـة الحَجْـر. وبصراحـة أنـا كنـت قرَّبـت أصـدّق إنـه عملهـا، وأنـسى إنـه أنقـذ حيـاتي كـذا مـرة وسـط التجربـة.. لحـدّ يـوم مـا رُحـت لجـبران شـقته ولقيـت النسـناس لسّـه عايـش.. الـواد مـا كدِّبـش خـبر وحـكى لي كل حاجـة: مـن أول مـا طمَّعتيـه في صاحبـه الـلي وثـق فيـه عشـان يعمـل لـك بوليصـة تأمـين باسـمك، ولحـدّ مـا طلبتـي منـي أشـغَّله معايـا عشـان يسـهِّل عليـكي تعـرفي كل أخبـاري، وتوقّعينـي في ناجـي أخويـا.

نظـر لي الضابـط بقلـقٍ مُشـيرًا إلى سـاعته، أومـأتُ لـه طالبًـا لحظـاتٍ إضافيـةً معهـا.. نظـرتُ إليهـا مُكمـلًا حديثـي:

- بـس للأمانـة الـواد كان جـدع معـاكي لآخـر لحظـة؛ أنكـر في الأول إنـه قتـل أمجـد.. وعشـان أبـرَّأ ناجـي قـدّام نفـسي رُحـت بعدهـا لدكتـور أنـس بتـاع مافيـا الجثـث؛ والـلي

أكِّد لي إن أخوه كريم كان مراقب أمجد لحظة بلحظة، وإن ما حدش ظهر ليلتها غير جبران اللي وقف جنب العربية دقايق قبل أمجد ما ينزل على طول. رجعت تاني للكلب بتاعك وعملت عليه شويتين السّحر اللي اتعلّمتهم من البرنامج.. عيَّط واعترف إنه هو اللي عطَّل الفرامل، وإنه كان عارف منك موضوع التجربة، وإنكوا ما لقيتوش معاد أنسب من ده عشان تقتلوا أمجد؛ لأن موتي هيغطّي على شكوك الناس في قتل أمجد.

أمسكتُ ساعدها بقسوةٍ قائلًا:

- يعني طول الوقت ده ما كنتش أنا المقصود.. كانت حادثتي مجرد غطا ليكوا، وناجي مجرد مُتهم مناسب الجريمة متفصلة على مقاسه.

أخبرتُها أن خدعتها كانت ستُغلق كلعبة الدومينو، ولكن القدر أبى إلا أن يكتمل الدور، وأكملتُ ضاحكًا:

- بس ملحوقة؛ أنا خيَّرت جبران بين إنه يسلِّم نفسه ويعترف عليكي، وبين إني أبلَّغ عنه كشريك أساسي في الجريمة، وزي أي كلب مطيع قرّر يعترف عليكي. وحتى لو حصلت معجزة وخدتي براءة؛ فشركة التأمين ما هتصدّق تمسك في اعترافه وما تدفعش ليكي مليم.

ومش هاتعرفي تماطلي معاهم في الإجراءات لأن إقامتك غالبًا هتكون خلصت.

قالت إيفلين وسط دموعِها:

- كل اللي كنت عايزاه إني أرجع بلدي، أمجد كان رافض؛ قبل ما يموت كان بيعاملني كأني خدَّامة كل المطلوب مني إني أخدمه وأخلِّف له ولد، وفلوسي كانت بتتحطّ في حساباته.. بس أنا حبّيتك بجدّ.

أمسكتُ ساعدها بحزمٍ، وقلتُ بصوتٍ حاولتُ أن أجعله خفيضًا :

- وأنا كنت فاهم إني حبّيتك، وما كنتش هاصدّق أيّ حاجة من دي ولا هاشك فيكي أصلًا لولا غلطتك الكبيرة: لمّا زوّرتي ملف لناجي عند أمجد وكتبتي فيه إن مرضنا ده موروث.. لمّا رُحت المصحة أطمِّن على شكري وأحجز مكان لخالد قابلت دكتور نجيب السعدني وسألته في الموضوع ده؛ أكِّد لي إن مستحيل أمجد ولا البروفيسور الأجنبي بتاعه يفكروا في علاجي بطريقة الصدمة لو كانوا شايفين مرضي موروث جينيًّا.. لأن العلاج بالصدمة بينجح بسّ لمّا الشخص بيكون مريض نتيجة صدمة نفسية قديمة؛ زي حالتي كده بالظبط.

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ لافتًا بعض الأنظار نحوي، شكرتُها على كل ما علَّمته لي، وطلبتُ من الضابط أن يصطحبها..

امتنَّ لتعاوني معه وسألني عن موعد بداية الموسم الثاني من برنامجي فقدَّمت المشيئة وأخبرته كذبًا أنني سأُنهي عطلتي وأعود لأعمل في إعداده، صرختْ إيفلين لاعنةً بالألمانية؛ لم أعلم هل لعنتني أم لعنتْ حظها العثر الذي أوقعها في أخطاء ساذجة.. كانت هذه من المراتِ القليلة التي أشعرُ فيها بالثقةِ في ذكائي؛ على الرغم من بساطة اكتشافي إلا أنه أنقذني من مكر ناجي وعطوة وهذه الشيطانة.

عاد أحدُ الضابطين مُقاطعًا لحظات نشوتي، قال بهدوء إن إيفلين ادَّعت أنني زوَّرت جواز سفر لها باسم نور يوسف.. ضحكتُ مُخرِجًا له جواز السفر الذي يحملُ هذا الاسم، وأخبرته أن نور هذا رجل وليس امرأة، وأنه صديقي يعمل في التجارة؛ وقد استأذن مني قبل دقائق لدخول دورة المياه، حثَّني على الانتهاء سريعًا من إجراءات التفتيش وخَتْم جوازيْ السفر، فشكرته قائلًا إن نور سيأتي الآن لنستكملَ الإجراءات وننضم للرحلةِ الجويةِ المُتوجهة إلى الإمارات.. قاطع حديثنا صياحُ العاملين بالمطار الذين كانوا يُتابعون التلفزيون، فزعنا من الجلبة التي أحدثوها والصراخ الذي صرخوه، سألت أحدَهم عما حدث فقال فرحًا:

- أبو تريكة جاب جول في الصفاقسي.. عملها في آخر دقيقة!

البِدَايِة

" لَا تَخَفْ كَثِيرًا مِنَ المَوْتِ، بَلْ مِنَ الْحَيَاةِ النَّاقِصَةِ"
بِرْتولت بِريشت

خرجتُ من مطار دبي الدولي، لمحتُ سائق السيارة الأجرة التابعة للفندق الذي حجزتُ إقامتي فيه يلوحُ لي من بعيدٍ. أبطأتُ حركتي وتعمَّدت تضييق خطواتي لأسايرَ الشخص المُرافق لي، توقفتُ لأتنشقَ هواءً جديدٌ مذاقه على رئتيَّ؛ لم أفهم سرَّ استمتاعي به؛ أعطيتُ نفسي لحظاتٍ لأستمتعَ أكثر برائحة الهواء الخالي من التلوث الجوي والفكري.. قررتُ أن أبدأ حياةً جديدةً بعيدًا عن كل ما مررتُ به. ضربني مرافقي على كتفي بشدةٍ قائلًا:

- بس ما لقيتش غير اسم نور ده تسمّيني بيه؟!

ضحكتُ قائلًا:

- ما له نور بس؟

- اسم مايع كده، بذمتك العُمدة رفعت الطحاوي يبقى عايش باسم نور يوسف؟!

- كان لازم أسمّيك اسم ينفع رجالي وحريمي؛ عشان الستّ إيفلين تصدّق إن الباسبور بتاعها ومتاخدش بالها إني لازق صورتها فوق صورتك يا حاج.

- بس ما سفّرتنيش باسمي الحقيقي ليه؟

- لأنك كنت عايش بهوية تانية ومزيِّف موتك.. أنا ما أعرفش موقفنا القانوني بالظبط بس قلت نلعب في المضمون، المهم إيه رأيك في الشغل؟

ردَّ رفعت وهو يتكئ في مشيته على قدمه اليسرى، مشيرًا إلى البدلة التي يرتديها لأول مرةٍ في حياته:

- بس مش كنت صوّرتني بالبدلة الجديدة دي.. بدل الصورة القديمة اللي خلّيت المزوِّر بتاعك يلعب فيها عشان تبان متصورة قريب؟!

- معلش بقى ما كانش فيه وقت نستنَّى صورة جديدة، أوعدك بكره أعمل لكPhoto session بالبدلة.

- فوتو إيه؟!.. الله يرحمها؛ ما عرفتش العربية غير لمّا داستها.

اقتربنا من السيارة التي وقف سائقها في انتظاري جامد الوجه فاتحًا بابها الخلفي بعد أن رصَّ الأمتعة في الحقيبة

الخلفية للسيارة.. سرتُ مُحاذيًا لرفعت صامتًا أفكّر في حياتي القادمة، قاطع أفكاري ثلاث فتياتٍ ممشوقات القوام ما لبث أن صحن بإعجابٍ فور أن تعرَّفن على ملامحي، قالت إحداهن بلهجةٍ شامية إنهن من متابعات برنامجي واحترمن صراحتي في نهايته.. طلبتْ أخرى التقاط صورةٍ تذكاريةٍ معي فوافقتُ مُرحبًا؛ أخرجَت هاتفها المحمول المزوَّد بكاميرا، تلفَّتت حولها باحثةً عمَّن يحمل هاتفها ذا النوع الحديث، طلبتُ من السائق أن يلتقط لنا أكثر من صورة.. ابتعد رفعت من الكادر قائلًا وهو يضحكُ للفتيات:

- مش عايزين تتصوروا معايا أنا كمان؟!.. تؤبروني يا حبايب قلبي.

عاد السائقُ ليُمسك بباب السيارة الخلفي، أشار لي كي أركب؛ فتنحيتُ لأفسح الطريق أمام رفعت ليركب قبلي، طلب مني السائق بصوتٍ خفيضٍ مهذبٍ الركوب كي نبلغ الفندق قبل الغروب.. خرج رفعت من نافذة السيارة مُلوحًا للفتيات، راح يُغازلهن بعبارات الغزل القديم.. ضحكت من قلبي كما لم أفعل منذ دهرٍ. طلبتُ من السائق أن يُغلق الحاجز الفاصل بين المقعديْن الأماميْن والأريكة الخلفية للسيارة كي لا يسمع حديثي مع رفعت، قلت له وأنا أنظر إلى ساعة يدي:

- زمان دلوقتي البلد كلها عرفت موضوع سفري.. وزمان ناجي بقى شيخ هو كمان.

قال بهدوءٍ:

- يستاهل.. خليه يشوف اللي إنت شوفته ولو مرَّة في حياته.

- كان عندك حق يا أبو الرفاع؛ التار لازم يتسوّى على الهادي ومكانش ينفع يتّاخد غير بالعقل.. بسّ اللي مضايقني إن عطوة ما خدش نصيبه من الطاجن.

ابتسم رفعت وقال:

- عطوة طمَّاع، والطمَّاع عقابه إنك تسيبه لدماغه.. هي مودّياه في داهية لوحدها.

أمّنت على كلامه مُضيفًا أن القدر قد أخذ منه ما أخذ، حاول الاطمئنان من ردة فعل سامح أبي خاطر.. أجبته أنني اتصلت عليه مُعتذرًا وشرحت له الظروف ووعدته بأن أجد له التعويض المناسب حين أعود.. لم يغضبْ كثيرًا بسبب الجدل الذي حدث بعد الحلقة التي حققت نسبة مشاهداتٍ خرافية، استفسر رفعت عن سبب اختياري دبي بالتحديد وجهةً للسفر، فقلتُ له مُبتسمًا:

- إنت مش كان نفسك تبقى "حاج" بجدّ بدل ما إحنا بنقولها لك مجاملة كده؟

أطلق سبةً بذيئةً قائلًا:

- هاجج في الإمارات يا ابن الـ.. طحاوي؟!

ضحكتُ قائلًا:

- يعني خدت بالك من دي، وما ختّش بالك إننا في شهر شَوال؟!

حكَّ رأسَه بعدم فهمٍ، فأخبرته أننا سنقضي عطلةً في دبي لكي نتمتع ونتناسى كل ما قاسيناه خاصةً في الفترة الماضية، عاتبني ضاحكًا:

- إنت جاي تفسد أخلاقي يا ابن أحمد الطحاوي؟.. طب كنت راعي إني رِجل برّه ورِجل برّه برضه.

أردف مازحًا وهو يُشير إلى السائق من خلف الحاجز:

- بعدين مش أنت قلَّعتني الجلابية وضيّعت هيبتي، خليه يودّينا كازينو مُحترم.

سعل طويلًا واهتزَّ صدرُه بألم، دعوتُ له بالسلامة.. فعقَّب قائلًا:

- أنا شكلي تعبت من الهوا النضيف.. كده أنا وأنت بقينا "عيَّان وميت".

ضحكنا بصوتٍ عالٍ، قلتُ لرفعت بحسرةٍ بعد برهةٍ من الصمت:

- تفتكر ربنا هيسامحني على اللي فات؟

- إنت صحيح أذيت ناس كتير؛ بسّ ما كانش بدافع شرّ جوّاك.. كنت بتحمي نفسك من بطشهم بيك وبسيرتك.

عدّل رفعت من وضعه حتى جلس مواجهًا لي وقال بلهجةٍ جادةٍ وهو ينظرُ إليَّ مباشرةً:

- نسيت أقول لك ما تعملش حسابك على هجرة.. لازم ترجع بجتتي لمّا أموت عشان أتدفن في أرضي ووسط ولاد دمّي.

تجاوز عن عباراتي العائمة التي لا تعترفُ بشكلٍ مباشرٍ بأن يومه سيجيء حتمًا كسائر الخلق، وردَّ على تمنياتي ببعد الشرّ عنه قائلًا إن الموت ليس بشرّ، وإن راحته في أن يلحق بفرحة وباقي نسلِها ممن سبقوه. أضاف مُحذرًا:

- وكمان لازم ترجع عشان أرضك اللي في طحا.

عقدتُ يديَّ خلف رأسي بارتياح مَن يبحث عن السَّكينة؛ طمأنينة ما بعد الانتقام، يقولون إن لذته تنتهي فور حدوثه.. ولكنني ما زلت أشعرُ بلذته وأتذوق كل ذرةٍ فيها. كم أصبو إلى فترةٍ من السلام الذاتي؛ أن أحزن على الراحلين من أهلي، أن أذكر صباي مع صديق عمري قبل أن يموت غدرًا. قلتُ بلامبالاة:

- مش عايز أرجع لهم تاني؛ الناس دي اختارت الموت، وأنا اخترت الحياة.. بعدين أنا في غنى عن شوية الطين دول...

لطمني على وجهي بعنفٍ مُقاطعًا حديثي بلهجةٍ ناهرةٍ:

- شوية الطين دول شرف جدودك، وتمنهم هايفضل رخيص مهما غِلي.. إوعى تفرّط فيهم لألعنك في تُربتي ليوم الدين!

اعتذرتُ له مُعللًا أنني قد جنيتُ من برنامجي الملايين التي ستكفل لي حياة كريمة.. اعترض قائلًا إن الحياة الكريمة في الحفاظ على العِرْض وليس التفريط فيه.. حاولتُ إقناعه بوجهةِ نظري، لكنه أشار لي بيده كي أصمت. لم نتحدث ثانيةً لفترةٍ طويلةٍ.. أطول مما توقعت.

بعد فترةٍ توقَّف السائق أمام مدخل الفندق، فتح لي باب السيارة فترجَّلت منها لأخطو بثباتٍ نحو بدايةٍ جديدةٍ.

تمَّت بحمدِ اللهِ

٤ سبتمبر ٢٠١٦

شُكر خاص..

- د. محمد طه استشاري ومُدرس الطب النفسى بكلية الطب- جامعة المنيا، وعضو الجمعية الأمريكية للعلاج النفسي الجمعي، ومؤلف كتاب (الخروج عن النص) وكتاب (علاقات خطرة).
- جزيل العرفان للأعزاء: أ. محمد عصمت، أ. منتصر أمين، أ. أحمد عبد المجيد، أ. محمد الصفتي، أ. إيهاب مصطفى، م. أحمد القرملاوي، د. أحمد خالد توفيق، دار تويا ممثلةً في كلٍّ من: أ. هالة البشبيشي و أ. شريف الليثي.. فلولا جهودُكم المُباشرة وغير المباشرة، لمَا خرج العملُ بهذه الصورةِ.
- - الصديق الدكتور مصطفى عزت، والعزيز أحمد جاويش على ما قدَّماه من مجهوداتٍ بحثيةٍ.. والصديق محمود شعبان وأسماء عامر.